سلسلة الدراسات التاريخية (49)

ملامح من الإصلاح الاجتماعي للدولة المهدية في السودان

(1298-1316هـ / 1881-1898م)



أ. د. أسامة عبد الله محمد الأمين

الطبعة الأولى 2025م

سلسلة الدراسات التاريخية (49)

ملامح من الإصلاح الاجتماعي للدولة المهدية في السودان

(1298-1316هـ / 1881-1898م)

أ.د. أسامة عبد الله محمد الأمين

الطبعة الأولى
2025م

ملامح من الإصلاح الاجتماعي للدولة المهدية في السودان

(1298-1316هـ / 1881-1898م)

أ.د. أسامة عبد الله محمد الأمين

الإيداع القانوني

......./2025م



دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribution

الناشر

دار آريثيريا للنشر والتوزيع – الخرطوم – السـودان

جوال: 121566207 - 00249122094856

البريد لإلكتروني: arithriaforpublishing@gmail.com

تاريخ النشر:

الطبعة الأولى – 2025م

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

(سورة آل عمران: الآية 104)

إهداء

إلى أبي وأمي .. اللذين غيبهما الموت عنا ...

المؤلف

شكر وتقدير

الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظمة سلطانه، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، القائل تعلموا العلم من المهد إلى اللحد.

أتقدم بخالص الشكر والتقدير للبروفيسور أبوبكر حسن محمد الباشا أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة الزعيم الازهري ، والدكتور أحمد سمي جدو محمد النور عضو الهيئة العلمية والاستشارية بمركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر ـــ السودان واستاذ التاريخ الحديث لقيامهما مشكورين بمراجعة مسودة الكتاب وإبداء العديد من الملاحظات المفيدة والقيمة التي أسهمت في خروج الكتاب بالصورة التي بين يدي القارئ الكريم ، والشكر أيضاً للدكتور / أزهري محمد حسين أبو سلامة والأستاذ / عادل أحمد الحضري ، لمراجعتهما مسودة الكتاب ، والشكر أيضاً يمتد للأخوة بدار الوثائق القومية بالخرطوم، ولأسرة المكتبة المركزية بالمركز القومي للمناهج والبحث التربوي ببخت الرضا، وللعاملين بمكتبة كلية التربية ثانوي بجامعة بخت الرضا ، وأيضاً للعاملين بمكتبة كلية التربية مبروكة للأساس بجامعة بخت الرضا ، ولكل من أسهم في صدور هذا الكتاب.

والشكر أيضاً لمركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر- السودان، ودار آريثيريا لنشرهم هذا الكتاب...

المؤلف

المحتويات

تقديم

تُعَدّ المهدية في السودان (الثورة والدولة) من أكثر الحقب التاريخية التي حظيت بالبحث والتنقيب والدراسة خلال العقد الأخير، وذلك لعدد من الأسباب والعوامل، من أهمها تعرّض المهدية للكثير من النقد والهجوم من قِبل الباحثين والمهتمين بتاريخ السودان. كما أسهم توافر المصادر والمراجع التي تناولت هذه الحقبة في إثراء الدراسات، حيث تمثلت هذه المصادر في وثائق المهدية المحفوظة بدار الوثائق القومية بالخرطوم، وجامعة درم ببريطانيا، إضافةً إلى ترجمات عديدة لكتب تناولت المهدية في السودان. ومن العوامل أيضًا بروز جيل من الباحثين السودانيين الساعين إلى الحقيقة بين طيات الوثائق والمراجع، لإماطة اللثام عن الكثير من جوانب المهدية في السودان.

ومن الباحثين المتميزين الذين نقّبوا في تاريخ المهدية (ثورةً ودولةً) البروفيسور أسامة عبد الله محمد الأمين، صاحب العديد من الدراسات والبحوث الرصينة التي تناولت هذا التاريخ. ويأتي كتابه الذي بين يدي القارئ مكمّلًا ومتوّجًا لجهوده البحثية الممتدة لسنوات.

وقد جاء الكتاب موسومًا بعنوان: **ملامح من الإصلاح الاجتماعي للدولة المهدية في السودان (1298 – 1316هـ / 1881 – 1898م)**، واشتمل على مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، إلى جانب ثبتٍ وافر بالمصادر والمراجع.

الفصل الأول: تناول الحياة الاجتماعية للمجتمع السوداني إبان الحكم التركي – المصري، وقُسّم إلى عناوين داخلية شملت: المجموعات القبلية، وظاهرة الولاءات، ومظاهر الحياة الاجتماعية، والمفاسد الاجتماعية المصاحبة للحكم التركي – المصري. وقد جاء هذا الفصل مدخلًا مهمًا وممهِّدًا لبقية الفصول.

الفصل الثاني: تناول الدعوة المهدية في السودان، موضحًا فكرة المهدية في الإسلام، وفكرة المهدية في السودان، وأسباب قيام الثورة، إضافة إلى نشأة محمد أحمد بن عبد الله وثقافته. وقد جاء هذا الفصل مرتبطًا بما قبله وشارحًا لما بعده من أحداث ومواقف.

الفصل الثالث: خُصِّص لـ مسيرة الثورة المهدية في السودان، ابتداءً من معركة الجزيرة أبا عام 1881م، مرورًا بمحاولات الحكومة المركزية القضاء على الثورة في قدير، التي شكّلت محطة مهمة لانطلاقة الثورة في كردفان، ثم في أقاليم السودان المختلفة (الجزيرة، الغرب، الشرق). كما تطرق الكاتب إلى بعثة غردون باشا إلى السودان ونتائجها، وشرح أسباب نجاح الثورة المهدية.

الفصل الرابع: ناقش اتجاهات الدولة المهدية الاجتماعية، متناولًا القيم التربوية، ومحاربة بعض العادات الاجتماعية التي تخالف نهج المهدية، ومكافحة المفاسد الأخلاقية. كما تناول قضايا مثل وضع المرأة، والرقيق في الدولة المهدية، ومدينة أم درمان كحاضرة للدولة.

وبعد هذا الطواف الشائق في رحاب الثورة والدولة المهدية، نجح البروفيسور أسامة عبد الله في صياغة خاتمة محكمة قدّم من خلالها خلاصات متميزة حول الدولة المهدية، مفيدة للمختصين والباحثين والمهتمين.

ومن المهم الإشارة إلى أن الكتاب قد اشتمل على كمٍّ وافر من المصادر والمراجع التي أسهمت في جودته وخروجه بصورة علمية رصينة. كما جرى تحكيمه من قِبل اثنين من المختصين البارزين في تاريخ المهدية والسودان، هما: البروفيسور أبو بكر حسن محمد باشا، أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة الزعيم الأزهري، الدكتور أحمد سمي جدو، أستاذ التاريخ الحديث بمركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر – السودان.

مما يجعل هذا الكتاب إضافة حقيقية إلى المكتبة السودانية والعربية.

حاتم الصديق محمد أحمد

سبتمبر 2025م

المقدمة

كانت الحركة المهدية كغيرها من الحركات الإصلاحية الإسلامية التي سبقتها تهدف إلى إحياء شرائع الإسلام السمحة ومقاومة الفساد ومناهضة النفوذ الأجنبي متمثلاً في الأتراك. وقد اهتمت بعد انتصارها على الحكم التركي ــ المصري في السودان بتربية الفرد باعتباره العنصر الأساسي في بناء المجتمع. وحتى تؤتي هذه التربية ثمارها أصدر قائدها محمد المهدي بن عبد الله مجموعة من قوانين الإصلاح الاجتماعي التي أحدثت تغيرات واسعة في حياة المجتمع السوداني وساهمت في تنقية المجتمع مما كان يعلق به من شوائب.

وتنبع أهمية الكتاب في أنه يتعرض إلى جانب مهمل في تاريخ المهدية لم يجد حقه من الباحثين والمؤرخين. لذا يقدم لنا الكتاب تجربة في الإصلاح الاجتماعي للمجتمع السوداني إذا تمت دراستها بعمق يمكن أن نأخذ منها الكثير من العبر والدروس.

ويهدف الكتاب إلى تسليط الضوء على الدور الإصلاحي الاجتماعي الذي قامت به الدولة المهدية في السودان. وقد اتبعتُ المنهج التاريخي والتزمتُ في إطار ذلك باستخدام الأسلوب الوصفي والتحليلي.

وينقسم الكتاب إلى أربعة فصول: يتناول الفصل الأول خلفية تاريخية عن الحياة الاجتماعية التي عاش فيها السودان في فترة الحكم التركي ــ المصري. وقد تركنا الوقائع تتحدث بصوتها العالي مصورة الحياة الاجتماعية التي ترتب عليها إهتزاز قيم المساواة في وقت كان العدل الاجتماعي يعاني من أزمة شديدة لا تخطئها العين.

أما الفصل الثاني فقد تعرض إلى الدعوة المهدية في السودان حيث شمل الحديث عن فكرة المهدية وكيفية انتشارها في السودان. والأسباب التي أدت إلى قيام الثورة المهدية في السودان و قد اقتضى الأمر التحدث عن نشأة محمد أحمد بن عبدالله (محمد المهدي بن عبدالله) حتى إنخراطه في طريق التصوف، حيث اكتملت شخصيته الصوفية، وتم انتقاله من صوفي إلى مهدي.

في حين تناول الفصل الثالث مسيرة الثورة المهدية بالتركيز على حروباتها العسكرية التي خاضتها ضد قوات الحكم التركي ــ المصري بالسودان موضحاً فيها الانتصارات العسكرية التي حققتها قوات الثورة المهدية، والتي أدت إلى قيام أول دولة إسلامية متحدة تحت قيادة الإمام محمد المهدي بن عبدالله. بل وقد استعرض الأسباب التي أدت إلى نجاح الثورة المهدية في السودان.

وأوضحنا في الفصل الرابع أهم ملامح الإصلاح الاجتماعي الذي أحدثته المهدية في المجتمع السوداني ، مركزاً على اهتمام المهدية بتربية الفرد باعتباره العنصر الأساسي في بناء المجتمع ، وإقامة الدولة الإسلامية لهذا واستعنا في هذا الفصل بقوانين المهدية التي جاءت بها لتطهير المجتمع السوداني من المفاسد الاجتماعية الضارة ، كما تناولنا جهود المهدية لمحاربة المحرمات والمنكرات ، وأوضحنا في هذا الفصل وضع المرأة في الدولة المهدية التي كانت تهدف إلى إقامة مجتمع سوداني متمسك بتعاليم الإسلام، وتناولنا مشكلة عزوف الشباب عن الزواج والحلول التي وضعتها المهدية لحل هذه المشكلة ، وعرضنا في هذا الفصل بعض قوانين المهدية التي ساهمت في صيانة حقوق المرأة المتعلقة بالأحوال الشخصية . وأفردنا في هذا الفصل الخطوات الحكيمة التي انتهجتها المهدية لمحاربة تجارة الرقيق.

ولا مندوحة لنا ونحن نتحدث عن ملامح الإصلاح الاجتماعي للدولة المهدية في السودان أن نعرف شيئاً عن مدينة أم درمان حاضرة دولة المهدية التي اتخذها محمد المهدي بن عبدالله مقراً للمهديين ومركزاً لنشر دعوتهم الدينية وحصناً منيعاً لهم .

وقد اعتمدنا في هذا الكتاب على نوعين من المصادر أولها: المصادر الأصلية وهي عبارة عن مجموعة من الوثائق الموجودة بدار الوثائق القومية بالخرطوم وهي عبارة عن وثائق ومخطوطات غير منشورة منها وثائق أحمد سليمان ، ومجموعة وثائق النجومي , ومجموعة وثائق الصادق

المهـدي . أمـا المخطوطـات العربيـة فمنهـا الفيوضـات الوهبيـة تصنيـف عـوض الكريـم المسـلمي، ويتكـون مـن أربعـة أجـزاء، وهنـاك أيضـاً مخطـوط سـعادة المسـتهدي بسـيرة الإمـام المهـدي لإسـماعيل عبدالقـادر الكردفانـي الـذي حققـه الدكتـور محمـد ابراهيـم أبوسـليم.

أمـا النـوع الثانـي مـن المصـادر فهـي المصـادر الفرعيـة مـن مراجـع عربيـة وأفرنجيـة.

وأود أن أشـكر كل مـن سـاعدني في تأليـف هـذا الكتـاب الـذي أرجـو أن يشـكل إضافـة نوعيـة تسـهم في سـد ثغـرة حقيقيـة ظلـت تعانـي منهـا المكتبـة السـودانية وبالتحديـد فيمـا كتـب ويكتـب عـن المهديـة ومسـاهماتها المختلفـة في السـودان.

الفصل الأول

الحياة الاجتماعية للمجتمع السوداني إبان الحكم التركي ـ المصري

الفصل الأول

الحياة الاجتماعية للمجتمع السوداني
إبان الحكم التركي ـ المصري

تمهيد :

- المجموعات القبلية في السودان إبان الحكم التركي ــ المصري .
- ظاهرة الولاءات في السودان إبان الحكم التركي ــ المصري.
- مظاهر الحياة الاجتماعية في الخرطوم إبان الحكم التركي ــ المصري .
- المفاسد الاجتماعية للحكم التركي ــ المصري في السودان .

تمهيد:

يطلق على سودان اليوم قبل خضوعه للحكم التركي المصري مصطلح السودان الشرقي ويقصد به السودان الحالي، والذي يشمل بعض الكيانات السياسية أو الممالك الاسلامية التي نشأت في هذا الاقليم مثل مملكة الفونج أو سلطنة سنار، وسلطنة دارفور ومملكة تقلي ، ومملكة المسبعات. والتي لعبت دوراً مقدراً في خدمة نشر الاسلام والثقافة العربية ولذلك فإن مصطلح السودان أو بلاد السودان ما زال يدل على الرقعة الجغرافية الممتدة من البحر الأحمر شرقاً وحتى المحيط الأطلسي غرباً. ولم يدخل مصطلح السودان أو بلاد السودان دائرة الاستخدام السياسي إلا في عام 1899م ليعنى الكيان الذي يدل على جمهورية السودان المستقلة وذات السيادة والحدود السياسية المعلومة.

وفي أوائل القرن التاسع عشر الميلادي اتيحت الفرصة للسلطان العثماني محمود الثاني وبفضل طموح واليه على مصر محمد علي باشا ونزعته التوسعية من ضم السودان إلى الإمبراطورية العثمانية. ووافق السلطان العثماني على طلب محمد علي باشا لضم السودان شريطة أن يتم ذلك باسم السلطان العثماني، وبالفعل تم غزو السودان على يد اسماعيل بن محمد علي باشا في عام 1820م. بالرغم من أن السودان لم يكن يخضع مباشرة للسلطان العثماني وأن تركيا لم تكن صاحبة السيادة الفعلية عليه، إلا أن مصر نفسها والتي انفردت بحكم السودان، قد كانت تدين بالتبعية لتركيا التي هي صاحبة السيادة الشرعية عليها وعلى السودان. وعليه فقد صار السودان تابعاً إلى الامبراطورية العثمانية. وقد أطلق المؤرخون على الفترة مابين (1820ــــــــ 1885م) في السودان باسم فترة الحكم التركي ـ المصري.

وعندما بدأ الحكم التركي ــــ المصري يلفظ أنفاسه الأخيرة كان الوضع في السودان وضعاً لا مركزياً حيث قسمت البلاد إلى أربعة حكمداريات، هي حكمدارية إقليم وسط السودان، وتضم الخرطوم سنار، بربر، فشودة وخط الاستواء ومركزها الخرطوم.(1) حكمدارية إقليم شرق السودان ، وتضم مديرية التاكا وملحقاتها ومحافظتي سواكن ومصوع وملحقاتها إلى باب المندب.(2) أما

حكمدارية إقليم غرب السودان فكانت تضم مديرية دار فور ، وكردفان ، وبحر الغزال ، ودنقلا ومركزها الفاشر.[3] ثم حكمدارية عموم هرر وزيلع وبربرة .[4]

أولاً: ـ المجموعات القبلية في السودان إبان الحكم التركي ـ المصري:

قبل الدخول في الحياة الاجتماعية في السودان إبان فترة الحكم التركي ــــ المصري لابد من الإشارة إلى مكونات المجموعات القبلية التي كانت سائدة في البلاد، لأن مسألة الانتماء إلى قبيلة قد ظل يمثل شيئاً من الوجاهة الاجتماعية وله احترامه الشديد. فالسودان قد ضم قبائل عربية، بعضها عاش حول شريط النيل، والبعض الآخر منها انتشر في أجزاء متفرقة من البلاد. وكذلك فقد سكنته مجموعات أخرى في شرقي البلاد، بالإضافة إلى النوبيين في شمالي البلاد، والزنوج في جنوبها، وجماعات الأجانب التي وفدت إليه من كل أنحاء العالم.

القبائل العربية:

إن القبائل العربية التي تقطن السودان حالياً تنتسب إلى فرعين من العرب وهما الفرع القحطاني أو الجهيني، وهؤلاء أصلاً من أهل اليمن، وهم الذين يسمون بالعرب العاربة أي العرب الأولى الذين فهمهم الله اللغة العربية ابتداء فتكلموا بها، أما العدنانيون وهم الفرع الآخر الذين يمثلون قبائل الحجاز ونجد ويرجع أصلهم إلى سيدنا اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام[5]. ونشير فيما يلي لبعض تلك المجموعات القبلية من خلال تواجدها الجغرافي في السودان.

المجموعة الجعلية:

وتشمل المجموعة الجعلية قبائل الجعليين ويمتد موطنهم من السبلوقة إلى عطبرة ، والميرفاب ويسكنون في الشمال من عطبرة حول بربر ، والرباطاب ويقطنون في المنطقة من بربر إلى أبوحمد ، والمناصير من أبوحمد إلى آخر الشلال الرابع ، والشايقية من الشلال الرابع إلى اقليم الدبة ، والجوابرة في داخل بلاد النوبة بين الدنافلة والمحس، والركابية وموطنهم وسط بلاد المحس ، والجموعية وأتباعهم في شمال وجنوب أم درمان حالياً ، والجمع في غرب النيل

الأبيـض ، والبديريـة الذيـن يقطـن جـزء منهـم بـلاد النوبـة والجـزء الآخـر كردفـان ، والجوامعــة في أواســط كردفــان وشــمال وشرق الأبيــض ، والغديــات جنوبــي الأبيــض ، ثــم البطاحــين في الجــزء الشــمالي مــن أرض البطانــة[6].

المجموعة الجهينية:

أمــا المجموعــة الجهينيــة فهــي تتــوزع بــين ثلاثــة مجموعــات رئيســة: المجموعــة الأولى وهــي مجموعــة رفاعــة وتضــم القواســمة والعبــدلاب وغيرهــم ، وهنــاك اللحويــون ويعيشــون في البطانــة ، والحلاويــون ويعيشــون حــول الحصاحيصــا ، والعوامــرة ، والخوالــدة ، وغيرهــم . ثــم الشــكرية وتســكن هــذه المجموعــة الجــزء الشرقــي مــن أقاليــم النيــل الأزرق والبطانــة. والمجموعــة الثانيــة هــي مجموعــة فــزارة وتضــم دار حامــد ، وبنــي جــرار، والزياديــة، والبزعــة ، والشــنابلة ، والمعاليــا . وتعيــش هــذه المجموعــة في الجهــات الشرقيــة والوســطى مــن كردفــان ودارفــور.

أمــا المجموعــة الثالثــة فتضــم الدويحيــة ، والمســلمية ، والبقــارة ، والمحاميــد، والماهرية، والكبابيــش ، والمغاربــة ، وتنتــشر هــذه المجموعــة في كردفــان ودارفــور , بينمــا كان للدويحيــة والمســلمية أوطــان أخــرى في الجزيــرة والنيــل الأزرق[7]. ومــن أشــهر قبائــل البقــارة في كردفــان بنوســليم عــلى النيــل الأبيــض ، وأولاد حميــد ، وفــرع مــن الهبانيــة ، والحوازمــة , ثــم المســيرية , والحمــر في الجــزء الجنوبــي الغربــي مــن كردفــان . أمــا الجــزء الــذي يعيــش في دارفــور فيتمثــل في الرزيقــات ، والهبانيــة ، والتعايشــة ، وبنــي هلبــة ، وبنــي خــزام[8].

ومــن الملاحــظ أن المجموعــة الجهينيــة تعيــش كلهــا بعيــداً عــن النيــل، بعكــس المجموعــة الجعليــة فإنهــا تعيــش كلهــا عــلى النيــل ماعــدا الجوامعــة والغديــات والبطاحــين ونفــر مــن البديريــة في كردفــان .

أمــا مجموعــة الكواهلــة فترجــع في أصولهــا إلى كاهــل بــن أســد بــن خزيمــة فهــم بذلــك يعــدون مــن عــرب الشــمال، إلا أنهــم منفصلــون عــن المجموعــة الجعليــة في النســب. وقــد نزلــوا في وقــت متقــدم عــلى الســواحل الســودانية للبحــر الأحمــر مابــين عيــذاب وســواكن، واختلطــوا مــع البجــة بــل وتعلمــوا لغتهــم وصاهروهــم واندمجــوا فيهــم، بحيــث لــم يعــد لهــم وجــود في أقاليــم البجــة. وهنــاك بطــون أخــرى مــن

بنـــي كاهــل قـــد انتقلـــت مـــن شرقـــي الســـودان إلى أقاليـــم عطـــبرة والنيـــل الأزرق ، وأخـــرى إلى النيـــل الأبيـــض تســـمى الكواهلـــة، وأحيانـــاً باســـم الحســـانية ، والحســـنات. وهنـــاك قبيلـــة في كردفـــان تحمـــل اســـم الكواهلـــة [9].

البجة:

ســـكن البجـــة الأراضي الواقعـــة بـــين البحـــر الأحمـــر شرقـــاً ونهـــر عطـــبرة ثـــم النيـــل الأكـــبر غربـــاً, ومـــن المنحـــدرات الشـــمالية للهضبـــة الحبشـــية جنوبـــاً إلى نهايـــة حـــدود محافظـــة أســـوان المصريـــة . وينقســـم البجـــه إلى أربعـــة أقســـام رئيســـة يمكـــن أن نطلـــق عـــلى كل قســـم اســـم قبيلـــة وهـــي: البشـــاريون في الشـــمال ويقطنـــون صحـــراء العتبـــاي، ويليهـــم مـــن الجنـــوب الأمـــرار يليهـــم جنوبـــاً الهدنـــدوة وتمتـــد ديارهـــم مـــن ســـواكن إلى ســـنار، وعاشـــوا عـــلى شـــواطئ نهـــر عطـــبرة المجـــاورة لهـــم ، وفي منطقـــة الجنـــوب الشرقـــي تمتـــد قبيلـــة بنـــي عامـــر مـــن طوكـــر في الشـــمال إلى داخـــل حـــدود أريتريـــا جنوبـــاً . وهنـــاك قبائـــل بجاويـــة صغـــيرة أهمهـــا الأشراف، والأرتيقـــة، والكميـــلاب، والحلانقـــة، وغيرهـــم[10].

النوبيون:

يســـكنون النوبيـــون في الأراضي الملاصقـــة لنهـــر النيـــل مـــن شـــمالي أســـوان حاليـــاً إلى بلدتـــي الدبـــة وكورتـــي . ويعتبرهـــم الجغرافيـــون مـــن الشـــعوب النهريـــة التـــي تلتـــزم وادي النيـــل التزامـــاً شـــديداً وذلـــك بســـبب اشـــتغالهم بالزراعـــة مـــن جهـــة، ولأن الصحـــراء المتاخمـــة للنهـــر شرقـــاً وغربـــاً قـــد أرغمـــت هـــؤلاء النوبيـــين منـــذ زمـــن طويـــل أن يظلـــوا ملتزمـــين للنهـــر وللمســـاحات القليلـــة الصالحـــة للزراعـــة والتـــي تحـــف بنهـــر النيـــل[11].

وينقســـم النوبيـــون إلى خمـــس مجموعـــات رئيســـة: الكنـــوز في الجـــزء الممتـــد مـــن أســـوان إلى كرســـكو ، والفديجـــة مابـــين وادي حلفـــا وكرســـكو ومعـــروف أن هاتـــين المجموعتـــين تشـــكلان النوبـــة المصريـــة في الوقـــت الحـــاضر وقـــد تـــم تهجيرهـــم إلى منطقـــة كـــوم أمبـــو بأســـوان خـــلال بنـــاء الســـد العـــالي . وأمـــا المجموعـــات الثـــلاث الباقيـــة فهـــي تشـــكل النوبـــة الســـودانية في الوقـــت الحـــاضر وهـــي: الدناقلـــة في الجنـــوب مابـــين الدبـــة وأبـــي فاطمـــة ، ثـــم المحـــس ، والســـكوت في اقليـــم

الشلالات والجنادل[12].

قبائل النوبة (سكان الجبال):

يذكر الدكتور محمد عوض محمد أن سكان الجبال يمثلون سلالة مستقلة عن الجماعات التي تحيط بها ، وهي تعد مجموعة وطنية قديمة سكنت في الجزء الجنوبي الشرقي من كردفان منذ زمن بعيد ، وقد أتاحت لهم أوطانهم الجبلية نوعاً من الحماية الطبيعية من أي غزو أو استهداف أياً كان مصدره[13] .

سكان الجنوب (الزنوج):

يتكون سكان الجنوب أساساً من القبائل النيلية المعروفة وهي: الدينكا ، والنوير ، والشلك ، وهي تعد من أكبر ثلاث قبائل نيلية في جنوب السودان، بالإضافة إلى قبائل أخرى كثيرة مثل المواري ، والفرتيت ، والزاندي ، وغيرهم من القبائل. ولكل قبيلة من قبائل الجنوب الثلاث الكبيرة نمطها وأسلوبها الخاص بها في الحياة، وقيمها وعاداتهاوتقاليدها وثقافاتها الموروثة والمكتسبة، وهي جميعها من القبائل شبه الرحل[14].

ويذكر الدكتور محمد ابراهيم أبوسليم أن سكان الجنوب وأهل جبال النوبة قد ظلوا حتى القرن التاسع عشر الميلادي معزولين عن بقية أجزاء السودان، وكانت لهم مجتمعاتهم المحلية الخاصة بهم بعيداً عن التأثيرات الخارجية، وقد اعتمدوا في ذلك على التكوينات القبلية إذ كانت القبيلة هي المجتمع وهي السياسة وهي الدين. وكان لكل قبيلة بنائها الاجتماعي ونظامها الإداري والاقتصادي والسياسي والديني والثقافي الخاص بها والذي بدوره يختلف عن تكوين ونظام أي قبيلة أخرى[15].

الأجانب:

كان المجتمع السوداني قبل الحكم التركي ــ المصري مجتمعاً مغلقاً إلى حد كبير، وقد حدث نوع من الانفتاح بعد الغزو التركي ــ المصري، لاتصال السودان بالعالم الخارجي، بحيث وفد إليه عدد كبير من الأجانب والأتراك

ورعاياهم من المغاربة، والأقباط ، والأرمن وغيرهم. وبعد اكتمال الغزو وفدت أعداد ضخمة من الموظفين وانتشر هؤلاء في مختلف أنحاء السودان وكونوا مع من سبقوهم جهاز الإدارة المنوط به تسيير دفة حكم البلاد لتحقيق أهداف الغزو. واستمر الوضع بهذه الصورة والأجانب في السودان هم الأتراك ورعاياهم، وإن وجد بعض الأجانب من الأوربيين فهم أما بعض العاملين في الحكومة أو العابرين ، إذ أن مطامع محمدعلي باشا ونظام احتكار الدولة لكل شيء قد وقف حاجزاً ولم يتح الفرصة للنفوذ الأوربي والمصالح الأوربية بالتغلغل في السودان . وبعد وفاة محمدعلي باشا وتولي عباس بن طوسون، بدأ الأوربيين يتوافدون إلى السودان ونمت مصالحهم وساعد على ذلك ما أتخذه عباس بن طوسون من قرارات بفك الاحتكار وإطلاق حرية الملاحة في النيل الأبيض، فتزايد توافد الأوربيين كتجار يعملون في تجارة الصمغ العربي وسن الفيل والسنمكى التي كان يحتكرها محمد علي باشا وفي غيرها من السلع ، وتبع ذلك تأسيس القنصليات التي بدأت تعمل معاولها لتعبيد الطرق وإزاحة العقبات التي تقف أمام مصالحه[16]. وكما تدفق على مصر سيل من الأجانب في عهد محمد سعيد كذلك تدفق على السودان جماعة كانوا مثل أخوانهم في مصر من حثالة القوم باعتراف معاصريهم من الأوربيين أنفسهم أساءوا إلي سمعة بلادهم, لأنهم لم يكونوا يهتمون إلا بالوصول إلى الغنى السريع واكتناز المال من أي سبيل جاء فتاجروا في العاج ثم انقلبوا إلى تجارة الرقيق, وصارت مراكبهم تمخر في النيل الأبيض تحمل الرقيق محتمية بأعلام الدول التي كانوا من رعاياها وتجنسوا بجنسياتهم يؤازرهم في نشاطهم ذاك ويقوم بالدفاع عنهم لدى السلطات المحلية قناصلهم الموجودين في الخرطوم[17] .

الرقيق:

كان الرقيق يُشكل جزءاً مهما من التركيب الاجتماعي للمجتمع السوداني، فهو جزء من الكيان الاجتماعي ومن المستلزمات الضرورية للأسر، الذي لا يمكن الاستغناء عنه آنذاك، إلى جانب أنه كان عماد الحياة الاقتصادية فهو الذي يقوم بكل الأعمال اليدوية من زراعة المزارع وطحن الحبوب وغيرها. وكذلك كان الرقيق عملة سائدة معترف بها، وقد كان امتلاك

الأسر لعـــدد كبــير مـــن الرقيـــق يضفـــي عليهـــا مكانـــة اجتماعيـــة خاصـــة، ودليـــل عـــلى الثـــراء[18].

وكان الأهـــالي يبيعـــون الرقيـــق في الســـوق إمـــا بالمزايـــدة العلنيـــة عـــلى يـــد الدلالـــين، وإمـــا بطريـــق التعاقـــد الشـــخصي كمـــا كان يســـتخدم ســـماسرة الرقيـــق في بعـــض الأحيـــان. وعنـــد شراء العبـــد يُســـمح للمشـــتري قبـــل اتمـــام الصفقـــة بإيـــواء العبـــد في داره ثـــلاث ليـــال، ذكـــراً كان أم أنثـــى وذلـــك بعـــد دفـــع عربـــون قـــدره ربـــع الثمـــن المتفـــق عليـــه أو خمســـه . ويُعـــاب العبـــد إن كان بـــه مـــس مـــن الجنـــون، أو يكـــون قـــد ألـــف التبـــول في الليـــل أو الشـــخير عنـــد النـــوم أو أن يكـــون مصابـــاً بمـــرض الزهـــري. فـــإذا مـــا خـــلا العبـــد مـــن هـــذه العيـــوب تمـــت الصفقـــة. وإلا أعيـــد إلى البائـــع وأُســـترد العربـــون. أمـــا إذا كانـــت الجاريـــة بكـــراً وعاشرهـــا الراغـــب في شرائهـــا معـــاشرة الأزواج في أثنـــاء مـــدة الاختبـــار، فـــلا يمكـــن رد هـــا بـــل يصبـــح الاحتفـــاظ بهـــا أمـــراً لا منـــاص منـــه[19].

وكانـــت الجـــواري مرغوبـــات لـــدى أهـــل المـــدن أكثـــر مـــن الرقيـــق الذكـــور وبخاصـــة الشـــيوخ منهـــم ، ولذلـــك فقـــد كان لهـــؤلاء الشـــيوخ عائـــلات كبـــيرة , ولاتصبـــح الزنجيـــة في عرفهـــم حـــرة إلا إذا ولـــدت مـــن ســـيدها . إلا أن بعضهـــن يصبحـــن حرائـــر غـــداة زواجهـــا، والســـبب في ذلـــك عـــدم توفـــر البنـــات لـــدى هـــؤلاء الشـــيوخ لتقديمهـــن كبديـــل للعائـــلات التـــي يصهـــرون إليهـــا، لأن العـــرف لديهـــم في هـــذه الحالـــة يقـــضي بـــأن يحمـــل الأطفـــال ـــــ ثمـــرة الـــزواج ـــــ أســـماء عائـــلات وقبائـــل أمهاتهم. ومـــا كان الســـوداني لـــيرضى ذلـــك، الأمـــر الـــذي يضطـــره إلي الـــزواج مـــن جاريـــة يحمـــل ولـــده منهـــا اســـمه[20] .

ويلبـــس الرقيـــق في بيـــت ســـيده قطعـــة صغـــيرة مـــن قمـــاش القطـــن يغطي بها وســـطه حتـــى ركبتيـــه ولايرتـــدي مـــا يغطـــي بقيـــة جســـمه، إلا إذا كان خالياً مـــن العمـــل، أو كان الجـــو يميـــل إلى الـــبرودة. وهـــو يزين رقبتـــه وذراعيـــه دائماً بالأحجبـــة والتمائـــم. وينتعل بعـــض الرقيق صنـــدلاً في بعض الأحيـــان. وتتحلى الجواري بأســـاور كثـــيرة يضعنها حول أذرعتهـــن، وبعقـــود مـــن النقـــد المخـــروم تلتـــف حـــول أعناقهـــن ، ولاتخلو شـــفاههن مما يزينهـــا ,ويعتنـــين لدرجـــة كبيرة بشـــعورهن وهـــن يعلقن أحيانـــاً الرحط حول وســـطهن

بـدلاً مـن قمـاش القطن والصغـيرات منهـن عن الثالثـة عـشرة عاريات تمامـاً[21].

وقـد جـرت العـادة أن يعامـل السـيد رقيقـه بالرحمـة الأمـر الـذي ينتهـي بالرقيـق دائمـاً إلى حبـه لسـيده أكثـر مـن حبـه لموطنـه الأول، ونـادراً مـا كان يسـيئ المصريـون أو الأتـراك معاملـة رقيقهـم بعكـس الأوربيـين الذيـن يقسـون عليهـم ممـا دعـا الحكومـة إلى اصـدار قانـون يمنـع أي أجنبـي مـن ضرب رقيقـه، فـإذا كان الرقيـق لا يطيـع سـيده فعليـه ارسـاله إلى القـاضي حتـى يتـولى تقويمـه. وغالبـاً مـا كان السـيد هـو القـاضي فيمـا يقترفـه الرقيـق في منزلـه فـإذا حـدث أن قتـل رقيـق لزميـل لـه في منـزل واحـد فـإن سـيده يعاقبـه أو يبيعـه. أمـا إذا كان القتيـل ملـكاً لسـيد آخـر فعـلى السـيد صاحـب الرقيـق المذنـب أن يعوضـه، وإذا لـم يقبـل هـذا الأخـير التعويـض فعليـه أن يرفـع الأمـر إلى القضـاء. أمـا في حالـة قتـل الرقيـق لرجـل حـر فالقضيـة تنظـر عـلى أسـاس أنهـا قضيـة قتـل، وتجـرى عـلى القاتـل الأحـكام التـي توقـع عـلى القتلـة المجرمـين. ومـن الأمـور التـي كانـت تقلـق السـادة هـروب الرقيـق مـن بيوتهـم ولذلـك كان الرقيـق مـن الإنـاث بقـدر كبـير مـن الحريـة عـن الذكـور، بـل كان الاقبـال كثـيراً أيضـاً عـلى شراء الأطفـال لقلـة فرصـة هروبهـم. وكانـت الحكومـة تسـتمع لهـؤلاء الرقيـق إذا مـا أبـدوا شـكاوى ضـد مالكيهـم. وإذا ثبـت معاملتهـم معاملـة سـيئة ووقـوع ضرر عليهـم كانـت الحكومـة تجـازي أصحـاب الرقيـق بإعتاقـه مجانـاً وتسـليمه أوامـر عتقـه مـن المديريـة. وليـس معنـى ذلـك أن يطلـب هـؤلاء الرقيـق ذلـك دون وقـوع ضرر، ففـي هـذه الأحـوال تلقـى عليهـم النصائـح ويعـادوا إلى أصحابهـم[22] .

ويذكـر الشـاطر بصيـلي أن الرقيـق السـوداني كان يعامـل معاملـة طيبـة في كافـة الجوانـب التـي عمـل بهـا لـذا أحيانـاً تخصـص لـه قطعـة أرض يقـوم بزراعتهـا واسـتغلالها لحسـابه الخـاص, بـل كان يمنـح يومـاً مـن كل أسـبوع لمزاولـة أمـوره الخاصـة دون فـرض رقابـة عليـه[23].

وعندمـا صممـت الحكومـة المصريـة عـلى إلغـاء تجـارة الرقيـق التـي ألفهـا السـودانيون قامـت بتعيـين الأوربيـين في مناصـب قياديـة بـادارة السـودان، لكنهـم لـم يكونـوا صادقـي النيـة نحـو الحكومـة المصريـة، فانتهـزوا فرصـة أوامرهـا بمنـع

تجارة الرقيق وحاربوا هذه التجارة بكل عنف وقسوة، مع علمهم بأن هذه الحرب تثير كراهية فريق كبير من الأهالي، وتدفعهم إلى مقاومة الحكومة[24]. من ذلك يتبين لنا أن تلك الجهود التي بذلتها الحكومة المصرية لمحاربة الرقيق قد تسببت في فقدان مورد هام من موارد الرزق لكثير من أفراد المجتمع السوداني بحيث أضطروا لمساندة الثورة المهدية.

قبائل ساحل البحر الأحمر:

يقصد بهذه القبائل جماعات الصومال والدناكل والجالا. فالصوماليون شعب ناطق باللغة الحامية وقد اختلط هذا الشعب اختلاطاً كبيراً بالعرب ، ومعظم القبائل الصومالية تعود إلى أصول عربية وتفتخر قبائل الشمال الصومالي (الدر، والدارد، واسحاق) بأصلها العربي وإن وجدت بعض القبائل بالجنوب الصومالي تركز على ان أصولها أفريقية ، أما الدناكل وتمتد بلادهم من ميناء مصوع في اريتريا إلى رأس جيبوتي ثم إلى وادي نهر هواش حتى ديسي في اثيوبيا- وتعود جذورهم إلى هجرات العرب العاربة التي يرجح أنه مضى عليها أكثر من خمسة آلاف عام ،حيث تهاجنت وتناصرت مع القبائل الحامية فكان العنصر الدنكالي[25].

وأما شعب الجالا فهو ينتمي للمجموعات الحامية، وله صلات عرقية مع شعب الصومال والدناكل، ويقطنون في منطقة الجنوب الغربي لأثيوبيا الحالية التي تقع بين خط 4 شمالاً إلى 12درجة جنوباً وخط طول 24ـــــــــ 44درجة شرقاً وتحد هذه الرقعة جنوباً بكينيا والصومال ومن الشمال بالمناطق المتاخمة للحدود الأمهرية ومن الشرق جيبوتي وغرباً بالسودان. ولم تكن مناطق الجالا ضمن أثيوبيا الحالية حتى القرن التاسع عشر الميلادي بل كانت جزءاً من الممالك الإسلامية المستقلة وبدأت توسعات الأحباش في مناطق الجالا بعد مؤتمر برلين (1884ـــــــــ 1885م) الذي مهد لتقسيم أفريقيا إلى مناطق نفوذ أوربية حيث باركت القوى المتصارعة دعم إستيلاء أثيوبيا باعتبارها قوة مسيحية أفريقية على مناطق الجالا وبقية الممالك الإسلامية حتى حدود الصومال الحالية [26].

مما سبق فإن الضرورة تقتضي الحديث عن الولاءات القبلية التي بلغت أحياناً درجة التعصب للقبيلة المعنية، وهناك أيضاً الولاء الصوفي حيث كان أكثر أفراد المجتمع السوداني منضوياً تحت طريقة صوفية معينة ، بالإضافة إلى الولاء السياسي.

ظاهرة الولاءات في السودان إبان الحكم التركي ـ المصري:

الولاء القبلي:

كانت القبلية تشكل ركناً أساسياً في البناء السكاني في القرن التاسع عشر الميلادي. وأولى هذه السمات هي وضوح ولاء الفرد الشديد لقبيلته الذي يبلغ درجة القداسة للقبيلة، وهذا الولاء كان يفرض عليه مجموعة التزامات غير مكتوبة، بل أعراف اتفق أفراد قبيلته في السير على منوالها. لذا تركت الادارة التركية ـ المصرية القبائل السودانية تعيش وفق سبرها دون التدخل في كل كبيرة وصغيرة. وفي نفس الوقت استفادت من نظام القبيلة السودانية الذي يحتم الولاء للقبيلة فحاولت كسب القبائل حتى تحول هذا الولاء لها. وهنا نذكر ماحدث بالنسبة لقبيلة الشايقية التي وقفت في شمال السودان أمام حملة اسماعيل ابن محمد علي باشا والتي قاتلت ببسالة فقد استطاع اسماعيل ابن محمد علي باشا أن يكسب ولاءها عند ما استخدام أسلوب اللين معها. بعد ذلك أصبح رجالها مقاتلين في صفوف الجيش الغازي بعد أن وقفوا في وجهه، وكانوا بحق من أشد مؤيدي الادارة التركية ـــ المصرية في السودان حتى اندلاع الثورة المهدية في عام 1881م [27].

ومن السمات الأخرى التي تميز مجتمع القبيلة في السودان وجود زعيم لها أو شيخ يحافظ على حقوق القبيلة من أراضي وآبار، وأن يكون عارفاً بتقاليد القبيلة وتقاليد القبائل المجاورة لها في الدار، وأن يكون حافظاً للأنساب، فالشيخ هو رمز القبيلة الذي يتولى إدارة شؤونها الخاصة والعامة [28].

ومن السمات التي تميز مجتمع القبيلة في السودان وجود (مجلس الأجاويد) الذي يتم اختياره من بين كبار السن من رجال القبيلة المعروفين برجاحة العقل والحكمة وكمال التجربة. وكانت مهام هذا المجلس تنحصر في المسألة

القضائيـة، التـي تكـون نتيجـة للنزاعـات التـي تنشـأ بـين أبنـاء القبيلـة. وهـذا المجلـس كان ينجـح كثـيراً في أداء مهامـه، كمـا كانـت أحكامـه لا تسـتأنف. وهـذه الأحـكام غالبـاً مـا تكـون عبـارة عـن دفـع أعـداد كبـيرة مـن الإبـل لمـن وقـع عليـه الـضرر. وفي أغلـب الأحيـان كان يتنـازل صاحـب الحـق عـن اسـتلام هـذه الغرامـة. وتسـتمد قـرارات هـذا المجلـس أساسـاً مـن الشريعـة الاسـلامية ومـن مجموعـة الأعـراف السـائدة بـين أفـراد القبائـل[29].

وهكـذا كان مجتمـع القبيلـة في السـودان في ذلـك الوقـت يعيـش وفـق نظمـه الخاصـة التـي حـرص عليهـا تمامـاً، ممـا جعـل الإدارة التركية-المصريـة لا تتدخـل إلا عنـد الـضرورة، ولهـذا ظلـت معظـم القبائـل السـودانية محافظـة عـلى ولائهـا لإدارة الحكـم التركـي ـ المـصري حتـى انـدلاع الثـورة المهديـة في عـام 1881م [30].

الولاء الصوفي:

كمـا ظهـر بجانـب الـولاء القبـلي ولاء آخـر هـو الـولاء الصـوفي بحيـث سـاهم شـيوخ الطـرق الصوفيـة الذيـن تسربـوا إلى السـودان مـن الحجـاز والعـراق والمغـرب ومـصر بقـدر معلـوم في نـشر الإسـلام في السـودان، وهـم الذين شـيدوا المسـاجد، وأشـعلوا نار القـرآن الكريـم، وقامـوا بمحـو الأميـة الدينيـة في البـلاد . وممـا سـاعد عـلى انتشـار الطـرق الصوفيـة في السـودان ترحيـب أهلـه بهـذه الطـرق الصوفيـة ومشـايخها، الذيـن أظهـروا مـن الصفـات ماجعـل النـاس يتهافتـون عليهـم ويتخذونهـم مـلاذاً في سـاعات الضيـق والعـسرة. أضـف إلى ذلـك أن المجتمـع السـوداني كان مهيئـاً آنـذاك لقبـول تلـك الطـرق الصوفيـة الوافـدة إليـه، رغبـة في حيـاة بعيـدة عـن مزالـق السياسـة والعصبيـة، فوجـدوا ضالتهـم المنشـودة في الانضمـام إلى الطـرق الصوفيـة وهـم في ترحـاب شـديد وحمـاس بالـغ[31]. وفيمـا يـلي نذكـر أهـم الطـرق الصوفيـة في السـودان.

(1) الطريقة القادرية:

أسسـها الشـيخ عبـد القـادر الجيلانـي في القـرن الثانـي عـشر الميـلادي في العـراق، وقـد دخلـت السـودان في العـام 1545م. وذلـك عندمـا قـدم تـاج الديـن البهـاري إلى السـودان وأدخـل القادريـة في ربوعـه. وقـد التقـى هـذا الرجـل بأربعـة رجـال التفـوا

حوله وهم: محمد الأمين ابن عبدالصادق جد الصادقاب، وبان النقا الضرير جد اليعقوبباب، والشيخ عجيب المانجلك جد العبدلاب، وعبدالله دفع الله العركي جد العركيين، وهؤلاء الأربعة كانت بيدهم السلطتان الزمنية والروحية في أيام الفونج[32].

ولقد اتسم نشاط الطريقة القادرية في الدعوة الاسلامية بالطابع السلمي، الذي كان يعتمد كل الاعتماد على الارشاد والقدوة الحسنة، بحيث يظهر تأثير المعلم في تلاميذه ويسهم في انتشار العلم، وبهذا السلوك برهن دعاة الطريقة القادرية في السودان على أنهم أوفياء لمبادئ مؤسس الطريقة القادرية ولتقاليدها العامة، التي كانت تسيطر على حياة عبدالقادر الجيلاني والمتمثلة في حب الجار والتسامح[33] .

(2) الطريقة السمانية:

وهي فرع من الطريقة القادرية، وتنسب إلى الشيخ محمد ابن عبدالكريم السمانى (1718م ــــ 1775م/1130هــ ــــــ 1189ه) ، وقد استقرت من بعده على يد الشيخ أحمد الطيب البشير في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي .وكان انتشارها في بادئ الأمر بين الكواهلة وغيرهم من عرب الجزيرة. وقد اشتغل الشيخ أحمد الطيب بتدريس الحديث والتفسير والتصوف، ثم بدأ ينتقل من بلد إلى بلد في رحاب السودان ملتقياً بأعلام الصوفية في زمانه، أمثال الشيخ حمد المجذوب شيخ الطريقة المجذوبية في الدامر، وسافر إلى أرض الحجاز، ونزل بأرض مصر في أسيوط وغيرها، وقد مكث فترة طويلة في القاهرة. ومن أحفاد الشيخ أحمد الطيب، الشيخ محمد شريف نورالدائم، أستاذ محمد أحمد بن عبدالله (محمد المهدي بن عبدالله) ، الذي أعطاه الطريقة السمانية[34] .

(3) الطريقة الشاذلية:

تنسب للإمام أبي الحسن الشاذلي وهو عالم وصوفي، وانتشرت طريقته في مراكش في القرن الخامس عشر الميلادي، على يد أبي عبدالله محمد ابن سليمان الجزولي. ويقال إن إحدى بناته تزوجت من الشريف حمد أبي دنانة الذي نزح إلى السودان ومعه ابنه السيد حمد بن الحسن، وسكنا في المحمية

وذلــك في العــام 1445م. وراحــا يشرحــان للنــاس الطريقــة الشــاذلية إلى أن رســخت دعائمهــا فانتــشرت طريقتهمــا عــلى يــد الشــيخ خوجــلي عبــد الرحمــن المحــسي الــذي كان قادريــاً ثــم صــار شــاذلياً. ومــن بعــده اشــتهر الشــيخ حمــد بــن محمــد المجــذوب الــذي أســس فرعــاً للشــاذلية في الدامــر وصــار ينتســب إليــه المجاذيــب[35].

ويزعــم بعــض الــرواة بــأن هنــاك طريقــة أخــرى ذات صلــة بالطريقــة الشــاذلية وإن كانــوا لايقطعــون بصحــة تلــك الصلــة وهــي المســماة بطريقــة (أبوجريــدة) حيــث يقولــون أن عبداللــه دفــع اللــه العركــي الــذي عــاد مــن إحــدى رحلاتــه إلى مكــة ومعــه ســبعة أشراف اســتوطنوا الســودان، واشــتهروا بالصــلاح وكان لأحدهــم ولــد يدعــى الشريــف أبكــر الــذي انقطــع للعبــادة دون أخــذ الطريقــة عــلى شــيخ وتعلــم أمــوراً في الســحر والغيبيــات، وكان أول أتباعــه أبــا جريــد آدم بــن عبداللــه. ولذلــك ســميت الطريقــة باســمه [36].

(4) الطريقة الميرغنية:

أسســها في الســودان الســيد محمــد عثمــان الميرغنــي الكبــير (1793ـــــــ 1853م) وقــد كان مــن أشــهر تلامــذة الســيد أحمــد بــن ادريــس بالحجــاز ولازمــه ملازمــة تامــة، ورافقــه في رحلتــه التــي قــام بهــا مــن مكــة إلى صعيــد مــصر في عــام (1228هـــــــ 1813م)، حيــث قامــا بالدعــوة إلى تعاليــم المدرســة الإدريســية. فأمــر تلميــذه محمــد عثمــان الميرغنــي بالتوجــه إلى الســودان لنــشر تعاليمــه هنــاك بينمــا غــادر هــو صعيــد مــصر عائــداً إلى الحجــاز. وقــد واصــل الســيد محمــد عثمــان الميرغنــي رحلتــه جنوبــاً قاصــداً شــمال الســودان في العــام 1815م. وقــام بجولــة شــملت مناطــق النوبــة ودنقــلا، ثــم واصــل المســيرة حتــى كردفــان وقــضى بعــض الوقــت بمدينــة بــارا، وتــزوج فيهــا ثــم غادرهــا إلى ســنار. ثــم اتجــه نحــو الشــمال ومــر بالمتمــة وشــندي فالدامــر، وعــرج نحــو الــشرق حيــث اســتقر في التــاكا وعمــل عــلى نــشر الاســلام وتعاليــم المدرســة الإدريســية وســط قبائــل البجــة والبنــي عامــر[37].

وبعــد وفــاة الســيد أحمــد بــن إدريــس في العــام (1253هـــــــ 1837م) تمكــن تلميــذه الســيد محمــد عثمــان الميرغنــي مــن تأســيس طريقتــه المســتقلة والتــي ذكــر بأنهــا خلاصــة للطــرق الخمــس التــي أخذهــا في حياتــه. ولذلــك كان رمــز لهــا بكلمــة

(نقش جم). ففي النون إشارة إلى النقشبندية، والقاف إلى القادرية، والشين إلى الشاذلية، والجيم إلى الجنيدية والميم إلى الميرغنية [38].

وقد سار السيد محمد عثمان الميرغني بعد إنشائه لطريقته الخاصة على نفس النهج التبشيري الذي اختطه أستاذه السيد أحمد بن إدريس، وهو التمسك بالكتاب والسنة مع ضرورة الإقلاع عن المحدثات والبدع. فأرسل أبناءه إلى مختلف أنحاء العالم الاسلامي لنشر تعاليمه. فبعث بأكبر أبنائه السيد محمد سر الختم إلى اليمن وحضرموت، وأوفد السيد الحسن إلى سواكن، حيث نشر التعاليم بين الهدندوة والحلنقة والبني عامر. كما زار سنار وكردفان ودنقلا، وأسس بها عدداً من الزوايا. وقد وجد الطريق ممهداً لأن والده سبق أن زار تلك المناطق وحظي بتأييد أهلها ومساندتهم[39].

(5) الطريقة الإسماعلية:

هي من الطرق التي انبثقت عن الختمية في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي، ويعتبر الشيخ إسماعيل بن عبد الله الملقب باسماعيل الولي هو المؤسس لها في مدينة الأبيض بكردفان. ففي عام1813م التقى إسماعيل الولي بشيخه السيد محمد عثمان الميرغني في مدينة الأبيض، وتلقى عنه بعض العلوم الدينية واللغوية، وسارع بالانضمام إلى الطريقة الميرغنية (الختمية)، وانخرط في القيام بواجباتها حتى جاءت العام 1823م فاستأذن أستاذه السيد محمد عثمان الميرغني في تأسيس طريقة جديدة فأذن له على أساس أنها فرع للطريقة الختمية[40].

(6) الطرية التيجانية:

أسسها السيد أبوالعباس أحمد بن محمد بن المختار بن التيجاني (1737ـ1815م) بالجزائر, ومن بين المناطق التي زارها في السودان مدينة الأبيض، حيث مكث خمس سنوات[41]. وقد كان انتشارها في السودان في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي بعد سقوط دولة الفونج [42].

(7) الطريقة السنوسية:

تنسب هذه الطريقة إلى مؤسسها الفقية الجزائري محمد بن علي بن السنوسي (1202هـ ــــ 1276هـ/1787م ــــ 1859م) ، وتهدف طريقته إلى إصلاح شأن الإسلام ونشر الدعوة السنوسية ، وهذه الطريقة قد تأثرت بتعاليم الحركة الوهابية ، ولما توفي محمد ابن علي السنوسي في عام 1859م، كان محمد ابن علي السنوسي قد نجح في تأسيس جماعة دينية وقد انتشر أتباع الطريقة السنوسية في افريقيا الشمالية وتناثرت زواياها في غربي الدلتا إلى المغرب كما امتدت إلى الداخل في واحات الصحراء الكبرى وفي السودان[43]. وكان الفقية محمد بن علي السنوسي قد استطاع قبل وفاته أن يجعل من واحة الجغبوب مركزاً لنشر الإسلام بين الزنوج الوثنيين، ومن هذا المركز كان يتعلم مئات الدعاة في كل عام ثم يرسلون إلى كافة أنحاء افريقيا الشمالية كدعاة للإسلام وفي أرجاء السودان والحبشة وسنغامبيا والصومال. وكان السنوسيون يقومون بشراء قوافل العبيد ويعلمونهم في مركز الطريقة بالجغبوب وإذا ما رأوا أنهم قد تعلموا مبادئ الطريقة السنوسية تعليماً كافياً أعتقوهم وأعادوهم إلى أوطانهم ليدخلوا إخوانهم في الإسلام [44].

لقد كان للجهود الصادقة التي بذلها شيوخ الطرق الصوفية لنشر الإسلام بالتعليم والدعوة الخالصة أكبر الأثر في التقريب بين القبائل والأجناس، فقد جاء الناس من كل أنحاء السودان إلى زوايا الطرق الصوفية للاتصال بالشيوخ والاستماع إليهم وأخذ الطرق عنهم. وكانت الزاوية تتسع لكل القبائل والأجناس حين يلتقون سوياً تحت لواء الطريقة التي تجمع شملهم وتوحد بين أذواقهم ومشاربهم بالرغم من الاختلاف القبلي والعرقي بل والاختلاف في اللهجات[45].

وكانت أغلب الطرق الصوفية ذات طابع سلمي تعتمد في دعوتها الاصلاحية على الارشاد والقدوة الحسنة والتأثير في المريدين. ويتضح ذلك في دعاة الطريقة القادرية ومن أخذوا التعاليم عنهم، إذ أن المبادئ التي كانت تسيطر على حياة الشيخ عبدالقادر الجيلاني هي حب الجار والتسامح، ولم يعثر في كتبه أو مواعظه ما يدل على سوء أو عداوة له نحو المسيحيين[46].

وهكذا قاسم شيوخ الطرق الصوفية زعماء القبائل ما كانوا يتمتعون به من ولاء بل وأن كثيراً من زعماء القبائل كانوا يلجأون إلى شيوخ الطرق الصوفية يسألونهم البركة والنصيحة[47].

ولا بد لنا ونحن نتحدث عن الطرق الصوفية واهتمامها بالجانب التربوي لأفراد المجتمع السوداني آنذاك أن نستعرض دور الجانب العلمي لطبقة العلماء في فترة الحكم التركي ـــ المصري.

عندما خضعت بلاد السودان للحكم التركي ـــ المصري في عام 1821م، بدأت الإدارة الجديدة في وضع أسس الحكم، أدرك محمد علي باشا بثاقب نظره أن فقهاء البلاد وعلمائها يتمتعون بنفوذ كبير، كما شاهد مدى تعلق الناس بهم، وبالتعليم الذي تقدمه مراكز التعليم التقليدية، فرأى عدم التعرض لها بأي تبديل أو تغيير، وترك الفقهاء والعلماء يؤدون دورهم بعد أن أمن جانبهم، فأنعم عليهم بإنعامات مادية ومعنوية. ومن جهة أخرى عمل على نشر الطرق الصوفية التي استقدمها من مصر كالسعدية والرحمانية، والبرهانية، والبدوية [48].

وقام محمد علي باشا بتشجيع بعثات السودانيين إلى الأزهر الشريف، وذلك بعد فتح الطريق الواصل بين السودان ومصر واستتباب الأمن فيه. كما تم تأسيس رواق السنارية في الأزهر الشريف في عام1846م، وبتأسيس رواق السنارية ارتفع عدد بيوت الطلبة السودانيين بمصر إلى ثلاثة بيوت، هي بيوت طلاب دارفور، وبيت يضم النوبيين الذين وفدوا للأزهر الشريف من صعيد مصر وشمال السودان، والسبب فى انشاء رواق السنارية يرجع الى أحد الطلبة السودانيين. ويدعى محمد علي وداعة الذي ذهب إلى القاهرة في العام 1846م ووجد ستة من الطلبة السودانيين قد سبقوه إلى هناك، فتقدم الستة بطلب لمحمد علي يطلبون منه إنشاء رواق خاص بهم في الأزهر الشريف، فما كان من محمد علي إلا وأن كتب إلى وكيل ديوان المالية بهذا الخصوص قائلاً :(.... قد اقتضت إرادتي شراء محل جديد وتخصيصه رواقاً للمجاورين السناريين.....) [49]. وقد أنشأ أولئك العلماء الذين تخرجوا في الأزهر الشريف مدارس في المدن الكبرى دُرست فيها مبادئ النحو والصرف وعلم الفقه على مذهب الإمام

مالــك وبعــض علــوم التصــوف[50]. ولعــل محمــد عــلي باشــا أراد بتشــجيعه للتعليــم الدينــي كســب ولاء الســودانيين عــن طريــق رجــال الديــن.

وتتبــع عبــاس بــن طوســون (1848ـــــ 1854م) خطــوات جــده محمــد عــلي فأقبــل عــلى تشــجيع معاهــد التعليــم الدينــي بالســودان فتعهــد المســاجد بالإصــلاح والتعمــير وأجــرى عــلى القائمــين بشــؤونها المرتبــات وأكــرم فقهــاء وعلمــاء الســودان كمــا شــجع مــن أراد منهــم الدراســة بالأزهــر الشريــف[51] .

أمــا عــن سياســة محمــد ســعيد بــن محمــد عــلي (1854ـ 1863م) فقــد قامــت عــلى الإنفــاق عــلى المســاجد وصرف المرتبــات الشــهرية وإصــلاح وترميــم بعــض هــذه المســاجد وزيــادة مرتبــات المدرســين وإعفائهــم مــن الضرائــب، وإقــرار مــا بأيديهــم مــن ســندات تثبــت ذلــك . وعمــل عــلى تنظيــم الــصرف عــلى أربــاب المســاجد آنــذاك، فبعــد أن كان المرتــب المقــرر لمــن يقــوم بالتدريــس ينتقــل إلى ورثته اشــترط لاســتمرار ذلــك قيامهــم بالتدريــس بالفعــل ، كمــا جعــل مرتبــات خــدم المســاجد مــن إيــرادات الوقــف عليهــا. وقــد وجــه بمســاعدة فقيهــاً مــن أهــالي دنقــلا وإعانتــه مــن مصاريف مســجده الــذي يقــوم فيــه بقــراءة القــرآن الكريــم وتدريــس العلــوم ، كمــا أمــر محمد ســعيد بــن محمــد عــلي بالــصرف عــلى مســجد ســنار، الــذي أنشــأه والــده بترميمــه وتعمــيره بالإضافــة إلى ترتيــب مبلــغ ســنوي للمســجد . ومــن أمثلــة تشــجيعه أنــه لمــا وضــح لــه أن أولاد الشــيخ اســماعيل الــولي لــم يكــن لهــم ايــراد للتعيــش والإنفــاق عــلى التعليــم ســوى أطيانهــم وســواقيهم وتأكــد لــه قيامهــم بواجبهــم الدينــي والتعليمــي، عــدل عــن فــرض الضرائــب عــلى أطيانهــم وقــرر إعفــاء أولاد الشــيخ اســماعيل الــولي مــن ضرائــب الأطيــان [52].

وفي عهــد الخديــوي إســماعيل بــن ابراهيــم (1863 - 1879م) كثــر تعمــير المســاجد وصرف المرتبــات لائمتهــا، وتوزيــع الأرزاق عليهــم، وتشــجيع الفقهاء بكل الوســائل على المــضي في نــشر الثقافــة الإســلامية في أرجاء الســودان، فــكان من بــين المســاجد التي أمر الخديــوي اســماعيل بــن ابراهيــم بتعميرها ودفــع المرتبات لأئمتهــا، ومؤذنيهــا وخدمتها وربــط ما يوافــق ربطه مــن الأشــياء إن كان أطياناً أوعقــارات مما يقتضي ترتيــب إيقافه عليهــا، الجامــع العتيــق بالأبيــض والجامــع الكائــن بحلــة أبوصفيــة، ومســجد الأرباب

ببنـدر الخرطـوم، والمسـجد الكائـن بحلـة الهلاليـة بمديرية جزيـرة سـنار والخرطوم . ومسـجد قرية عبود ومسـجد مدينة سـنار ومسـجد المسـلمية، ومسـجد مروي، ومسجد طوكـر وغيرهـا مـن المسـاجد الكثـيرة [53]. ويبـدو أن هـذه الإجـراءات التـي اتخذهـا الخديـوي اسـماعيل بـن ابراهيم قد لعبـت دورًا كبـيراً في ازدهارها كمراكز إشـعاع ديني في السودان.

ممـا سـبق نلاحـظ اهتمـام الحكـم التركي ــــ المـصري بطبقـة العلمـاء بحيث أنشـأ لهـم رواق السـنارية في الجامـع الأزهـر الشريـف بالقاهـرة، وأنعـم عليهـم بالاعفـاءات الضريبيـة ودُفعـت لهـم المرتبـات.

أمـا التعليـم النظامـي في السـودان فقـد فتحـت لـه أول مدرسـة حكوميـة اقترنـت باسـم عبـاس بـن طوسـون الـذي أوفـد رفاعـة رافـع الطهطـاوي للسـودان بغـرض فتـح مدرسـة إبتدائيـة في الخرطـوم، وقـد حمـل رفاعـة معـه للخرطـوم المهمـات اللازمـة للمدرسـة مـن أحزمـة وسـجاجيد وأخذيـة وألـواح صفيـح وغيرهـا مـن المهمـات. كان قـرار عبـاس بـن طوسـون أن يكـون نظـام مدرسـة الخرطـوم موافقـاً لنظـام المـدارس المصريـة. و أن تتسـع هـذه المدرسـة لنحـو(250) تلميـذاً مـن أبنـاء السـودان وخاصـة، مديريـات دنقـلا، الخرطـوم ،التـاكا ، سـنار و ليلتحـق بهـا أبنـاء المصريـين الذيـن يعملـون في السـودان[54].

وكانـت للمدرسـة داخليـة عـلى قـرار المـدارس المصريـة، وتضمنـت مـواد القـرآن الكريـم والنحـو والـصرف والحسـاب. لـم تسـتمر المدرسـة سـوى ثلاثـة عـشر شـهراً، وتوقفـت بسـب وفـاة الـوالى عبـاس وتوليـة محمـد سـعيد باشـا بـن محمـد عـلى باشـا الـذى أمـر باغـلاق المدرسـة[55].

وقـد صحبـت الفـترة التـي قضاهـا رفاعـة رافـع الطهطـاوي في مدينـة الخرطـوم ظـروف صعبـة مـن ناحيـة الطقـس وتفـشي الأمـراض الفتاكـة في السـودان، إذ مـات أربعـة مـن المدرسـين الذيـن صحبـوه إلى مدينـة الخرطـوم للعمـل معـه في مدرسـتها ، وكان مـن بينهـم محمـد بيومـي صديـق رفاعـة رافـع الطهطـاوي.[56]

بعـد تـولي الخديـوي إسـماعيل بـن إبراهيـم للحكـم في مـصر عـام 1863م أمـر بإنشـاء خمـس مـدارس في كل مـن بربـر، ودنقـلا، وكردفـان، والتـاكا، والخرطـوم

، ومدرسة أخرى في سواكن ، وقد زودت هذه المدارس بالمدرسين الأكفاء ، كما تكفلت الحكومة المصرية بكل المصروفات لهذه المدارس . وقد كان نظام التعليم في هذه المدارس ينقسم إلى قسمين قسم خارجي بالمصروفات، حيث كانت تكلفة التلميذ الواحد تبلغ ريال مجيدي، وقسم داخلي حيث كانت الدراسة فيه بالمجان، وقد تضمنت المواد الدراسية اللغة العربية، اللغة التركية، الهندسة، الرياضيات والخط الدراسية اللغة العربية، اللغة التركية، الهندسة، الرياضيات والخط [57]. وقد أتت تلك المدارس النظامية بخدمات لا مثيل لها للإدارة السودانية وذلك بأن مدتها بالكتبة والمحاسبين وعمال التلغراف، وقد أحدثت نهضة في الثقافة والآداب في ربوع السودان، بينما كان العلم قبلها مقصوراً على خلاوي القرآن ومجالس العلوم الشرعية [58].

وقد أسس الآباء الكاثوليك مدرسة ارتادها أبناء الأوربيين وبعض أثرياء مدينة الخرطوم، كما ارتادها الأطفال السود الذين تبنتهم الكنيسة. وقد كان برنامج هذه المدرسة يشتمل على الموضوعات الفنية والعملية والموضوعات الإنسانية. ولم يكن الأقباط أقل اهتماماً من غيرهم فقد بنوا مدرسة خاصة بهم وأرسلوا أبنائهم إليها [59].

الولاء السياسي:

تعاونت الادارة التركية ـــ المصرية مع زعماء القبائل السودانية ومشايخها الذين أصبحوا جسراً للاتصال بين الادارة وبين أفراد القبيلة[60]. حيث استعانت بهم في حفظ النظام وجمع الضرائب، كما فعلت مع قبائل الشايقية والشكرية والكبابيش على سبيل المثال لا الحصر. بل وقد أخذت تستقطب بعض زعماء القبائل وأعيانها وتقوم بإشراكهم في المجالس المحلية، وفي تقدير الضرائب وغيرها، حتى تتمكن بذلك من كسب عطف الناس على النظام القائم، وكانت تقدم لهم في سبيل ذلك الهدايا والمنح وتخلع عليهم الكساوي، بالاضافة إلى دعوتهم لزيارة الولاة في القاهرة، كما فعلت مع الملك كمبال شاويش، والشيخ محمد البشاري، والسلطان محمد طمبل، والأرباب محمد دفع الله، والشيخ عبدالقادر ود الزين[61].

وبهـذا بـدأ التعـاون بـين الحكـم التركـي ـــــ المـصري وبعـض الزعامـات السـودانية فبجانـب الشـيخ عبـد القـادر ود الزيـن شـيخ مشـايخ سـنار، الـذي تقلـد وظيفـة معـاون الحكمداريـة [62]. تـم تعيـين الشـيخ أحمـد عـوض الكريـم أبوسـن كبـير مشـايخ الشـكرية مديـراً للخرطـوم [63]. وكذلـك عـين حسـين بـك خليفـة شـيخ العبابـدة مديـراً لبربـر، والشـيخ ابراهيـم مـوسى شـيخاً لقبائـل الهدنـدوة ، ومحمـد أفنـدي أبوجبـل ناظـر الرباطـاب الـذي أصبـح مديـراً لدنقـلا، والشـيخ محمد حسـين شـيخ تجـار الخرطـوم قـد أصبـح رئيسـاً لمجلـس الخرطـوم الـذي أصبـح بمثابـة مجلـس اسـتئناف للفصـل في القضايـا المهمـة. ومـن الذيـن أدوا لـلإدارة التركيـة ـــــ المصريـة بالسـودان خدمـات جليلـة الزبـير رحمـة الـذي لعـب دوراً كبـيراً ومهمـاً في ضـم بحـر الغـزال ودارفـور[64].

مما سـبق نلاحـظ أن الحكـم التركـي ـــــ المـصري أراد الاسـتعانة بهـؤلاء الزعمـاء مـن أجـل تصريـف شـؤونه المختلفـة، وذلـك باسـتخدامهم كأداة تنفيذيـة فقـط لتنفيـذ التعليمـات والتوجيهـات التـي تـرد إليهـم مـن الادارة التركيـة ـــــ المصريـة.

مظاهر الحياة الاجتماعية في الخرطوم إبان الحكم التركي المصري:

ومـن مظاهـر الحيـاة الاجتماعيـة في الخرطـوم عاصمـة الحكـم التركـي- المـصري يقـول الدكتـور محمـد إبراهيـم أبوسـليم أن سـكانها حـوالي (250ألـف) منهـم نحـو الخمـس مـن السـودانيين، والآخـرون مـن الأتـراك، والمصريـين، والسـوريين، والأوربيـين، والمغاربـة بـين تونسـيين وجزائريـن ومراكشـيين. وفيهـا مـن الأوربيـين علائـلات فرنسـية ، وايطاليـة، النمسـاوي، المانيـة ، يونانيـة، روسـية [65].

وقـد شـهدت مدينـة الخرطـوم كثـيراً مـن القهـاوي، منهـا مـا هـو عـلى شـاطئ النيـل الأزرق ومنهـا مـا هـو داخـل المدينـة، وبهـا مـا تشـتهي الأنفـس وتلـذ الأعـين مـن المأكـولات والمشروبـات فضـلاً عـن أنـواع الألعـاب الرياضيـة مثـل البليـاردو والشـطرنج والنـرد وغيرهـا، والملاهـي[66].

ومـن أهـم أحيـاء الخرطـوم حـي الحكمداريـة الـذي تجمعـت فيـه دواويـن الحكومـة ومصالحهـا ومسـاكن كبـار الموظفـين، وثكنـات الجيـش والمرافـق التابعـة لـه إلى الـشرق مـن ديـوان الحكمداريـة، والـذي شـيده خورشـيد باشـا، وإلى الـشرق منـه

كانـت الشـونة وهـي مخـزن للغـلال وتجاورهـا مـن الـشرق الترسـانة[67] . وتوجـد بـشرق الترسـانة بعـض ثكنـات الجيـش ومصنـع حربـي لصناعـة الذخـيرة وملابـس الجيـش والأحذيـة ثـم مستشـفى الخرطـوم. وإلى الجنـوب مـن ديـوان الحكمداريـة كانـت مبانـي المديريـة ومصلحـة البوسـتة ومصلحـة الماليـة وميـدان فسـيح تقـام فيـه الحفـلات الرسـمية. وكان يحيـط بهـا سـور كبـير. ثـم هنـاك حـي المسـجد إلى الغـرب مـن حـي الحكمداريـة وهـو مـن أهـم الأحيـاء السـكنية. ومـع مـرور السـنين صـار هـذا الحـي مسـكناً لكبـار التجـار والأعيـان والأجانـب بينمـا تراجع الفقـراء إلى أطـراف المدينـة، وكانـت تقـع بـه بعـض القنصليـات الأجنبيـة كالمجريـة ، والإيطاليـة , وأيضـاً مبنـى الإرسـالية الرومانيـة الكاثوليكيـة، وإلى الشـمال الغربـي مـن هـذا الحـي كانـت كنيسـة الأقبـاط [68]

ثـم تأتـي بعـد ذلـك الأحيـاء الشـعبية التـي يسـكنها عامـة القـوم، وقامـت في أطراف المدينـة وكان جـل سـكانها مـن المواطنـين. ومـن هـذه الأحيـاء حـي سـلامة الباشـا، وكان يقـع في الجنـوب الغربـي مـن المدينـة وسـكانه مـن الدناقلـة والنوبـة وغيرهـم مـن أهـل البلـد. ويعتبرهـذا الحـي أقـدم أحيـاء المدينـة، ثـم هنـاك حـي النوبـة الوافديـن مـن جبـال النوبـة ويقـع إلى الـشرق مـن حـي سـلامة الباشـا، وسـكانه من النوبـة والعنـاصر السـودانية المتقاعـدة مـن خدمـة الجيـش. وكان هنـاك حـي يسـمى (هبـوب ضربانـي) ، وهـو أفقـر أحيـاء المدينـة، وكان يسـكنه الفقـراء. ثـم هنـاك حـي الـترس الـذي أخـذ اسـمه مـن الجـسر الـذي أقيـم جنوبـه لحمايـة المدينـة مـن الفيضـان، وهنـاك حـي الـكارة وهـو حـي يسـكنه العسـاكر المصريـين والسـودانيين، وحـي الطوبجيـة وكان يسـكنه الطوبجيـة. وفي أقـصى الـشرق كان حـي بـري المحـس وهـو حـي الوطنيـين[69] .

كان سـكان مدينـة الخرطـوم خليطـاً مـن كافـة قبائـل السـودان وإن كان معظمـه مـن الدناقلـة والجعليـين والشـايقية والمحـس، ويضـاف إليـه عـدد كبـير مـن أصحاب الطـرق الصوفيـة والمشـايخ المعروفـين (بالفقـرا) في السـودان[70]. والعبيـد مـن سـكان مدينـة الخرطـوم يكونـون نصـف سـكان المدينـة وهـم مـن أجناس شـتى فقـد جاءوا إليهـا مـن الحبشـة وجميـع جهـات السـودان ووسـط أفريقيـا [71]. وهنـاك المصريـون أو(أولاد الريـف) وهـم في السـودان والخرطـوم تجـار وموظفـون في الجهـاز الحكومـي

وضباط في الجيش ، وأعضاء في المنتديات بالخرطوم كمنتدى رفاعة رافع الطهطاوي ، ومنتدى أحمد أفندي العوام التي كانت تضم المثقفين من أجانب ووطنيين بمدينة الخرطوم . وأصحاب مهن وحرف في سوق الخرطوم (مديريين للمقاهي والحمامات العامة، وخبازين وصانعي أحذية وخياطين وحلاقين، كما يعملون في إصلاح أسلحة الجيش)، وعمال في المصالح الحكومية [72].

والسوريون هم من أكثر الأجناس عدداً بعد المصريين بعضهم موظفين في الحكومة خاصة في القلم الأفرنجي بالحكمدارية، ومنهم تجار كبار، ومعظم تجارتهم مع القاهرة ويشرف على قوافلهم إليها وكلاء سودانيون. أما القبط فقد كانوا موظفين في الإدارات المالية بالحكمدارية، وهم أكبر طوائف المصريين في مدينة الخرطوم من حيث الإستقرار ويقيم معظمهم حول الكنيسة القبطية [73].

ثم هناك الجالية الأوربية، فقد كان أوائلهم يشغلون الوظائف الفنية في الجيش كأطباء ومهندسين ومستوظفين ثم وفد بعض التجار الكبار الذين كانوا يعملون في محيط التجارة المحتكرة للحكومة مثل تجارة الصمغ العربي، والعاج، وريش النعام. وبعد إلغاء الاحتكار زادت أعدادهم حيث وفد عدد كبير من اليونانيين والإيطاليين والألمانيين والنمسويين والفرنسيين والأرمن. وكان أغلب الأوربيين يعملون بالتجارة. وكان اليونانيون منهم يحتكرون أعمال البقالة [74].

ومن مظاهر الحياة الاجتماعية في مدينة الخرطوم الاحتفالات بالأعياد الدينية أو المناسبات الرسمية، أو الخاصة فمثلاً يحتفل الحكمدار بثبوت هلال شهر رمضان وذلك بمرور موكب رسمي في شوارع المدينة الرئيسة، يضم الأعيان ومدير الخرطوم والجند وبعض كبار الموظفين فوق صهوات جيادهم، ووراءهم جماعة كبيرة من أتباع الطرق الصوفية والفقهاء والسكان رجالاً ونساءً، ترفرف فوق الجميع الأعلام التركية، ورايات جماعات الطرق الصوفية في الوقت الذي تملأ الموسيقى الجو بنغماتها. وفي هذا الشهر تهدأ الحركة في السوق وتغلق معظم الدكاكين. كما تضعف الحركة في الشوارع نهاراً لدرجة كبيرة، فإذا حل الليل تزاور الأفراد وقامت الحلقات أمام المنازل. وفي هذا الشهر لا يعمل موظفي الحكومة [75].

أمــا الاحتفــال بالمولــد النبــوي فيســتمر ثمانيــة أيــام كاملــة وتقيــم كل مصلحــة مــن مصالــح الحكومــة سرادقــاً لهــا في ميــدان شرق ســوق البقالــة، وتزيــن هــذه السرادقــات بالأعــلام والمصابيــح، وفيهــا يتبــادل كبــار الموظفــين الزيــارة كل مســاء ويتناولــون القهــوة والشربــات وتعــزف موســيقى الجيــش مــن بعــد غــروب الشــمس حتــى آخــر الســهرة. وفي الليلــة الأخــيرة مــن الاحتفــال يتــم عــرض بالألعــاب الناريــة. ومــن الأعيــاد التــي يحتفــل بهــا أيضــاً الذكــرى الســنوية لاعتــلاء الخديــوي العــرش، ويحتفــل بــه ثلاثــة أيــام، كمــا يحتفــل بقــراءة فرمــان توليــة الحكمــدار الجديــد، وولادة وزواج أبنــاء الــوالي والســلطان، وانتصــار جيــش الحكومــة[76].

ومــن ملامــح مجتمــع مدينــة الخرطــوم أن ليلــة مــن لياليــه لايمكــن أن تمــر دون أن يحييهــا جماعــة مــن العوالــم (وهــن راقصــات الفــن الشــعبي في مجتمــع الخرطــوم آنــذاك)، وقــد أفــاض الرحالــة والمكتشــفون مــن زوار الخرطــوم في وصــف الحفــلات التــي تحييهــا هــذه الجماعــات مــن حيــث أنــواع الرقــص والغنــاء وجنســية أفرادهــا، ومــا ترتديــه النســاء مــن ملابــس وطريقــة تصفيفهــن لشــعرهن وغــير ذلــك وكانــت فــرق العوالــم تقــدم عروضهــا التــي تتنــوع بــين التركــي والمــصري والأســباني والســوداني وأحيانــاً الحبــشي، وكانــت هــذه الفــرق تحــضر بمصاحبــة العازفــين وتقــدم فواصــل هزلية.وتدعــى هــذه الجماعــات لإحيــاء حفــلات الــزواج والــولادة والطهــور والترحيــب بضيــف عزيــز، وكذلــك في المناســبات القوميــة ويشــترك جميــع ســكان مدينــة الخرطــوم في الاســتمتاع بهــذه الحفــلات وتعمــل هــذه الجماعــات تحــت رئاســة متعهــد مختــص بشــؤونها الماليــة و(عالمــة) مختصــة بالناحيــة الفنيــة، وكانــت الغــوازي الزنجيــات يرقصــن مرتديــات (الرحــط) أمــا المصريــات فرداؤهــن الســترات الحريريــة والبنطلونــات الورديــة الواســعة وكــن جميعــاً يرقصــن عــلى أنغــام آلات موســيقية ويقدمــن مــن الرقــص أنواعــاً عديــدة منهــا المــصري والتركــي والأســباني، ولــكل نــوع منــه بدلتــه الخاصــة. أمــا المغنيــات فكــن يغنيــن الأغانــي المصريــة والســودانية وأحيانــاً الحبشــية. وفي أواخــر الحكــم التركــي ـ المــصري كانــت هــذه الجماعــات تقــدم عــلاوة عــلى ذلــك، بعــض الفصــول مــن التمثيــل والأدوار المضحكــة في بيــوت كبــار رجــال المدينــة، وتقــام الحفــلات في الأفنيــة داخــل المنــازل أو في الســاحات أمامهــا، وكان مــكان الحفــل في الأوســاط الراقيــة يحــاط بالعناقريــب

التـي يجلـس عليهـا المدعـون في ثلاثـة جوانـب منـه، أمـا الجانـب الرابـع فهـو مسرح الغنـاء والرقـص[77].

المفاسد الاجتماعية للحكم التركي ـ المصري في السودان:

كان المجتمـع السـوداني قبـل الغـزو التركـي ـــــ المـصري مجتمعـاً قبليـاً لـم تهـب عليـه نسـائم المعرفـة، حيـث كان شـيخ القبيلـة هـو زعيمهـا الـذي يلتـف حولـه أفـراد القبيلـة ويتـولى شـؤونها الخاصـة والعامـة. ولكـن بعـد أن تـم الغـزو التركـي - المـصري في العـام (1236هـ / 1821م) أطـل السـودان عـلى العالـم الخارجـي، ووفـدت إليـه أعـداد كبـيرة مـن الأجنـاس بجانـب الأتـراك الذيـن تولـوا إدارة البـلاد.

قـام الحكـم التركـي ـــ المـصري في السـودان بمحاولـة لطـرح عاداتـه وتقاليـده عـلى المجتمـع السـوداني وذ لـك باسـتخدام وسـائله المختلفـة ويصبغـه بصبغـة جديـدة تخرجـه عـن أصولـه المحليـة، فانحـرف بعـض سـكان المـدن السـودانية وراء محاكاة هـؤلاء الأجانـب في ظـل قوانين تمنـح الفـرد حريـة واسـعة في كل تصرفاته الشـخصية. وقـد ترتـب عـلى ذلـك الوضـع انتشـار أنـواع كثـيرة مـن المفاسـد الإجتماعيـة التـي نسـتطيع أن نبينهـا فيمـا يـلي: ــ

تـردد بعـض المصـادر أن المظهـر العـام للمجتمـع السـوداني في فـترة الحكـم التركـي ـ المـصري قـد أصابـه انحـراف بعـض السـودانيين وراء محـاكاة هـؤلاء الأجانـب في لبسـهم , فالثابـت أن البـلاد السـودانية قـد غزتهـا جيـوش محمـد عـلي باشـا في العـام (1235/ 1236هـ ـــ 1820 /1821م) وكان أهلهـا يلبسـون مـا تعـودوا عليـه مـن الملابـس , أمـا الأجانـب فيلبسـون زيهـم فهـو بسـيط ومصنـوع مـن الدبـلان ولمـا تحولـت معظـم بـلاد السـودان للحكـم التركـي ـــ المـصري بـدأ يظهـر للسـودانيين زي خـاص بهـم عبـارة عـن سراويـل وقمصـان مـن الدبـلان الأبيـض المصبـوغ بلـون أسـود وأزرق مسـتورد مـن الخـارج[78] .

وفي الأفـراح والأعيـاد يلبـس كبارهـم القفاطـين والجبـب [79]. والطرابيـش الأفرنجيـة

وكذلـك الطرابيــش الإســلامبولية [80].

وهكـذا أخـذ أهـل السـودان يكثـرون مـن لبـس الملابـس المصنوعـة في الخـارج حتـى قيـام الثـورة المهديـة. كمـا شـهد المجتمـع السـوداني ظاهـرة الاختـلاط في جلسـات الغنـاء والرقـص في الأماكـن التـي شـيدت عـلى ضفـاف النيـل الأزرق بمدينـة الخرطوم بتشـجيع مـن مديرهـا محمـد بـك راسـخ الـذي كان يحـب الغنـاء والرقـص[81].

وكانـت قوانـين الحكـم التركـي ـــ المـصري تمنـح الفـرد حريـة واسـعة في مجـال تصرفاتـه الشـخصية، حتـى أنهـا لـم تقـف أمـام رجـل أراد أن يتـزوج غلامـاً[82]. وهكـذا أصبـح الفسـوق مـن المظاهـر المقبولـة وأصبـح الحـرام ميسـوراً ففـي عهـد الحكمـدار أحمـد المنـكلي (1259/1261هـ ـــ 1844/1845م) اغتصـب مدير سـنار ابنـة أحـد الكشـاف وقـد داهمـه الأبـوان متلبسـاً بالجريمـة، وذهبـا إلى الحكمـدار أحمـد المنـكلي طلبـاً للعدالـة. ولكـن كانـت نتيجـة الشـكوى أن أودع الكشـاف وزوجتـه غياهـب السـجن. أماالفتـاة فقـد عاملوهـا معاملـة البغايـا وهـددوا بالقائهـا في النيـل ولـم يخرجـوا مـن هـذا المـأزق إلا بعـد مجهـودات مضنيـة وهدايـا ثمينـة أرسـلوها للحكمـدار أحمـد المنـكلي فأطلـق سراحهـم [83].

لقـد كان هـدف الحكـم التركـي ـــ المـصري منـذ مطلـع غزوهم لبـلاد السـودان تدمير الأصـول الحضاريـة والينابيـع الروحيـة للمواطـن السـوداني، فأقـرت الإدارة التركية ـــ المصريـة شرب الخمـر، والدليـل عـلى ذلـك أنهـا أسسـت لهـا ديوانـاً سـمي (ديـوان الخمامـير) وقـد منحـت إدارتـه عـن طريـق المزايـدات (العطـاءات), وهـذه الخمامـير منتـشرة في مختلـف مديريـات السـودان، وهـي مربحـة سـواء كانـت إدارتهـا عـلى حسـاب الحكومـة أو عـلى حسـاب أصحـاب العطـاءات .[84] وهكـذا أصبحـت صناعـة المسـكرات مـن الأمـور المقننـة في ظـل نظـام يدعـي الإسـلام فـأدى ذلـك إلى نـوع مـن الانحـلال الخلقـي .

وفي مدينـة الخرطـوم راجـت تجـارة البغـاء، التـي تقـوم عـلى شراء أصحـاب المـال للجـواري وحملهـن عـلى احـتراف البغـاء أو الرقـص، عـلى أن تـؤدي الجاريـة إلى سـيدها مبلغـاً معلومـاً في الشـهر، إلى جانـب قيامهـا بشـؤونها المعيشـية. وهـن يقمـن في حـي الـترس وسـلامة الباشـا، وتسـمى بيوتهـن بالأندايـات أو (بيـوت المريسـة) ،

حيث تسير التجارة جنباً إلى جنب مع الشرب والرقص. ولبعضهن رواكيب في سوق الشمس، أو حجرات خاصة أفردها لهن سادتهن في منازلهم، كما يشاهد بعضهن وهن يتجولن طوال النهار في الأسواق والمقاهي، وهن من الحبشيات والزنجيات، والقليل منهن من المصريات وأقل القليل من السودانيات وهن في العادة صغار ذوات جمال ملحوظ [85].

وقد خصصت الحكومة أندايات لصنع الخمر وشربها، وكان غرض حكومة غردون باشا على مايبدو أن تستقي ما تريده من معلومات سرية بخصوص الرقيق وغيره في هذه الأماكن الدنسة مما ساعد على تفشي الفحشاء وكثر المنكر وانتشر الفساد. وكان يقوم على الخدمة في الأندايات نفر من الجواري اللواتي يحسن مع بيع الخمر بيع الصبابة والغزل الرخيص[86] .

ومن مظاهر الانحلال الخلقي خروج الجواري إلى الشوارع وهن يغنين الأغاني الخليعة في عبارات مفضوحة، وكانت الجارية تتعرض للشبان في الطريق وهي تغني بأقبح الأغاني وبدون خجل، أو تستر تسد الطريق على الشاب تحاوره وتداوره وهي تقول أقبح الكلام من أجل ممارسة الزنا [87].

وقد أخذ على الحكمدار غردون أنه كان يتهاون في احترام المشاعر الدينية للسودانيين في الإستهتار بتقاليدهم وقيمهم الأخلاقية، عندما أباح للعاهرات ممارسة الرذيلة بالقرب من أماكن العبادة، ومنح بعضهن رخصاً لإقامة أماكن لصناعة وبيع الخمور البلدية ولم يعط شكاوى العلماء والمشايخ أية اعتبار، حيث تقدم له الشيخ علي عبدالله شيخ السجادة القادرية بالخرطوم بعريضة اشتكى فيها من وجود عاهرات بالقرب من أحد زوايا العبادة يقلقن راحة العباد بما يحدثنه من الجلبة والرقص والنقر على الدفوف فسفه غردون أراءه وأقواله بدعوى الدنيا حرية [88].

ومما سبق يتضح لنا ما وصل إليه الشارع السوداني في فترة الحكم التركي ـ المصري من سلوك قبيح لا يمكن أن تنمو فيه عقيدة دينية، ولا مثل أخلاقية، لأن الزنا ضد مقاصد الزواج الشرعي .ولهذا كانت العقوبة المفروضة عليه في الاسلام متناسبة تماماً مع شناعته، وفي هذا قال الله تعالى ك(والذين لايدعون مع الله إلهاً آخر ولايقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً)[89].

وقد منحت قوانين الحكم التركي ـــ المصري المواطن السوداني حرية واسعة في مجال تصرفاته الشخصية، فانتشرت آفة الشذوذ الجنسي وحب الغلمان (ظاهرة اللواط) حيث أصبح في السوق وميادين مدينة الخرطوم تشاهد جماعة من المخنثين في ملابس النساء والكحل في عيونهم، والخضاب في أكفهم، يقودهم رئيس منهم عاري اللحية وهم يصوبون نظرتهم الخليعة هنا وهناك يعرضون هذه الأعمال الفاحشة [90].

أما إذا نظرنا إلى نظام الرق الذي كان يمثل مظهراً مهماً في الحياة الإجتماعية والإقتصادية في السودان آنذاك نلاحظ بالرغم من تلك الأهمية كان يعامل معاملة قاسية ولا سيما من الأوربيين ، ففي كردفان أخصى فرنسي أحد عبيده لمجرد الاشتباه في علاقة بينه وبين إحدى خادمات المنزل، وليت الأمر وقف عند هذا الحد بل ذهب إلى أبعد من ذلك حيث عاقب هذا الفرنسي المتهمة بحشر قطعة من الحديد الساخن في مهبلها[91] .

والفظائع التي أرتكبت في حق الرقيق لا تحصى ولاتعد ففي مدينة الخرطوم قام رجل أوروبي كان معروفاً بطباعه الحادة، وأثناء فورة من فورات غضبه أباد مجموعة من رقيقه ودفنهم في حديقة منزله. وشنق رجل تركي فتاة من الرقيق إشباعاً لرغبة زوجته التي كانت تغار منها[92].

وكانت المعاملة القاسية تصاحب الرقيق حتى بعد الموت فقد كانت جثث الرقيق سواء كانوا تابعين للأفراد أو للحكومة تلقى في العراء نهباً للوحوش الجائعة، أما المجندون في الجيش فقد كانوا يدفنون باعتبارهم أحراراً [93].

وعندما قررت الحكومة المصرية إلغاء تجارة الرقيق، ارتبطت مسألة منع التجارة بتعيين الأوربيين في مناصب قيادية بادارة السودان لكنهم لم يكونوا صادقي النية نحو الحكومة المصرية، فانتهزوا فرصة أوامرها بمنع تجارة الرقيق وحاربوا هذه التجارة بكل عنف وقسوة مع علمهم بأن هذه الحرب تثير كراهية فريق كبير من الأهالي وتدفعهم إلى مقاومة الحكومة[94].

خلاصة القول يتضح أن الحكم التركي ـــ المصري قد أسهم بنصيب وافر في ادخال بعض الظواهر التي لم تكن موجودة من قبل في السودان مثل ظواهر الفساد والانحلال الخلقي.

وقد بقي هذا الانحلال مخيماً على البلاد السودانية ستين سنة إلى أن جاءت الثورة المهدية بقيادة محمد أحمد بن عبد الله في وقت كان فيه وجدان المجتمع السوداني المسلم مهيئا لقبول فكرة المهدية التي سوف تملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً.

هوامش الفصل الاول:

(1) محمد سعيد القدال , تاريخ السودان الحديث1820ـــ 1955, الخرطوم1991م , ص 63.

(2) نعوم شقير , جغرافية وتاريخ السودان ,بيروت ،1967م , ص 626.

(3) Holt,P.M: The Mahdist State in the Sudan 1888-1898, Oxford,1958,P.9

(4) محمد سعيد القدال , المرجع السابق ، ص 63.

(5) أبي العباس أحمد القلقشندي ، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ط2، تحقيق إبراهيم الإيباري ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، 1400هـ ـــ 1980م، ص 11ــ 12.

(6) محمد عوض محمد ، السودان الشمالي سكانه وقبائله ، ط1، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، 1951م ، ص 168.

(7) المرجع نفسه ، ص 214.

(8) المرجع نفسه ، ص 229.

(9) محمد عوض محمد ، الشعوب والسلالات الأفريقية ، سلسلة دراسات أفريقية ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، 1965م ، ص 214.

(10) محمد عوض محمد ، السودان الشمالي سكانه وقبائله ، المرجع السابق ، ص 16.

(11) محمد عوض محمد ، الشعوب والسلالات الأفريقية ، المرجع السابق ، ص 284.

(12) حمدنا الله مصطفى حسن ، التطور الاقتصادي والاجتماعي في السودان 1841ــ 1881م ، ط1، دار المعارف, 1985م ، ص 326ـ327.

(13) محمد عوض محمد, السودان الشمالي سكانه وقبائله ، المرجع السابق ، ص 302.

(14) علي حسن عبدالله ، الإدارة والحكم في السودان ، القاهرة ، دار المستقبل العربي ، 1986م ، ص44.

(15) محمد ابراهيم أبوسليم , الشخصية السودانية ، دار جامعة الخرطوم للنشر ، 1979م ، ص 21.

(16) محمد الأمين سعيد , عصري عباس ومحمد سعيد في السودان (1265ـ 1279هـ / 1848ـ 1863م) ، مطبعة جامعة الخرطوم ، 2018م ، ص227.

(17) محمد فؤاد شكري ، مصر والسودان، تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر 1820ـــــ 1889م ، القاهرة ، 1957م ، ص92.

(18) محمد الأمين سعيد ، المرجع السابق ، ص181.

(19) أحمد أحمد سيدأحمد ، تاريخ الخرطوم تحت الحكم المصري ،1820ـــــ 1885م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 2000م ، ص 255

(20) المرجع نفسه ، ص 257ـــــ 258.

(21) المرجع نفسه ، ص 258.

(22) أحمد أحمد سيدأحمد ، المرجع السابق ، ص 259ـــــ 260.

(23) الشاطر بصيلي عبدالجليل ، تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط من القرن السابع الميلادي إلى القرن التاسع عشر الميلادي ، ص 265.

(24) عبد الرحمن الرافعي ، مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ,ط 2 ، القاهرة ، 1948م ، ص 89.

(25) حسن مكي محمد أحمد، السياسات الثقافية في الصومال الكبير (قرن إفريقيا) 1887ـــ 1986م، ط1، الخرطوم ، دار المركز الإسلامي الإفريقي للطباعة ، 1410هـــــ 1990م، ص 19ـــ 21.

(26) المرجع نفسه، ص22.

(27) حمدنا الله مصطفى حسن ، المرجع السابق ، ص350ـــــــ351.

(28) الشاطر بصيلي عبدالجليل ، المرجع السابق ، ص 62.

(29) حمدنا الله مصطفى حسن ، المرجع السابق ، ص 354

(30) حمدنا الله مصطفى حسن ، المرجع السابق ، ص351.

(31) عبد المجيد عابدين ، تاريخ الثقافة العربية في السودان ، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع, ط2, 1967م, ص64ـــــ65.

(32) المرجع نفسه ، ص66ـــــ67.

(33) حمدنا الله مصطفى حسن ، المرجع السابق ، ص 429.

(34) عبدالقادر محمود, الطوائف الصوفية في السودان ، طـ1 ، الخرطوم ،1971م ،ص32

(35) عبدالمجيد عابدين ، المرجع السابق ، ص67.

(63) المرجع نفسه ، ص68.

(37) علي صالح كرار ، الطريقة الإدريسية في السودان ، ط،1، بيروت، دار الجيل ، 1411هـ ـــ 1991م ,ص48 ـــــــ 49.

(38) المرجع نفسه ، ص 50.

(39) المرجع نفسه ، ص 50 ـــــــ 51 .

(40) عبدالقادر محمود ، المرجع السابق , ص 142.

(41) المرجع نفسه ، ص 58.

(42) الصادق المهدي ، يسألونك عن المهدية ، بيروت , 1975م, ص136.

(43) عبد الرحمن زكي , الإسلام والمسلمون في غرب افريقيا ، القاهرة، مطبعة يوسف ،

1965م ، ص17.

(44) توماس أرنولد , الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن ابراهيم حسن ، عبدالمجيد عابدين، اسماعيل النحراوي ، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية ، 1970م , ص371 ـ 372.

(45) عبدالمجيد عابدين ، المرجع السابق ، ص 61.

(46) توماس أرنولد ، المرجع السابق ، ص 278.

(47) محمد ضيف الله ، مقدمة كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والشعراء في السودان ، نشر وتحقيق ابراهيم صديق ، الخرطوم ، 1929م ، ص 63.

(48) Trimingham ; Islam in Sudan , London , 1949,P. 200

(49) ناصر السيد ، تاريخ السياسة والتعليم في السودان ، الخرطوم، دار جامعة الخرطوم للنشر ، ص 8

(50) سعاد عبدالعزيز أحمد ، قضايا التعليم الأهلي في السودان ، ج1، الخلاوي والمدارس الأهلية 1898ــــ 1956م , ط1، مطبعة جامعة الخرطوم , دارجامعة الخرطوم للنشر ، 1991م ، ص 18.

(51) محمد فؤاد شكري ، الحكم المصري في السودان 1820 ــــــــــ 1885م ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، 1947م ، ص4

(52) يحي محمد ابراهيم ، التعليم الديني في السودان، ,ط1 ، بيروت ، لبنان، دار الجيل، 1407هـ ـــ 1987م ، ص 283 ــــــــــــ 284.

(35) (53) محمد فؤاد شكري ، المرجع السابق ، ص 118.

(54) السيد يوسف نصر، الدور الحضاري للجيش المصري في القرن التاسع عشر في آسيا وأفريقيا ، القاهرة، مكتبة مدبولي ، 1983م ، ص 62.

(55) المرجع نفسه ، ص 65.

(56) إبراهيم الحاردلو ، الرباط الثقافي بين مصر والسودان ، جامعة الخرطوم ، دار

التأليف والترجمة والنشر، 1977م، ص13.

(57) سليمان كشه ، تأسيس مدينة الخرطوم والمهدية ، د. ت ، ص 13.

(58) مكي شبيكة ، السودان عبر القرون ، دار الجيل ، بيروت ، 1411هـ ــــــ 1991م ، ص171 ـ 172.

(59) محمد ابراهيم أبوسليم ، تاريخ الخرطوم ، المرجع السابق ، ص 44.

(60) بشـــير كوكـــو حميـــدة ، ملامـــح مـــن تاريـــخ الســـودان في عهـــد الخديـــوي اســـماعيل ، ط1 ، 1983م ، ص 27.

(16) HILL. R : Egypt in Sudan، London,1959 ,p46

(62) بشيركوكو ، المرجع السابق ، ص 29.

(63) محمد سعيد القدال ، المرجع السابق ، ص 59.

(64) شـــوقي الجمـــل , تاريـــخ ســـودان وادي النيـــل ، حضارتـــه وعلاقاتـــه بمـــصر مـــن أقـــدم العصـــور إلى الوقـــت الحـــاضر، ط1، القاهـــرة ، مكتبـــة الأنجلوالمصريـــة، 2008م، ص 404ــــــــ405.

(65) محمـــد إبراهيـــم أبوســـليم، تاريـــخ الخرطـــوم، ط3، بـــيروت ، دار الجيـــل ، 1411هـ ـ 1991م، ص49.

(66) أحمد أحمد سيدأحمد ، المرجع السابق ، ص 296.

(67) محمد ابراهيم أبوسليم ، تاريخ الخرطوم ، المرجع السابق، ص33 ـ34.

(68) المرجع نفسه ، ص 37ـ39.

(69) المرجـــع نفســـه ، ص39. الطوبجيـــة هـــم الجنـــود الذيـــن يعملـــون في ســـلاح المدفعيـــة .

(70) أحمد أحمد سيد أحمد ، المرجع السابق ، ص 244.

(71) المرجع نفسه ، ص253ــــــــــــ 254ـ

(72) المرجع نفسه ، ص 265ــــــــــــ 269.

(73) المرجع نفسه ، ص 269ــــــــــــ 270.

(47) محمد ابراهيم أبوسليم ، تاريخ الخرطوم ، المرجع السابق ، ص46.

(75) أحمد أحمد سيدأحمد ، المرجع السابق ، ص 262ــــــــــ 263.

(76) المرجع نفسه ، ص 263.

(77) المرجــع نفســه ، ص 294ـــــــــــ 295. الغــوازي هــن الراقصــات الــلي يرقصــن مقابــل المــال.

الرحــط عبــارة عــن ســيور تحــاك مــن جلــود الأغنــام ويتــم صبغهــا باللونــين الأحمــر والأســود وتوضــع حــول خــاصرة المــرأة الســودانية عنــد زواجهــا.

(87) (78) نعوم شقير ، المصدر السابق ,ص177.

(97) المصدر نفسه ، ص 253 .

(80) المصدر نفسه ، ص 178.

(81) المصدر نفسه ، ص 535.

(82) ابراهيم فوزي ، السودان بين يدي كتشنر وغردون ، ج1, صفر 1319هــ , ص73.

(83) ريتشــارد هيــل ، عــلى تخــوم العالــم الاســلامي ، حقبــة مــن تاريــخ الســودان 1822ــــ 1841م ، ترجمــة عبدالعظيــم محمد أحمــد عكاشــة ، ج1، الخرطوم ، 1984م ، ص94

(84) محمد الأمين سعيد ، المرجع السابق ، ص 130.

(85) أحمد أحمد سيدأحمد ، المرجع نفسه ، ص 293ـــــــــــ 294.

(86) محمــد أحمــد الجابــري ، في شــأن اللــه أو تاريــخ الســودان كمــا يرويــه أهلــه

، القاهــرة ، 1948م ، ص67.

(87) المرجع نفسه ، ص 69.

(88) المرجع نفسه والصفحة .

(89) سورة الفرقان ، الآية 68.

(90) أحمد أحمد سيدأحمد ، المرجع السابق ، ص 294.

(91) ريتشارد هيل ، المرجع السابق ، ص82.

(92) المرجع نفسه والصفحة .

(93) ريتشارد هيل ، المرجع السابق ، ص 84

(94) عبد الرحمن الرافعي ، المرجع السابق ، ص 89.

الفصل الثاني

الدعوة المهدية في السودان

الفصل الثاني

الدعوة المهدية في السودان

تمهيد:

- فكرة المهدية في الاسلام
- فكرة المهدية في السودان
- أسباب قيام الثورة المهدية في السودان
- نشأة محمد أحمد بن عبد الله وثقافته

تمهيد :

كان الوضع في السودان قبيل قيام الثورة المهدية وضعاً لا مركزياً من الناحية الإدارية حيث قسمت البلاد إلى أربعة حكمداريات هي حكمدارية إقليم وسط السودان وتضم الخرطوم، سنار بربر، فشودة وخط الاستواء ومركزها الخرطوم[1]. حكمدارية إقليم شرق السودان وتضم مديرية التاكا وملحقاتها ومحافظتي سواكن ومصوع وملحقاتها إلى باب المندب [2]. أما حكمدارية إقليم غرب السودان فكانت تضم مديرية دارفور، وكردفان، وبحر الغزال، ودنقلا ومركزها الفاشر[3]. ثم حكمدارية عموم هرر وزيلع وبربرة [4].

لم يقبل معظم السودانيون بالحكم التركي المصري، الذي فرض على أهل بلاد السودان ضرائب باهظة، واتبع سياسة عنيفة في محاربة تجارة الرقيق بصورة ساعدت على انتشار السخط على الحكم التركي- المصري الذي استجلب الأجانب إلى بلاد السودان الذين لم يحترموا مشاعر السودانيين الدينية، فشهدت البلاد السودانية فساداً في الإدارة الحكومية [5]، ونتيجة لتلك الأوضاع المتردية بدأ أفراد المجتمع السوداني يتطلعون إلى ظهور المهدي المنتظر ليملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت ظلماً.

أولاً: فكرة المهدية في الإسلام:

لم يرد ذكر كلمة (المهدي) في القرآن الكريم والصحيحين، ولكن هنالك بعض الآيات القرآنية التي تدل على تكليف أفراد بأمر الهداية ومحاربة الضلالة، ومنها قوله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) [6] ، وقوله تعالى (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد) [7] ، وقوله تعالى (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) [8] ، وقوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) [9] .

وأوردت كلمة (المهدي) في بعض الأحاديث التي أخرجها ابن ماجة ، والترمذي والطبري ، وغيرهم ، وقد حددت هذه الأحاديث ما رواه عبد الله بن مسعود أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال (لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً مني أو من أهل بيتي يوطئ اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً)[10] . وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (المهدي من عترتي من ولد فاطمة)[11] وفي حديث آخر عن أبي سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (المهدي مني، أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً ويملك سبع سنين)[12] وأيضاً عنه قال :(خشينا أن يكون بعد نبينا حدث فسألنا نبي الله صلى الله عليه وسلم فقال :(إن في أمتي المهدي يخرج ، يعيش خمساً أو سبعاً أو تسعاً زيد الشاك قال قلنا : وما ذاك ؟ قال : سنين قال : فيجيء إليه رجل فيقول يا مهدي أعطني أعطني فيحثي له في ثوبه ما استطاع أن تحمله)[13]. وقد أشارت بعض الأحاديث إلى أن المهدي يخرج في آخر الزمان كشرط من أشراط الساعة منها ما رواه الحاكم عن طريق عوف الأعرابي عن أبى الصديق الناجي، عن أبى سعيد الخدري إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(لا تقوم الساعة حتى تملأ الأرض جوراً وظلماً وعدواناً، ثم يخرج من أهل بيتي من يملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وعدواناً) [14] ومنها قوله صلى الله عليه وسلم (إن الله ليبعث لهذه الأمة على رأس كل قرن من يجدد لها دينها)[15] .

أما إذا بحثنا من الناحيتين الاجتماعية والسياسية فإننا نجد أن المهدية حركة لها دلالتها فهي تعد أحد مظاهر المعارضة للنظم القائمة تظهر وتتصاعد، كلما اشتد الظلم والاضطهاد، فكانت دائماً شعار المضطهدين والمغلوبين على أمرهم، يترسمون فيها الجنة الموعودة، التي ترضى خيالهم ورغباتهم المكبوتة، ونظرتهم الرامية إلي المثالية المطلقة في العدل والقضاء المبرم على العدو[16] .

ولقد كان الشيعة أسبق الفرق الإسلامية إلى اعتناق هذه العقيدة وأشدهم تعلقاً بها. وكان شعورهم الدائم بالظلم وتطلعهم إلى وضع جديد عادل يكفل لهم حريتهم يجعلهم باستمرار متمسكين – على امتداد العهود الزمنية بفكرة المهدي [17].

ومــن فــرق الشــيعة التــي نــادت بفكــرة المهــدي المنتظــر فرقــة (الأثنــى عشريــة) فهــؤلاء مــا يزالــون في انتظــار إمامهــم المختفــي محمــد الحســن العســكري، الــذي اختفــى في سرداب دار أبيــه في سٌرَّ مَــنْ رَأَىّ (ســامرا) في ســنة (265هـــ-883م) وكان عمــره آنــذاك تســع ســنوات، وهــو في اعتقادهــم لا يــزال حيــاً ويترقبــون ظهــوره ليمــلأ الأرض عــدلاً [18]

وكان أول مــن أُطلــق عليــه لقــب المهــدي مــن أهــل البيــت هــو محمــد بــن عــلى ابــن أبــى طالــب المعــروف بمحمــد بــن الحنفيــة وهــو ليــس مــن نســل فاطمــة بنــت ســيدنا محمــد (صــلى اللــه عليــه وســلم) فأمــه مــن بنــى حنيفــة، وعنــد وفاتــه زعــم أتباعــه مــن الشــيعة (الكيســانية) بأنــه لــم يمــت ولكنــه اختفــى في غيبــة بجبــل رضــوى، يحرســه أســد ونمــر، يعيــش عــلى العســل والمــاء وســيكون ظهــوره في الوقــت المناســب لينتــصر عــلى الأمويــين [19].

وأٌطلــق لقــب المهــدي بعــد ذلــك عــلى زيــد بــن عــلى بــن الحســين بــن عــلى بــن أبــى طالــب عندمــا خــرج عــلى الدولــة الأمويــة في خلافــة هشــام بــن عبــد الملــك في الكوفــة فــكان نصيبــه أن قتــل وصلــب [20].

أمــا في العــصر العبــاسي الأول، فقــد ازداد الشــعية تمســكاً بعقيدتهــم، بــل تطلعــوا لظهــور المهــدي لكــي يخلصهــم مــن ظلــم العباســيين، فخــرج محمــد بــن عبــد اللــه بــن الحســين ابــن الحســن بــن عــلى بــن أبــى طالــب المعــروف بالنفــس الزكيــة، شــاهراً ســيفه عــلى العباســيين فقتلــه جنــد المنصــور ســنة(145هــ)، واعتقــد أتباعــه بأنــه لــم يمــت ولكــن اختفــى ليظهــر في الوقــت المناســب لينتقــم مــن خصومــه العباســيين [21].

وتــرى فرقــة القرامطــة في محمــد بــن إســماعيل بــن جعفــر مهديهــا المنتظــر وتترقــب رجعتــه وتزعــم أنــه حــي يــرزق ببــلاد الــروم، فهــو ليــس مهديــاً فحســب ولكنــه رســول أيضــاً وسينســخ شرعــه شريعــة محمــد (صــلى اللــه عليــه وســلم) [22].

أمــا فرقــة اليزيديــة - وهــى إحــدى فــرق الخــوارج - فإنهــا تــرى بــأن المهــدي المنتظــر ســيكون نبيــاً مرســلاً وســوف يبعــث مــن العجــم لا مــن العــرب [23].

وقــد اهتــم الصوفيــة أيضــاً بفكــرة المهــدي وصاغوهــا بقالــب يخــدم أهدافهــا، ونــادوا بهــا وملخــص ما ذكــره ابــن خلــدون عنهــم: أن أوائلهم لــم يخوضــوا في هذا الأمــر، أما المتأخــرون الذيــن قالوا بالحلــول والوحــدة متأثرين بمذهــب الرافضة والإماميــة القائلين بألوهيــة الأئمــة وحلــول الإله فيهم وقــد ظهر مــن القول بالقطــب وامتــلأت كتبهم بمثل ذلــك الفاطمــي المنتظــر، ولــم يســتندوا إلى أدلــة قويــة بــل ربما أخــذ بعضهــم بأقوال المنجمــين في القرانات[24].

ويعتبر محي الدين بن عربي من أشهر المتصوفة الذين كتبوا عن المهدي المنتظر فقد ذكره في كتابه(الفتوحات المكية)، الذي أورد فيه باباً سماه (في معرفة منزلة وزراء المهدي الظاهر في آخر الزمان، الذي بشر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من أهل البيت حيث أوضح فيه بعض الصفات الجسمانية المظهرية والسلوكية العامة مثل كون المهدي من آل بيت الرسول (صلى الله عليه وسلم) من ولد فاطمة ويواطئ اسمه اسم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) جده هو الحسن ابن على بن أبى طالب، ويبايع بين الركن والمقام ، يشبه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في خلقه، وينزل عنه في الخُلق، يقيم الدين، ينفخ الروح في الإسلام، ويعز الله به الإسلام، ويحيا بعد موته ويدعو إلى الله بالسيف، فمن أبى قتل ومن نازعه خذل ، يظهر من الدين ماهو الدين عليه في نفسه مالو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لحكم به ،يرفع المذاهب من الأرض فلا يبقى إلا الدين الخالص. أعداؤه مقلدة العلماء أهل الاجتهاد لما يرونه من الحكم بخلاف ما ذهبت إليه أئمتهم فيدخلون كرهاً تحت حكمه خوفاً من سيفه وسطوته، ورغبة فيما لديه، يفرح به عامة المسلمين ويبايعه العارفون بالله من أهل الحقائق عن شهود وكشف بتعريف إلهي، ويعيش مابين خمس إلى تسع سنوات بحسب عدد وزرائه وأنه في ظهوره شرط من أشراط الساعة [25].

ومــن خــلال تصــور ابــن عربــي لبعــض صفــات المهــدي، يتضــح لنــا أن المهــدي هــو الإنســان المنــوط بــه تحقيــق العــدل الكامــل والأبــدي حتــى قيــام الســاعة مــادام ظهــوره مــن علاماتهــا. (لــو لــم يبــق مــن الدنيــا إلا يــوم لطــول اللــه ذلــك اليــوم حتــى يبعــث رجــلاً منــى أو من أهــل بيتي يواطــئ اسمــه اســمي واســم أبيه اسم أبــى، يمــلأ الأرض قســطاً وعــدلاً كمــا ملئــت جــوراً). فهو الــذي يزيــح الجــور والظلم الدنيــوي ليحــل محلــه العــدل الإلهــي ويكــون خروجــه انتصــاراً للمظلومــين مــن عامــة المســلمين لأنــه (يقســم المــال بالســوية ويعــدل في الرعيــة، ويفصــل في القضيــة،

يأتيه الرجل فيقول له : يا مهدى أعطني وبين يديه فيحثى له في ثوبه ما استطاع أن يحمله)[26] ، وبالتالي فان المهدي المنتظر حق وحتم أمر ظهوره حتى وإن تبقى يوم من الزمان لطول الله ذلك اليوم حتى يخرج ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً وعندها سوف يبايعه العارفون بالله والرجال الإلهيون ، فإن هذا عنصر جديد على المستوى العقدي - السياسي في مسار المهدية، وذلك لأن التجارب المهدية السابقة، قد انتهت بنا إلى أن دعوة المهدية هي نصيرة المظلومين والمستضعفين في الأرض ومؤيدوها هم عامة المسلمين [27] .

ولابن عربي كتاب آخر باسم (عنقاءٌ مُغْرِب) الذي تكلم فيه عن ختم الولاية الذي يجعله أسمى مراتب الأولياء، وقد صور ابن عربي المهدي المنتظر في صورة أكبر قطب صوفي كما صور نظامه في صورة دولة مثالية، قوامها الأولياء والصالحون، ووضعه في مرتبة أقرب من مرتبة النبوة الكاملة [28].

ومن المتصوفة الذين تحدثوا عن المهدية أحمد بن إدريس الفاسي، محمد عثمان الميرغني الختم مؤسس الطريقة الختمية، محمد على السنوسي مؤسس الطريقة السنوسية، إبراهيم الرشيد الذي تنسب إليه الطريقة الرشيدية، ومحمد المجذوب مجدد الطريقة المجذوبية، كما تحدث عن المهدي المنتظر ابن قسي في كتابه (خلع النعلين)، وابن سبعين، وابن أبى واصل في شرح النعلين. والشعراني وشهاب الدين الهيتمى[29].

ورغم أن فكرة المهدية في الأصل قد وجدت أرضاً خصبة في الدعوة الشيعية، إلا أنها بمرور الزمن انتشرت بين أهل السنة أيضاً، فهم يرون أن المهدي بمثابة المصلح الديني أو المجدد الذي يعيد للإسلام نقاءه، ويجدد مجده وربطوا ذلك بما رواه أبوهريرة في حديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها) [30]. غير أن فكرة المهدي عند أهل السنة تختلف عن مهدى الشيعة في أمور عدة منها أنه شخص عادى يولد من أبوين معروفين، وينشأ بين الناس ولا يدعى الخوارق والعصمة من الخطأ، وأنه يجاهد بالسيف لإقامة دولة إسلامية تتخذ الشريعة الإسلامية في كل أحكامها، كما أنه يحيي السنة المحمدية، ويخمد البدع

والخرافات وبالتالي يقيم الدين على أصوله المستقرة في أيام الرسول (صلى الله عليه وسلم)[31].

وقد تمكن بعض دعاة المهدية في العالم الإسلامي من إقامة دول وضعوا لها نظاماً للحكم , فقد أسس عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر الصادق الدولة الفاطمية في بلاد المغرب، وذلك في أواسط القرن الرابع الهجري ، وقد تمثل اعتقاد الفاطميين في قرب ظهور رجل مهدى من نسل فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ينشر لواء العدل ويتغلب على دولة بنى العباس، ويستولى على الممالك الإسلامية ويوحدها، وقالوا إن أم سلمة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : المهدي من عترتي من ولد فاطمة[32].

وهناك أيضاً محمد بن عبد الله بن تومرت المعروف بالمهدي مؤسس دولة بنى عبد المؤمن في بلاد المغرب في أوائل القرن السادس الهجري، وتهدف مهديته إلى ضرورة وجود إمام في كل عصر، يهدي بهدى الله وهو المهدي أو الإمام المعصوم من الباطل ليهدم الباطل. ويقول ابن تومرت (إن الباطل لا يعرفه إلا المهدي. وأن الحق لا يقوم به إلا المهدي، وأن المهدي معلوم في العرب والعجم والبدو والحضر...) وأنه هو المهدي الذي سيفتح الدنيا من شرقها وغربها ويملؤها بالعدل كما ملئت بالجور[33].

وفى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من الميلاد ظهرت عدة حركات إصلاحية اقترنت بالدين نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (1703-1793م) ويعرف أصحابها بالموحدين، وتهدف إلى العودة إلى القرآن الكريم والسنة الشريفة ومحاربة البدع والخرافات[34] .

وهناك أيضاً حركة شريعة الله سيد أحمد الباريلى، التي ظهرت على حدود البنجاب ببلاد الهند في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي ضد سلطنة المغول والسيخ والإنجليز [35].

وفى غرب إفريقيا ظهر الشيخ عثمان دان فودي الذي عرف بأنه مصلح ديني ورع ، محارب نجح في قيام دولة إسلامية في حوض نهر النيجر[36] . وقد بشر بقرب ظهور المهدي المنتظر بالشرق[37]، أي إلى الشرق من الخلافة الصكتية

، ولعلـه كان يقصـد بـلاد سـودان وادي النيـل . وتحديـد الـشرق كموضـع لظهـور المهـدي قـد ورد ذلـك نقـلاً عـن الشـيخ عثمـان دان فـودي في ثـلاث وثائـق هـي:-

الوثيقــة الأولى: رسـالة مـن ابنـه أمـير المؤمنـين محمـد بيلـو والـذي عـاش في الفـترة (1817م- 1837م) إلى مودبـو آدم ، أمـير أدمـاوا (شـمال نيجريـا الحاليـة) يحثـه على تأمـين الطريـق المـؤدي إلى الـشرق كمـا يـلي : (... والأمـر الـذي ذهبـت بـه مـن عندنـا وهـو إنفـاذ الجيـوش إلى جنـوب وداي، وجنـوب دار فـور، وإلى ناحيـة بحـر النيـل فاجتهـدوا في ذلـك وأنفـذوا العيـون إلى تلـك البـلاد، فـان شـيخنا رضي اللـه عنـه أشـار لنـا بـأن جماعتـه تنتقـل إلى تلـك النواحـي عنـد قـرب ظهـور المهـدي هنـاك، يتبعونـه ويبايعونـه إن شـاء اللـه) [38] .

أمـا الوثيقـــة الثانيـة: فقـد حـوت رسـالة مـن أمـير المؤمنـين أبـي بكـر عتيـق ابـن الشـيخ عثمـان والـذي عـاش في الفـترة (1832- 1837م) إلى جماعـة فوانـدو عاصمـة القسـم الغربـي للخلافـة الصكتيـة ، يُعلمهـم بوصيـة والـده حـول انتقـال أهـل بـلاد الهوسـا إلى النيـل، كمـا يـلي(... وممـا أخبرنـا الشـيخ وهـو أن جماعـة أهـل الربـاط الذيـن نصبوهـم هـم الذيـن ينتقلـون إلى بحـر النيـل والى بـلاد الحجـاز هـم بعينهـم، أو ذريتهـم وهـم بقيـة أمـراء الشـيخ ، وفيهـا نـوره وبركاتـه، وهـم يجتمعـون بالإمـام المهـدي ويبايعونـه ومعهـم رايـات الشـيخ) ، وقـد حـوت الوثيقـة الثالثـة على رسـالة مـن مريـم بنت الشيـخ عثمـان إلى أمـير كنـو، رداً على خطـاب ورد منه يعـبر فيـه عـن قلقـه لموجـات الهجـرات المتكـررة نحـو الـشرق في الفـترة(1840- 1860م) باسـم المهديـة ففـي هـذه الرسـالة تقـول مريـم : (... وقـد ذكـر الشـيخ الوالـد أنـا نهاجـر مـن أرض هوسـا ولـم يعـين ذلـك الوقـت حتـى أنـه رحمـه اللـه بـين لنـا طريـق الهجـرة فقـال في ذلـك أول الطريـق مـن بقـو Bago إلي مشـكم فـش Moshkum Fush ثـم إلى سـارا Sara ، ثـم إلى سروا Sarua ، ثـم إلي أنـدم Andum ، ثـم إلي الجبـل المسـمى كغـم Kagum ، ثـم إلي الجبـل المسـمى ذوريـات Zuziyat ، ثـم إلى الجبـل المسـمى أبـوزرا Abu – Zara ، ثـم رواح Rawaha ثـم إلى ديقـا Dega ثـم إلي كاجـا Kaja ، ثـم كتولـو Katulu ، ثـم إلي جبـال النوبـة ثـم إلى تغـلا وتقـلى ... وبعـد يومـين تسـير إلى نيـل الأمصـار إلى آخـر مـا قـال رحمـه اللـه) [39]

تجـدر الإشـارة إلى أن مـا أوردنـاه آنفـاً لا ينسـب لمحمـد بيلـو مـن تنبـؤ والـده حـول المهـدي سـوى مـا ورد في خطابـه المذكـور سـابقاً، ولكـن رسـالتي أبـى بكـر العتيـق ومريـم يحتويـان عـلى النـص الكامـل لهـذا التنبـؤ. كمـا نخلـص ممـا تقـدم إلى أن معالـم مـكان ظهـور المهـدي المنتظـر قـد أصبحـت أكثـر وضوحـاً لـدى مجتمـع الخلافـة الصكتيـة مـن وقـت ظهـوره.

وقـد كان لهـذه التنبـؤات أثـر كبـير وانتشـار واسـع في المجتمـع الإسـلامي بغـرب أفريقيـا عامـة وشـمال نيجريـا بصفة خاصـة وبدأت هجرات جماعيـة منـذ القـرن التاسـع عـشر الميـلادي مـن خلافـة صكتـو إلى الحجـاز وسـودان وادي النيـل لمبايعة المهـدي ومناصرتـه فـور ظهـوره، ولعـل خـير دليـل يكشـف لنـا حقيقـة ذلـك المنـاخ المهـدوى الـذي وضحـت معالمـه في المجتمـع الإسـلامي بغـرب أفريقيـا مـا ذكـره- حياتـو بـن سـعيد- حفيـد الشـيخ عثمـان دان فـودي عندمـا خاطـب المهـدي معلنـاً نصرتـه سـنة 1883م فقـد جـاء في رسـالته (... قـد بايعتـك أنـا ووالـدي وجميـع مـا تعلـق بـي مـن قبـل ظهـورك الحـسي، وشـأننا مـع شـأنك معلـوم عندنـا، سـيما قـد أوصانـا جدنـا الشـيخ عثمـان دان فـودي رضي اللـه عنـه ويجازيـه عنـا خـيراً بالهجـرة إليـك ونصرتـك ومعيتـك إذا ظهـرت، ونحـن معـك قلبـاً وقالبـاً في نـصرة الديـن وسـنة رسـوله (صـلى اللـه عليـه وسـلم)[40].

وممـا لاريـب فيـه أن تلـك الهجـرات الجماعيـة لأهـل الغـرب الأفريقـي بإتجـاه الشرق قـد روجـت لفكـرة المهديـة, الأمـر الـذي جعـل الشـعب السـوداني عـلى اسـتعداد لتقبـل دعـوة المهديـة.

ممـا سـبق يتضـح لنـا أن فكـرة المهديـة قـد صـارت عنـد نهايـة القـرن الثالـث عـشر الهجـري (التاسـع عـشر الميـلادي) جـزءاً مهمـاً مـن المعتقـدات الدينيـة السـائدة بـين المسـلمين، وقـد سـمع السـودانيون بفكـرة المهـدي المنتظـر وانتظـروا مجيئـه[41]، وخاصـة عندمـا أخـذ بعـض رجـال الديـن يتحدثـون عنـه في مجالسـهم، فقـد روى عـن الشـيخ القـرشي ود الزيـن آخـر أسـاتذة محمـد المهـدي أنـه بـشر بقـرب ظهـور المهـدي وقـال : (... أديتـه بنتـي وفـرسي وأنـا موعـود أن فـرسي ده يركبـه المهـدي) وذكـر أنـه سـيكون مـن تلاميـذه[42] .

ثانياً: فكرة المهدية في السودان:

إذا أردنـــا التحـــدث عـــن كيفيـــة مجـــيء فكـــرة المهديـــة إلى الســـودان فحـــري بنـــا أن نؤكـــد أن الدعـــوة المهديـــة هـــي امتـــداد طبيعـــي لحـــركات الإصـــلاح الدينـــي التـــي اجتاحـــت العالـــم الإســـلامي في القرنـــين الثامـــن عـــشر والتاســـع عـــشر مـــن الميـــلاد، مثـــل الحركـــة الوهابيـــة في شـــبه الجزيـــرة العربيـــة، والحركـــة السنوســـية بليبيـــا. وقـــد اســـتمدت المهديـــة جذورهـــا التاريخيـــة والروحيـــة بـــل والفكريـــة مـــن الـــتراث الإســـلامي، بالإضافـــة إلى المؤثـــرات السيـــاسية والاجتماعيـــة والاقتصادية التـــي ألمـــت بالمجتمـــع الســـوداني في ذلـــك الوقـــت. وقـــد وفـــدت الأخبـــار التـــي تحمـــل فكـــرة المهـــدي وتتحـــدث عنـــه مـــن مصدريـــن أولهمـــا مصـــدر عـــام وهـــو الإطـــلاع عـــلى المصـــادر الإســـلامية التـــي تحدثـــت عـــن المهـــدي المنتظـــر وانتشـــار الطـــرق الصوفيـــة، والاتصـــال بالمســـلمين في البـــلاد الأخـــرى عـــن طريـــق التجـــارة والحـــج وغيرهـــا مـــن مســـالك الحيـــاة الداعيـــة للاتصـــال. أمـــا المصـــدر الثانـــي فمصـــدر خـــاص وهـــو أثـــر حركـــة الجهـــاد الفولانـــى التـــي قـــام بهـــا الشـــيخ عثمـــان دان فـــودي في بـــلاد الســـودان الغربـــي والتـــي بـــشرت بقـــرب ظهـــور المهـــدي المنتظـــر في المـــشرق وروجـــت لذلـــك بالخطابـــات والمؤلفـــات نذكـــر منهـــا كتـــاب المهـــدي المنتظـــر, وكتـــاب تحذيـــر الأخـــوان مـــن ادعـــاء المهديـــة الموعـــودة آخـــر الزمـــان، وهمـــا مـــن مؤلفـــات الشـــيخ عثمـــان دان فـــودي، وعنـــوان الكتـــاب الثانـــي يـــدل عـــلى أن الكثيريـــن مـــن أتباعـــه كانـــوا يتأهبـــون لادعـــاء المهديـــة وانتشـــارها، ومـــن المؤلفـــات أيضـــاً (القـــول المختـــصر في أمـــر الإمـــام المنتظـــر)، وكتـــاب (تنبيـــه الإفهـــام عـــلى أن المهـــدي هـــو الختـــام) وكلاهمـــا مـــن تأليـــف محمـــد بيلـــو بالإضافـــة إلى كتابه(إنفـــاق الميســـور).ثم هنـــاك كتـــاب (منتخـــب الـــكلام في أمـــر المهـــدي الإمـــام) لخـــضر جبريـــل الفلاتـــى . وهكـــذا وجـــدت فكـــرة المهديـــة رواجـــاً طيبـــاً في الســـودان خـــلال الربـــع الأخـــير مـــن القـــرن التاســـع عـــشر الميـــلادي. وأن الكثيريـــن باتـــوا ينتظـــرون ظهـــور المهـــدي، وكان مـــن الأســـباب الداعيـــة إلى ذلـــك الظلـــم الـــذي حـــاق بالنـــاس وتخبـــط الإدارة التركيـــة المصريـــة في الأخطـــاء، وتوافـــق ذلـــك مـــع قـــرب انتهـــاء القـــرن الثالـــث عـــشر الهجـــري فهيـــأ لفكـــرة إمـــام القـــرن الـــذي قيـــل أنـــه يظهـــر في كل قـــرن هجـــري[43]

مما تقدم يتضح لنا أن معظم ما كُتب عن المهدي المنتظر في بلاد السودان الغربي قد وجد طريقه للسودان الشرقي، وساهم في خلق المناخ الفكري الذي أدى لاندلاع الثورة المهدية في السودان- مما هيأ فيما بعد لمحمد أحمد (مهدى السودان) حسن القبول وعظم الترحيب.

وكان أول من ادعى المهدية في السودان هو حمد النحلان، المشهور بحمد ود الترابي، الذي حج في جماعة كبيرة مع أتباعه، فلما وصل مكة أعلن أنه المهدي المنتظر ويبدو أنه أراد أن يحقق بذلك القول الذي ورد بأن المهدي يظهر في مكة فهجم عليه الناس وضربوه مع أتباعه وحبسوهم ثم أطلقوا سراحهم. وكان ود الترابي قد أرسل حواره ويدعى ميرف إلى سنار للتبليغ بمهديته , فلما جاء بهذا الخبر أمر السلطان بادي أبو دقن بقتله، ولما عاد ود الترابي إلى السودان, كان قد ترك دعوته وعاش بقية حياته على ما كان عليه قبل حجه ومهديته [44]. وهذه الحادثة تبين مدى انتشار فكرة المهدية ورواجها بين الناس في السودان.

وقد أورد محمد المهدي بن عبدالله في أحد منشوراته، أن أستاذه محمد شريف نور الدائم كان يحدثهم في مجالسه عن كرامات المهدي المنتظر و مقامه[45]. أما يوسف ميخائيل فيروى في تاريخ حياته (كيف أن صبيان مدينة الأبيض قد كانوا يجعلون في ألعابهم صفاً لأنصار المهدي وصفاً آخر لأعدائه)[46]. وأيضاً ما رواه الزبير باشا رحمة أن الخليفة عبد الله التعايشى كان قد اتصل به بعد فتحه لدار فور وأبلغه أنه رأى في الحلم أنه المهدي المنتظر وأنه أحد أعوانه فرده عن ذلك[47].

ولم يكن الختمية أقل اهتماماً بفكرة المهدي المنتظر وظهوره، فقد كان السيد محمد عثمان الميرغني (الختم) يشير كثيراً إلى المهدي المنتظر، وهو يضع المهدي بعد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ثم يليه الختم. وبهذا يكون المراغنة قد شاركوا في نشر فكرة المهدية في السودان، وأذاعتها بين الناس، ويذكر فيما بعد أن السيد الحسن الميرغني قد أشار مراراً وتكراراً إلى المهدي وصفاته ومكان ظهوره [48].

أما محمد أحمد بن عبد الله نفسه قبل أن يعلن مهديته - فقد كان يدعو الناس إلى إقامة الدين والعمل بأحكامه، وينصح الحكام ويعظهم، وأنه يترقب ظهور المهدي المنتظر، ويأمل أن يكون من أتباعه، فهو يقول عن ظهور المهدية في أحد منشوراته (... مع أني كنت أستبعد ذلك لنفسي، وانتظر المهدي لأكون له عوناً وخادماً لتأييد السنن النبوية) [49].

ويقول في موضع آخر أنه مأمور (بمكاتبة المسلمين ودعوتهم إلى الهجرة معنا إلى محل يكون فيه قوام الدارين وإصلاح أمر الدارين، ومثلكم لازم أن يبحث على هذا الأمر ويكون من أول المقومين والتابعين ومعاذ الله أن أُكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم) [50].

أسباب قيام الثورة المهدية في السودان:

هنالك عوامل لابد أن تتوفر عند اندلاع ثورة ما ــــــ وفي هذا الصدد يذكر هولت: أنه لابد من انتشار سخط عام بين أفراد المجتمع على الأوضاع المختلفة، مصحوب بضعف من الناحية الإدارية لمعالجة تلك الأوضاع المختلفة، فضلاً عن ذلك لابد من وجود جيش ثوري مستعد تماماً للقيام بالثورة. وهنا يحتاج الأمر إلى شخصية قيادية لها برنامج محدد للقيام بالثورة ، تستفيد تماماً من الحماسة الثورية لدى أفراد المجتمع لإلهاب الثورة، وتضع معالجات للمشاكل الرئيسية وذلك وفق منهج محدد[51]. فهل توافرت تلك العوامل في نهاية الحكم التركي المصري في السودان؟

لقد كشفت إحدى الوثائق التاريخية الموجودة في دار الوثائق القومية بالقاهرة، وهي عبارة عن رسالة إلى الخديوي محمد توفيق بن إسماعيل، يشرح له محمد خالد زقل -عامل دار فور- الأسباب الموضوعية التي أدت إلى قيام الثورة المهدية، ومحاربة الترك إذ يقول محمد خالد زقل:(... وحتى قبل ظهور المهدي فان جهادكم واجب، وذلك لمخالفتكم للشريعة التي استبدلتموها بقوانين هي وفق هوا أنفسكم..... كما أنكم أصبحتم تعظمون وتمجدون الكفار وتشبهتم بهم ونسيتم قول الرسول صلى الله عليه وسلم من تشبه بقوم فهو منهم، ومن أحب قوماً فهو منهم، بل أعليتم شأن هؤلاء الكفار، واتصل ذلك

بالجهات السودانية وأطلقتم العنان للحرية التي تعني في نظركم الخروج على قوانين الشرع، حتى حدث ما لم يكن في الحسبان» فالبنت الحرة البكر تخرج عن طوع أبيها، وتجاهر بالبغي والفساد ولا يستطيع منعها، وصار الرجل يتزوج الرجل مثله، والرقيق يخرج من يد أربابه، ثم بصفة خاصة استحداث الكنائس بمدن المسلمين، ومقارنتها للمساجد التي أمر الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه إلى غير ذلك مما لا يحصى من البدع والمنكرات التي صارفين همتكم وأفكاركم في إجرائها بجبهة حكومتكم ، وصد من يتعرض لمنع ذلك، زاعمين أن هذا من حسن السيرة وسلوك الطريق المعتدل، وقد نشاهد عياناً أن الكافرين الذين أرسلتموهم حكاماً بالسودان يقتنص أحدهم البنت البكر بالسوق، وأهلها ينظرون ويبكون ويخشون ضربه أو قتله، خشية مما يحكمون به عليه فيما بعد، ويرون كظم غيظهم ذلك أريح لهم من مقاساة التعب في المستقبل. وبأسباب ذلك فقد صار الحال كما قال الله تعالى:«ظهر الفساد في البر والبحر»)[52].

مما سبق يتضح لنا أن الثورة المهدية ثورة دينية في المقام الأول قامت من أجل تحرير العقيدة الإسلامية من الشوائب التي علقت بها. خاصة وقد كان حكام السودان في فترة الحكم التركي المصري على جانب كبير من الظلم والجور، ومما زاد في ارتكاب هذه المظالم أن هؤلاء الحكام كانوا يعتبرون السودان بمثابة منفى لهم لهذا يذهب الفرد منهم وهو شاعر بأنه لا ينتظر منه العدل والاستقامة في عمله، وما من شك في أن هذا النوع السيئ من الحكم قد زاد من سخط الأهالي في السودان ضد الحكم التركي المصري، بالإضافة إلى ذلك أن حكام مصر لم يكن معظمهم يتمتع بالعدل بل كانت مظالمهم هي التي أدت إلى اندلاع الثورة العرابية في مصر[53]. وقد اتصف معظم أولئك الحكام بسوء الخلق والسيرة، وأنهم كانوا يتخذون الوظائف وسيلة للرشوة والإثراء عن طريق غير مشروع[54] . فقد ذكر أحد المؤرخين أن المدير حسن سلامة(1275-1278هـ/1859-1862م) مد يده إلى الرشوة[55]، ويذكر أن ممتاز باشا مدير عموم قبلي السودان (1287-1289هـ/1871-1873م) قد أوقف من العمل وسجن في الخرطوم سنة 1873م بتهمة تناوله الرشوة، إلا أنه مات قبل أن

يثبت التحقيق التهمة عليه[56]، كما ذكر أن إبراهيم رشدي كاتب غردون كان يبيع الوظائف الحكومية مثل بيع السلع، وأنه من جراء ذلك جمع ثروة هائلة قدرت بعشرات الألوف من الجنيهات وبنى له داراً[57].

وفي أواخر أيام الحكم التركي-المصري في السودان عمل كثير من الأوربيين بالسودان ودخلوا السلك السياسي أمثال بيكر، وغردون، وسلاطين وغيرهم، وتولوا المناصب المهمة وقد كان هؤلاء الأجانب لم يكونوا صادقي النية بل كانوا يثيرون بأعمالهم روح الحقد والكراهية في نفوس الشعب السوداني. وقد انتهزوا أوامر الحكومة بمنع تجارة الرقيق فحاربوا هذه التجارة بكل عنف وقسوة، ولا شك أن محاربة تجارة الرقيق أمر مقبول لدى المجتمع العالمي، ولكنه غير مقبول لدى أفراد المجتمع السوداني آنذاك، لأن الرق كان متغلغلاً في كيان السودان الاقتصادي والاجتماعي منذ القدم فصار مثل مصدر رزق لمعظم أفراد المجتمع السوداني، ولم يكن هنالك بديل لتجارة الرقيق بالنسبة لهم. ويذكر نعوم شقير (ثم الذي زاد الطين بلّة والطنبور نغمة فكان منه الشر هو تشديد الحكومة في منع النخاسة والاسترقاق، فان النخاسة كما علمت مهنة قديمة في السودان يتعاطاها الجمع الغفير من أهلها، بل من أعظم أهلها نفوذاً. والاسترقاق وبيع الرقيق غير محرمين في شريعة أهل السودان، فهم لا يرون فيها شراً يجب إبطاله، بل يرون الشر كله في إبطالها، خصوصاً لأن خدمة عرب السودان في البيت وخارج البيت كلها منوطة بالرقيق ولم يكن للعرب إلا السيادة والتجارة)[58]. لذلك كان من الأفضل للحكومة أن تتبع سياسة التدرج في محاربة تجارة الرقيق في السودان، إذ كان تجار الرقيق يمثلون في البلاد طبقة نفوذ قوي من الأعيان والتجار ولكن عندما قامت الحكومة التركية - المصرية بمحاربة هذه التجارة، التي كانت تعود عليهم بأموال كثيرة انقلبوا عليها. بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك إذ انضموا إلى الثائرين[59].

وقد تمخض عن تلك الإجراءات التعسفية التي اتخذها كل من بيكر وغردون، وجسى، وغيرهم من الأجانب الأوربيين- إلهاب الشعور الديني، وفي هذا الصدد يقول نعوم شقير:(كان الأهلون يدفعون قسماً من الضرائب عبيداً، فأصبحوا بعد إبطال النخاسة لا يقدرون على أدائها، فاستبد بهم الجباة وساموهم خسفاً

عــلى ذل، وعــد الجهــال مداخلــة بيكــر وغــوردون وجــسي وجيكلــر وغيرهــم مــن النصــارى فى منــع الرقيــق أن النصــارى تتعــرض لدينهــم فعظــم الخطــب وعمــق الشــكوى) [60]

وبهــذا أُعتــبرت تلــك الإجــراءات التعســفية بمثابــة حــرب صليبيــة يشــنها الكفــار عــلى الإســـلام والمسلمين.

احتكــرت الحكومــة تجــارة العــاج الــذي يمثــل أهــم مصــادر الثــروة في الســودان، وكان ذلــك في عهــد إدارة غــردون الأولى(1874-1876م) فاســتأثرت بالأربــاح الطائلــة التــي كانــت تعــود إلى أصحابهــا مــن أهــل التجــارة والحرفــة فنقمــوا مــن الحكومــة هــذا الاحتــكار وســخطوا عليهــا، فــكان هــذا العمــل المنطــوي عــلى الظلــم هــو النــواة الأولى للثــورة المهديــة[61].

وليــس غريبــاً عــلى الحكومــة أن تعلــن سياســة الاحتــكار لتجــارة العــاج ، وذلــك لأن نظــام الحكــم منــذ أن أسســه محمــد عــلى باشــا في الســودان_ كان يقــوم عــلى أســاس أنــه بمثابــة إدارة لتنظيــم اســتغلال مــوارد البــلاد المختلفــة ولا ننــسى أن الحصــول عــلى الرقيــق والذهــب كان مــن العوامــل التــي حفــزت محمــد عــلى باشــا لغــزو الســودان في ســنة1820م، ولهــذا أصبــح الاســتغلال هــو الهــدف الرئيــس للحكــم التركــي المــصري طــوال عهــده بالســودان . لقــد تجاهــل الموظفــون الأوربيــون المســيحيون الذيــن تولــوا أعــلى المناصــب الإداريــة والعســكرية في الســودان خــلال فترة الحكــم التركــي المــصري قــد تجاهلــوا المشــاعر الدينيــة للســودانيين، فقــد أُخُــذ عــلى غــردون أنــه كان يتهــاون في احــترام المشــاعر الدينيــة بالاســتهتار نحــو تقاليدهــم وقيمهــم الأخلاقيــة عندمــا أبــاح للعاهــرات ممارســة الرذيلــة بالقــرب مــن أماكــن العبــادة بــل ومنــح بعضهــن رخصــاً لإقامــة أماكــن لصناعــة وبيــع الخمــور البلديــة ولــم يعــط شــكاوى العلمــاء والمشــايخ أيــة اعتبــار. فعندمــا تقــدم لــه الشــيخ عــلى عبــد اللــه شــيخ الســجادة القادريــة بالخرطــوم بعريضــة اشــتكى فيهــا مــن وجــود عاهــرات بالقــرب مــن إحــدى زوايــا العبــادة يقلقــن راحــة العبــاد بمــا يحدثنــه مــن الجلبــة والرقــص والنقــر عــلى الدفــوف ســفه غــردون أراءه وأفعالــه بدعــوى الدنيــا حريــة[62]. وقــد اســتبد هــؤلاء الأجــانب بالســـلطة فحطمــوا كل شيء حتــى القانــون

(فقد قبض جسي الإيطالي على سليمان بن الزبير لمجرد اشتباهه في أنه يفكر في الثورة وعرض عليه إما الاستسلام للحكومة أو الحرب، حتى إذا قبل الأمر الأول قبض عليه في اليوم الثاني غدراً وسيق إلى خارج منزله وضرب بالرصاص دون محاكمة، فكان ذلك داعياً لان يعتقد الناس أنها حرب يشنها الكفار على المسلمين لإفنائهم)[63]. لهذا كان سخط المواطنين شديداً على الحكم التركي-المصري الذي كان هو السبب في جلب الأجانب إلى السودان.

ومن أسباب الثورة المهدية في السودان نظام الضرائب الذي كان يمثل عبئاً ثقيلاً بالنسبة للأهالي وذلك لأنها لم تكن موزعة بالقسط ، بل كانت ثقيلة على الفقراء بينما كانت خفيفة على الأغنياء، وقد استعمل في جمعها أقسى أنواع العذاب حتى أن الرجل كان يبيع متاعه وكل شيء ليدفع الضريبة الباهظة (... فإن عجز يطرح أرضاً على وجهه وتدق أربعة أوتاد وتربط كل يد من يديه،وكل رجل من رجليه إلى وتد منها ويقف الجلاد يجلده بالسياط حتى يرمى جسده، أو يلقى مكتوفاً في قيظ الهاجرة، لظى الشمس المتوقدة يلهب جسده ، أو أنهم يضعون في سراويله هراً بعد أن تغل يداه، ويترك الهر داخل سراويله، وأن المرأة كانت تحبس إذا تأخر زوجها، أو وليها عن وفاء الأموال الأميرية وتبقى في السجن إلى أن يدفع ما عليه فيضطر للدفع مهما كلفه ذلك)[64].وإلى جانب ذلك هنالك وسائل أخرى للتعذيب في انتظار العاجزين عن دفع ما هو مقرر عليهم كالرفع على الخازوق وتسمير الأذن على الخشب[65].

وكان الأنكى من ذلك الإضافات الضريبية التي يفرضها المآمير، يذكر نعوم شقير في ذلك(وشر من ذلك كله مما لم يكن له مثيل في غير السودان أن هؤلاء المأمورين لم يكتفوا بالضرائب الرسمية بل كانوا يفرضون على الأهليين فروضاً غير رسمية يحصلونها مع الضرائب وذلك أن أكثر الولاة الذين حكموا السودان كانوا يأتونه من مصر على غير إرادتهم لبعد السودان عن بلادهم وكثرة حره ومشاقه، فكانوا لا يهتمون في الغالب إلا بالانتفاع من وظائفهم، فيفرضون على المديرين أموالاً باسم الهدايا، فيضطر المديرون إلي استرجاعها من مأموري المراكز الذين تحتهم، أومن الباشبوزق الموكلين بجمع الضرائب وهؤلاء يفرضونها على الأهالي أضعافاً لأجل وفاء ما فرض عليهم

وحفظ شـيءلأنفسهـم، وكانـوا يشددون علـى الأهليين فـي تحصيل هذا الفرض تشـديدهم عـلى تحصيـل الضرائـب، وهـم آمنـون مـن القصـاص للتواطـؤ المشـار إليـه مـع الـولاة والمديريـن. ولذلـك اشـتد نفـور الأهـالي مـن الحـكام وتمكـن الحقـد والوجـد في قلوبهـم، وصـاروا يتمنـون زوال هـذه الحكومـة التـي سـلطت عليهـم مـن لـم يرحمهـم، واسـتبدالها بأيـة حكومـة كانـت)[66].

ومـن هنـا يتضـح لنـا أن الضرائـب كانـت مصـدر بـؤس وشـقاء بالنسـبة للأهـالي الذيـن لـم يكـن في مقدورهـم سـدادها، وذلـك لسـوء حالتهـم الاقتصاديـة ممـا أدى إلى تفـشى ظاهـرة الهـروب مـن القـرى بسـبب تلـك الضرائـب.

كمـا أورد أيضـاً نعوم شـقير قـولاً لأحد السـودانيين جـاء فيه (ومـن الأمور التي سـاءت الأهـالي وزادتهـم حقـداً عـلى الحكومة تميـز الشـايقية الذيـن جندتهم عسـاكر وجوالات وأعفتهـم مـن الضرائـب في حـين أنهـا ثقلـت بها عـلى سـائر الأهـالي مـع أن الجميع من مقـام واحـد وما من قبيلـة معروفة في السـودان تعترف بامتياز الشـايقية عليهـا... ومما سـاء الأهـالي أيضـاً وعـلى الخصوص رؤسـاء الطرق فقـد تم تمييـز الميرغنية على سـائر الطـرق في السـودان حتـى كثـر أتباعهم وعظـم جاههـم وهـذا وأن لم يكـن صريحاً من أصـل الحكومـة بمـصر فهو مسـبب عنها فـإن الحـكام وأهل النفـوذ من رؤسـاء الأقلام ليسـوا مـن أهل السـودان وعاداتهـم في المأكل والمـشرب والملبـس والمعامـلات تختلف عن عـادات أهل السـودان فمالـوا إلى مخالطـة الميرغنيـة للمشـاكلة أولاً: ولانتسـاب الميرغنية إلى مكـة المشرفـة، ثانياً: وبسـبب ذلك مـال إليهم عسـاكر الشـايقية عمومـاً لتقربهم من رجـال الحكومـة، ودخلـوا في سـلكهم حتـى صـار كل سر سـواري يهـدى إليهـم مُرتبه ومرتبـات رجالـه شـهراً في كل سـنة ، فـازدادت بذلك صولـة خلفاء الميرغنيـة، وصاروا يتطاولون على رؤسـاء الطرق الأخـرى بالشـتم والإهانة فحقدوا عليهـم وعلى الحكومة التـي كانت سـبباً في تعظيم شـأنهم[67].

ممـا تقـدم يبـدو لنـا أن التسـلط الإداري كان لـه انعـكاس عـلى الحيـاة الاجتماعيـة فقـد حدثـت بعـض التغيـيرات لبعـض الجماعـات الاجتماعيـة، والطوائـف الدينيـة الموالـية للحكومـة حيـث كانـت لهـا امتيـازات محـددة مثـل الإعفـاء مـن الضرائـب، فتلـك المحابـاة التـي اتبعهـا الحكـم التركـي المـصري مـع قبيلـة الشـايقية، وطائفـة

الميرغنية (الختمية) تؤكد لنا أن هذا الحكم لا يستطيع أن يعيش إلا في جو الفتن، وفى بلاد مشحونة بالبغضاء والكراهية حتى يتمكن من ممارسة لعبته ألا وهى استغلال موارد البلاد المختلفة.

ويروي الأستاذ/على محمد بركات أن فساد نظام الحكم القائم في شطري وادي النيل(مصر والسودان) آنذاك وخضوعه التام للأجنبي، وهذا ما كان يعانى منه شعبا وادي النيل على السواء ، والذي يعتبر من أهم البواعث التي حرت الثورة في الشمال والجنوب , كما يرى أيضاً من بين أسباب قيام الثورة المهدية في السودان وجود إحساس عام في أجزاء كثيرة من العالم الإسلامي من بينها السودان بضرورة تنقية الإسلام من الشوائب التي علقت به حتى يتمكن العالم الإسلامي من مواجهة الزحف الاستعماري المسيحي والأفكار الغربية الوافدة ، هذا الإحساس أخذ يتبلور في شكل حركات ثورية تطالب بعودة الإسلام إلى نقائه الأول ، وقد تمثلت هذه الحركات في الحركة الوهابية ببلاد الحجاز، والحركة القاديانية في الهند، ثم الثورة المهدية في السودان[68].

ويذكر الدكتور جلال يحيى أن السودانيين كانوا متمسكين بتعاليم دينهم الإسلامي ولهذا لم يعترفوا بغير المسلم بأي حق في ولاية أمورهم، فكيف يكون الحال إذا كان هذا الحاكم مسيحياً أجنبياً، يعتمد على سلاح القوة كوسيلة للتخاطب، بل يصدر الأوامر والتعليمات المتناقضة فلاشك أن هذه السياسة تؤدى إلى انتشار الفوضى والإضطرابات في البلاد[69].

وفى الواقع كان الباعث الديني عاملاً أساسياً لقيام الثورة المهدية، لأن السخط وحده لا يكفي لقيام ثورة ضد الحكم التركي المصري. فقد كان الناس يفتقدون القيادة الرشيدة التي تنظم هذا السخط في شكل عمل إيجابي، وهذه القيادة قد توفرت في شخصية محمد أحمد بن عبد الله (المهدي) الذي كان زعيماً دينياً ظهر لكي يطهر العالم الإسلامي من أخطائه ويقضى على سيطرة الكفار، فلم تكن ثورة المهدية مجرد تمرد مدني، بل كانت جهاداً من أجل إعادة مجد الإسلام الأول، ولهذا طلب من المسلمين مناصرته، وكان هذا في وقت فيه كان وجدان المجتمع السوداني المسلم مهيئاً لقبول فكرة المهدية التي سوف تملأ الأرض، عدلاً بعد أن ملئت جوراً[70] .

نشأة محمد أحمد المهدي وثقافته:

كانت حياة محمد أحمد بن عبد الله (المهدي) رغم قصرها. لم تتجاوز نصف قرن- لكنها ثرية بالأحداث المتنوعة المؤثرة، فقد عاش الرجل حياته بعمق وكانت سعة الرقعة الجغرافية التي تحرك فيها عاملاً مهماً في إخصاب حياته الشخصية.

فالمهدي هو محمد أحمد بن عبد الله بن فحل بن عبد الولي بن عبد الله بن محمد حاج شرفي بن على بن أحمد بن على بن حسب النبي بن صبر بن عبد الكريم بن حسين بن عون الله ابن نجم الدين بن عثمان بن موسى بن أحمد بن العباس بن يونس بن عثمان بن يعقوب بن عبد القادر بن الحسن السبط بن الإمام على كرم الله وجهه بن أبى طالب. هذا نسبه من جهة أبيه. أما نسبه من جهة أمه فهو ابن زينب بنت نصر بن سراج بن شغلاوى بن عبد السلام ابن جميل بن عدلان بن أحمد بن طه بن عدلان بن عرفان بن ضواب بن غانم بن حميدان ابن صبح بن مرخه بن مسمار بن سرار بن كردم بن أبى إدريس ابن قضاعة بن مسروق بن حرقان بن أحمد اليماني بن إبراهيم بن جعل بن إدريس بن قيس ابن يمن الخزرجى بن عدن بن قصاص بن كرب بن هاطل بن ذي الكلاع الحميرى بن سعد الأنصاري بن الفضل بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم [71].

وقد هاجرت أسرة محمد أحمد بن عبد الله من شبه الجزيرة العربية - فيمن هاجر من العلويين- فراراً من مظالم الحكم الأموي، وقد اتخذت هذه الأسرة وادي النيل مهاجراً لها فمكثت في الفسطاط فترة من الزمن، ومنها اتجهت الأسرة جنوباً حتى انتهى بها المطاف إلى إقليم دنقلا بشمال السودان [72].

ولد محمد أحمد بن عبد الله في جزيرة لبب شمال السودان. وقد اضطربت الروايات في تاريخ ميلاده، والأرجح بعد المقارنة بين تلك الروايات أنه ولد في السابع والعشرين من رجب سنة1260هـ، الثاني عشر من أغسطس سنة 1844م[73]

ويبدو من الأخبار القليلة التي وردت عن أسرته أنها كانت أسرة من أواسط القوم غير بارزة الثروة والجاه، حيث كان والده يعمل بالتجارة في صناعة المراكب والسواقي حول موطن إقامته بجزيرة لبب [74]. وقد هاجرت هذه

الأسرة بعد مولد محمد أحمد ابن عبد الله بقليل من موطنها الأصلي إلى كرري شمال مدينة أم درمان، على الضفة الغربية للنيل[75].

لم ينعم محمد أحمد بن عبد الله بأبويه كثيراً، إذ مات أبوه في كرري، وفقد أمه في الخرطوم [76]. ولا يفوتنا أن نلاحظ هنا وجه الشبه بينه وبين الرسول (صلى الله عليه وسلم) في اسمه وفى اسم أبيه، وأيضاً في اليتم الذي لفهما بردائه في كفالة الغير لهما فقد كفل الرسول (صلى الله عليه وسلم) جده عبد المطلب، ثم عمه أبو طالب. أما محمد أحمد بن عبد الله فقد كفله أخوه الأكبر محمد.

كان محمد أحمد بن عبد الله ميالاً منذ طفولته لحياة التدين والزهد، فتعلم القراءة والكتابة والقرآن في خلاوى الخرطوم، ثم درس العلوم الفقهية على يد الشيخ الأمين الصويلح فى مسجد ود عيسى بقرية كترانج جنوب الخرطوم، على الضفة الشرقية للنيل الأزرق [77]. ثم تتلمذ على الشيخ محمد الضكير عبد الله خوجلى الذي عرف فيما بعد بالشيخ محمد الخير[78].

ولقد تأثر محمد أحمد بن عبد الله دون أقرانه بأنوار التصوف فأقبل عليها وأنه ليروض نفسه حتى يكبح جماحها ويقهرها على الصعب من الأمور حتى يلين مراسها ويتغلب عليها ولن يستطيع ذلك إلا إذا قنت وصرف نفسه عن أغراض الدنيا [79] . فعكف على دراسة ما كتبه بعض العلماء المتصوفة أمثال الغزالي، صاحب كتاب إحياء علوم الدين، والشعراني مؤلف كتاب ''كشف الغمة عن جميع الأمة '' وابن عربي صاحب كتابي « الفتوحات المكية وعنقاء» مغرب ونور الدين الحلبي مؤلف السيرة الحلبية وغيرهم من علماء الإسلام ، حيث كان الجو العام في القرى والأرياف وفى ضرائح الأولياء والصالحين، وأيضاً في الخلاوى والمساجد مليئاً بمثل هذه الثقافة الدينية التي تنزع إلى التصوف والاعتقاد في الكرامات والحضرات النبوية والرؤى الصادقة ودرجات الأولياء بالإضافة إلى ذلك ترقب ظهور المهدي المنتظر خاصة بعد تفشى البدع والخرافات [80]

وبعد أن أتم محمد أحمد بن عبد الله دراسته على يد شيخه محمد الضكير أقبل على التصوف، فجاء إلى مسيد أم مرح شمال أم درمان وانخرط في الطريقة

السمانية على يد الشيخ محمد شريف نور الدائم، حفيد الشيخ أحمد الطيب البشير مؤسس الطريقة السمانية فى السودان، وأدخله في الطريق سنة (1277هـ-1861م)، وسار محمد أحمد بن عبد الله على المنوال الذي كان يسير عليه من زهد وتقوى وولاء خالص لشيخه، وقد احتل مع مرور الزمن مكانة مرموقة في نفس شيخه فأعجب به ونصبه شيخاً وأعطاه راية وأذن له أن يدخل الناس في طريقته [81]. وهذه شهادة منه لهذا التلميذ الصالح:-

لقد جاءني في عام (زع) لموضع ❃❃❃ على جبل السلطان في شاطئ البحر
يروم الصراط المستقيم على يدي ❃❃❃ فبايعته عهداً على النهى والأمر
فقام على نهج الهداية مخلصاً ❃❃❃ وقد لازم الأذكار في السر والجهر
أقام لدينا خادماً كل خدمة ❃❃❃ تعز على أهل التواضع في السر
كطحن وعوس واحتطاب وغيره ❃❃❃ ويعطى عطا من لا يخاف من الفقر
وكم صام كم صلى وكم قام كم تلا ❃❃❃ من الله مازالت مدامعه تجرى
وكم بوضوء الليل كبر للضحى ❃❃❃ وكم ختم القرآن في سنة الفجر
لذاك سقى في منهل القوم شربه ❃❃❃ بها كان محبوباً لدى الناس في البر
وكان لدينا عيشه صدقاتنا ❃❃❃ وخادمنا عشرين عاماً من العمر[82]

ولا شك أن ذلك الإذن قد ساعد محمد أحمد بن عبد الله في التعرف على قدراته في الإقناع والمخاطبة بل والتعرف على حال الناس، كما هيأ له فيما بعد للقيام بحركة الثورة المهدية.

وكان محمد أحمد بن عبد الله وإخوانه قد انتقلوا إلى الجزيرة أبا في سنة (1286هـ-1871م) وكان من أولى الخطوات أن أنشأ فيها خلوة لتدريس القرآن الكريم, وقد تخرج على يديه في هذه الخلوة علماء كان لهم فيما بعد دورهم الفعال في الحركة المهدية. وقد تجمعت حول الخلوة والمسجد الملحق بها شهرته فقصده الناس، وأعطته القبائل حول الجزيرة أبا ولاءها الخالص نذكر منها قبائل كنانة ودغيم. وقد انتقل الشيخ محمد شريف نور الدائم في السنة التالية إلى العراديب القريبة من الجزيرة أبا بناء على طلب تلميذه، وكان

مـن أثـر اجتماعهمـا فى هـذه المنطقـة أن اشـتد نفـوذ طائفـة السـمانية فى منطقـة النيـل الأبيـض، وبالأخـص نفـوذ محمـد أحمـد بـن عبـد اللـه الـذى فـاق نفـوذ شـيخه وبلغـت شـهرته شـأواً عظيمـاً، لا لكونـه داعيـة للإسـلام والطريقـة السـمانية فحسـب، وإنمـا لاعتقـاد النـاس فيـه هـو شـخصياً، ممـا كان سـبباً في فـض العلاقات الحميمـة التـى ربطـت بـين الشـيخ وتلميـذه، فقـد وقـع بينهمـا خـلاف عميـق في سـنة (1295هــ -1878م)، ثـم تطـور الخـلاف إلى عـداء شـديد وطـرد محمـد أحمد بـن عبـد اللـه مـن الطريقـة السـمانية التـى يتزعمهـا الشـيخ محمـد شريـف نـور الدائـم[83] .

واصـل محمـد أحمـد بن عبـد اللـه سـلك الطريقـة السـمانية بعد طـرده، حيـث انضم إلى رافـد الطريقـة السـمانية الثانى الشـيخ القـرشى ود الزين، وأخـذ عليه العهـد فخلَفه شـيخاً مـن شـيوخ الطريقـة السـمانية، ويـروى أن الشـيخ محمـد شريـف نـور الدائم نفسـه قـد طلـب من الشـيخ القـرشى ود الزين عـدم قبـول محمد أحمـد بن عبـد الله في الطريقـة السـمانية بعـد طرده هو لـه، فرد الشـيخ القـرشى ود الزين قائـلاً: (أنى رأيت محمـد أحمد مسـتحقاً ومنع المسـتحق ظلـم)[84] .

وهـذه المحاولـة تؤكـد لنـا أن الشـيخ محمـد شريـف نـور الدائـم يعلـم تمامـاً بأنـه ليـس الزعيـم السـمانى الوحيـد فى البـلاد بدليـل أن محمـد أحمـد بـن عبـد اللـه قـد انضـم بعـد طـرده إلى الشـيخ القـرشى ود الزيـن الـذى أكـرم وفادتـه، وجعلـه شـيخاً مـن شـيوخ الطريقـة السـمانية كمـا كان . وهكـذا يبـدو أنـه بـدأ يشـعر بأهميته في نظـر نفسـه ، كمـا بـدأ يشـعر بحـب النـاس لـه والتفافهـم حولـه .

يـروى أن الشـيخ القـرشى ود الزيـن هـو صاحـب فكـرة المهديـة، وأنـه هيـأ ذهـن محمـد أحمـد بـن عبـد اللـه لهـا، فقـد ذكـر قبـل وفاتـه بقليـل: أن ظهـور المهـدي المنتظـر قـد حـان وأن الـذي يشـيد عـلى ضريحـي قبـة ويختـن أولادي هـو المهـدي المنتظـر، فلمـا سـمع محمـد أحمـد ابـن عبـد اللـه بوفاتـه وفـد إلى(الحلاويـين) بتلاميـذه، وشرعـوا يبنـون قبـة فـوق قـبره وختـن أنجـال الشـيخ القـرشى ود الزيـن وأخـذ العهـود مـن المريديـن [85] وفى أثنـاء ذلـك أتـاه رجـل مـن بـلاد الغـرب قـال لـه:(يـا سـيدي أنـا عبـد اللـه بـن محمـد ودتورشـين ، مـن قبيلـة التعايشـة وقـد

سـمعت بصلاحـك في بـلاد الغـرب، فجئـت لآخـذ الطريقـة عنـك، وكان لي أب صالـح مـن أهـل الكشـف، وقـد قـال لي قبـل وفاتـه: إنـك سـتقابل المهـدي، وتكـون وزيـره وقـد أخبرنـي بعلامـات المهـدي وصفاتـه، فلمـا وقـع نظـري عليـك رأيـت فيـك العلامـات التـي أخبرنـي بهـا والـدي بعينهـا ، فابتهـج قلبـي برؤيـة مهـدى اللـه وخليفـة رسـوله)[86].

ومـا أسرع النفـس البشريـة إلى التشـبث بأمثـال هـذه الآمـال في أوقـات الأزمـات فمحمـد أحمـد بـن عبـد اللـه كان رجـلاً صالحـاً ومصلحـاً، وعبـد اللـه بـن محمـد ودتـور شـين رجـل تنفيـذ وضبـط وربـط ، فاكتمـلا فى صـورة التوافـق[87].

ورجـع محمـد أحمـد بـن عبـد اللـه إلى الجزيـرة أبـا بعـد تشـييده لقبـه شـيخه ومعـه عبداللـه ابـن محمـد ود تورشـين الـذى ظـل ملازمـاً لمحمـد أحمـد بـن عبـد اللـه فكسـب ثقتـه وجعلـه سـاعده الأيمـن وموضـع سره[88]. ونعـزى ذلـك لأنـه هـو الـذي حـث محمـد أحمـد بـن عبـد اللـه عـلى فكـرة المهديـة وأدخـل في روعـه أنـه المهـدي المنتظـر, مستنديـن إلى مـاضي عبـد اللـه بـن محمـد ود تورشـين وخلفيتـه العائليـة وبحثـه الـدؤوب عـن المهـدي المنتظـر. كمـا نلاحـظ أن محمد أحمـد بن عبد اللـه لـم يجاهـر بدعوتـه إلا بعـد لقـاء عبـد اللـه بـن محمـد ود تورشـين وأنـه ذكـر (أن المهديـة سـتأتيه في عـام 1300هجريـة عندمـا يبلـغ عمـره الأربعين سنـة لأن كـل الأعمـال العظيمـة تأتـى بعـد تمـام الأربعـين ولكن مجيئـه قدمها سـنتين ولو تأخـر عـشر سـنوات لتأخـرت عـشر سـنوات) [89]. وهنـا يبـدو أن هـذا اللقـاء يمثـل عنـصراً مهمـاً في إعـلان الدعـوة المهديـة.

وفى الجزيـرة أبـا واصـل محمـد أحمـد بـن عبـد اللـه نسـكه وعبادتـه، ووضحـت دعوتـه في بسـاطة التمسـك بالقـرآن الكريـم والسـنة الشريفـة والزهـد فى الحيـاة، والعمـل مـن أجـل الآخـرة والإيمـان باللـه والجهـاد في سـبيله. وفى منتصـف سـنة (1297هـ - 1880م) بـدأ محمـد أحمـد ابـن عبـد اللـه يعمـل لبنـاء مجتمـع إسـلامي جديـد عـلى غـرار المجتمـع الـذي أقامـه الرسـول (صـلى اللـه عليـه وسـلم) وصحابتـه، عـلى أن يبـذل جهـده فى أول الأمـر في بنـاء نـواة لـه في منطقـة نائيـة عـن العاصمـة (الخرطـوم). وفى هـذا الوقـت قـام محمـد أحمـد بـن عبـد اللـه بالعديـد

مـن الزيـارات لأجـزاء متفرقـة مـن البـلاد متفقـداً لأحوالهـا وداعيـاً للإصـلاح الدينـي فيهـا، فطـاف جميـع البـلاد مـن دنقـلا الى سـنار ومـن النيـل الأزرق إلى كردفـان، فعـاش بأحاسيسـه ومشـاعره يسـتمع إلى المظالـم والمفاسـد، التـي كان يحكيهـا النـاس، ورأى كراهيتهـم للحكـم التركـي المـصري، وكان كثـير منهـم يتمنـى ظهـور المهـدي المنتظـر لينقذهـم ممـا هـم فيـه، وكانـوا كلمـا رأوا رجـلاً يفضلهـم عقـلاً ودرايـة ولـه الغـيرة عـلى الديـن ظنـوه المهـدي المنتظـر[90].

وهكـذا اسـتطاع محمـد أحمـد بـن عبـد اللـه أن يهيـئ الأذهـان لتقبـل المهديـة عنـد إعلانهـا، وكان النـاس كمـا ذكرنـا آنفـاً عـلى اسـتعداد لتصديـق هـذا الأمـر وأتباعـه لكثـرة مـا أصابهـم مـن ظلـم ومـا لحقهـم مـن أذى، ولأنهـم كانـوا قـد بلغـوا نهايـة القـرن وقـد شـاع أن القـرن الهجـري لا ينتهـي قبـل أن يأتيهـم المنقـذ الموعـود [91].

وذكـر محمـد أحمـد بـن عبـد اللـه أنـه بعـد إتمـام قبـة شـيخه القـرشى ود الزيـن فى سـنة(1297هـ -1880م) حصلـت لـه حـضرة نبويـة بلغـه فيهـا رسـول اللـه (صلى اللـه عليـه وسـلم) أنـه المهـدي المنتظـر، وقـرر لـه (صـلى اللـه عليـه وسـلم) أنـه مـن شـك في مهديتـه فقـد كفـر باللـه ورسـوله، كمـا تقـرر ضمـن هـذه الحـضرة النبويـة أن محمـد أحمـد بـن عبد الله عنـد لحظـة ولادته عرفـه أهـل الباطـن كمهـدى منتظـر, فلمـا أتـم أربعـين يومـاً عرفتـه النباتـات والجمـادات. بالاضافة إلى ذلـك تقـرر فى الحـضرة أن تجتمـع مبـادئ الطـرق الصوفيـة وهـى الـذل، والانكسـار، وقلـة الطعـام وقلـة الـشرب، والصـبر، وزيـارة السـادات مـع مبـادىء المهديـة وهـى الحـرب، والحـزم والعـزم، والتـوكل، والاعتمـاد عـلى اللـه وإتقـان القـول للمهـدى وحـده، ولا لأحـد مـن قبلـه وبهـذا تكـون المهديـة قـد جبـت مـا قبلهـا فأصبحـت أعـلى مـن الطـرق الصوفيـة وأوسـع منهـا. وأمـر الرسـول (صـلى اللـه عليـه وسـلم) عزرائيـل ملـك المـوت ليكـون مـع المهـدي لايفارقـه[92] وقـد كتـب محمـد أحمـد بـن عبـد اللـه (المهـدى) الى كثـير مـن معارفـه وإلى مـن يثـق فيـه مبـشراً بمهديتـه التـى مـن أبـرز علاماتهـا الخـال عـلى خـده الأيمـن، كمـا أن الرسـول (صـلى اللـه عليـه وسـلم) قـد أعلمه(أنـك مخلـوق مـن نـور عنـان قلبـي). ومـن حيـث النسـب فقـد أكد أنـه مـن آل بيـت النبـى: حسنى/حسـيني مـن جهـة الأب وعبـاسي مـن جهـة أمـه[93]

لجـأ محمـد أحمـد بـن عبـد اللـه الى تغيـير اسـمه هـو نفسـه فبعـد أن كان اسـمه محمـد أحمـد بـن عبداللـه ذكـر لأصحابـه أنـه حصلـت أوامـر مـن الرسـول (صـلى اللـه عليـه وسـلم) بتغيـير اسـمه الى محمـد المهـدي (... فإنـه صـلى اللـه عليـه وسـلم قـال فى حضرتـه إنـي كنـت أسـمى محمـداً فلمـا بلغـت الرسـالة والنبـوة سـميت رسـول اللـه ونبـي اللـه فكذلـك أنـت كنـت تسـمى محمـد أحمـد فلمـا وصلـت لـك المهديـة يقـال لـك محمـد المهـدي)[94].

وبنـاء عـلى الأسـس الـواردة في الحضرة النبويـة أعلن أنـه المهـدي المنتظر الذى سـيملأ الآرض قسـطاً وعـدلاً كمـا ملئت ظلمـاً، كان ذلك في منتصف سـنة (1298هــ-1881م) حـين بادر بإرسـال عدة رسـائل لزعمـاء القبائل، ومشـايخ الطـرق الصوفيـة والفقهاء، دعاهـم فيهـا لنـصرة الدين ومبايعتـه، في وقـت كان النـاس يتوقعون فيه ظهـور المهدي المنتظـر. وكانـت أول قبائل غرب السـودان مبايعة له دغيـم، كنانة، الحسـنات، العمارنة، الدويـح والفلاتـة، ثـم تتابعت من بعـد ذلك الوفـود عليه من جهات شـتى وقبائل شـتى اسـتجابة لنداء المهدية [95].

كمـا أنـه خاطـب السـيد محمـد عثمـان بـن محمـد الحسـن الميرغنـي قائـلاً لـه:(... فـإذا بلغـك جوابـي هـذا فإمـا أن تهاجـر إلي أنـت ومـن بلغـك مـن الأصحـاب المحبين مـن غـير نظـر إلى علاقـة، وإمـا أن تحـاصروا الـترك الذيـن في جهتكـم وتجاهـدوا مـن اغـتر بزينـة الدنيـا ولا رضـا لنـا عنكـم إلا بهذيـن الأمريـن...)[96].

وقـد بعـث محمـد المهـدي بـن عبداللـه برسـائل إلى رؤسـاء الحكومـات المصريـة والإنجليزيـة، والحجازيـة والحبشـية[97]. كمـا خاطـب أهـالي مراكـش، وفـاس، ومـالى وشـنقيط بموريتانيـا[98]. وخاطـب أيضـاً سـلطان وداى ومحمـد السـنوسى وحياتـو ابـن سـعيد[99]. ولـم تجـد تلـك الاتصـالات اجابـةً إلا مـن خلافـة صكتـو حيـث وجـد محمـد أحمـد بـن عبداللـه تأييـداً عظيمـاً مـن الشـيخ حياتـو بـن سـعيد حفيـد السـلطان محمـد بيلـو بـن الشـيخ عثمـان دان فـودى الـذى رحـب برسـالة محمـد المهـدي بـن عبداللـه، وأعلـن نصرتـه وبـين عزمـه عـلى الهجـرة إلى السـودان ملتزمـاً بمـا بـشر بـه جـده الشـيخ عثمـان دان فـودى مـن تأييـد المهـدي المنتظـر عنـد ظهـوره[100] .

وقــد لقيــت دعــوة محمــد المهــدي بــن عبداللــه قبــولاً كبــيراً، كان دون شــك لحالــة البــلاد السياســية والاجتماعيــة، والاقتصاديــة وأيضــاً الثقافيــة - يــد كــبرى فيــه فقلــوب أفــراد المجتمــع الســوداني منفتحــة ومهيــأة وقــد عمهــم الفقــر والظلــم والفســاد، لهــذا أقبــل عليــه الزعمــاء وشــيوخ القبائــل مبايعــين قائلــين (نبايعــك عــلى المهديــة وإن لــم تكــن مهديــاً نبايعــك عــلى قتــال الحكومــة وخلــع طاعتهــا)[101]. لقــد صــدق النــاس خاصتهــم وعامتهــم دعــوة محمــد أحمــد بــن عبــد اللــه المهــدي وهــم لا يشــكون أن مــن مــات في ســبيله فنصيبــه الجنــة حتــى صــاروا يتمنــون المــوت عنــد رؤيــة القتــال الجنــة جــات أى أنهــا أصبحــت قريبــة تحــت المدفــع، لأنــه المهــدي المنتظــر الــذي ســيملأ الأرض عــدلاً بعــد أن ملئــت ظلمــاً[102].

ولقــد توافــرت لمحمــد المهــدي صفــات متميــزة، بــرز بعضهــا في صبــاه. والبعــض الآخــر بعــد إعــلان المهديــة فقــد كان ذا مظهــر أخــاذ، طويــل القامــة عريــض الكتفــين ضخــم الــرأس[103]، ذا وجــه مســنون، ســيطرت عليــه عينــان واســعتان ودعجــاوان مغناطيســيتا الجاذبيــة ، ملابســه دائمــاً ناصعــة البيــاض، مطهــرة بالمســك، وحديثــه خــلاب تزيــده ســحراً ابتســامة دائمــة تكشــف عــن أســنانه اللامعــة، وفلجتــه المشــهورة يدعمــه منطــق وذكاء خــارق، ولا شــك أن الرجــل كان صاحــب أذكــى عقليــة وأصفــى رؤيــا لا ينازعــه في هــذه المواهــب أحــد عــلى طــول وعــرض المليــون ميــل مربــع[104] (وكان أوســع النــاس صــدراً، وألينهــم خلقــاً وأكرمهــم عــشرة. ولا يجــزى الســيئة بالســيئة، ولكنــه يعفــو ويصفــح، متخلقــاً بالقــرآن الكريــم، عامــلاً بمــا فيــه مــن الاجتهــاد في طاعــة اللــه والخضــوع لــه والانقيــاد لأمــره ، والشــدة عــلى أعدائــه والتواضــع ولــين الجانــب والرحمــة لأوليائــه ومواســاة عبــاده... كان ذا حلــم وعلــم وصــبر وعــدل وزهــد وتواضــع وعفــو وعفــة وتقــوى وحيــاء ومــروءة وجــود وشــجاعة،. وصمــت إلا عــن ذكــر اللــه ووقــار ورحمــة بالمؤمنــين... ومــا وضــع أحــد فمــه في أذنــه إلا اســتمر مصغيــاً إليــه حتــى يفــرغ مــن حديثــه ، أكثــر النــاس شــفقة عــلى خلــق اللــه وأرأفهــم بهــم، يركــب الحمــار ويــردف خلفــه، ويجلــس عــلى الأرض ويــأكل مــع الخــدم، ويحمــل حوائجــه بنفســه مــن الســوق ويحــب الطيــب واســتعماله، ويحــب مــن الطعــام مــا خشــن ومــن الثيــاب مــا خشــن) [105] .

واشــتهر محمــد أحمــد بــن عبداللــه المهــدي منــذ نشــأته بحــب الخلــوة والانفــراد

عـن النـاس والتمسـك بالديـن [106]. وقـد تحـدث ونجـت باشـا مديـر مخابـرات الجيـش الـذي قـام بغـزو دولـة المهديـة عـن قدراتـه الخطابيـة قائـلاً: (بـأن الرجـال كانـوا يبكـون ويضربـون صدورهـم عنـد سـماع كلماتـه المؤثـرة، وحتـى رفاقـه مـن الصوفيـة لـم يخفـوا إعجابهـم بـه... وليـس في شـكله مـا يثـير إلا عندمـا يبـدأ الوعظ، وعندهـا يـدرك المـرء القـوة الكامنـة فيـه، والتـي كانـت تدفـع النـاس لطاعتـه)[107]

ولا ريـب في أن النزعـة الزهديـة التـي ورثهـا محمـد المهـدي بـن عبداللـه مـن تربيتـه وانخراطـه في سـلك الصوفيـة قـد مثلـت دوراً كبـيراً فى قبولـه لـدى النـاس، وعلّـت مكانتـه فالصوفيـة أعطتـه تلـك المكانـة وتأهـل في خلاويهـا، ومغاراتهـا ومنحتـه القبـول الطوعـى، كمـا أعطتـه التجربـة الصوفيـة خـبرة بالبـلاد اكتسـبها مـن مهامـه المتعـددة وأسـفاره فوقـف عـلى أمـور النـاس، وأحـوال البـلاد نافـذاً إليهـا بشـخصيته الناقـدة والرافضـة للمـكاره منـذ صبـاه [108] .

عندمـا أعلـن محمـد المهـدي بـن عبداللـه أنـه مبعـوث العنايـة الإلهيـة لتخليـص أفـراد المجتمـع مـن كل الشـوائب التـي علقـت بـه وأنـه جـاء لبسـط أحـكام القـرآن الكريـم والسـنة النبويـة، ويقيـم العـدل بـين النـاس، ويقـضى عـلى المفاسـد والبـدع- التـف حولـه النـاس، وآمنـوا بأنـه محيـى العـدل الناطـق بالحكمـة والفضـل[109]. ونصـت البيعـة عـلى الآتـي (بسـم اللـه الرحمـن الرحيـم، بايعنـا اللـه ورسـوله، وبايعنـاك عـلى توحيـد اللـه ولا نـشرك باللـه شـيئاً ولا نزنـي ولا نأتـي بالبهتـان ولا نعصيـك في المعـروف، وبايعنـاك عـلى زهـد الدنيـا وتركهـا، والرضـا بمـا عنـد اللـه رغبـة بمـا عنـد اللـه والـدار الآخـرة، وعـلى ألا نفـر مـن الجهـاد)[110].

أمـا إذا أردنـا أن نبحـث عـن مصـادر ثقافـة محمـد المهـدي بـن عبداللـه ومنابعهـا فنصـل مـن غـير عنـاء إلى أن شـخصية محمـد المهـدي بـن عبداللـه قـد كانـت ذات تأثـير قـوى عـلى أتباعـه بسـبب صفاتـه ومسـلكه، فضـلاً عـن ذلـك كان ذا قـدرة فائقـة عـلى التأثـير الخطابـي وإثـارة الحماسـة في النـاس حيـث كان يحثهـم عـلى الزهـد والجهـاد مـن أجـل أن ينالـوا الجنـة، فيتحمسـون وتأخذهـم النشـوة فيشـدون بمدائـح المهـدي[111]. كذلـك كان لمحمـد المهـدي ابـن عبـد اللـه أسـلوب يكثـر فيـه مـن الاقتبـاس مـن القـرآن الكريـم والحديـث النبـوي الشريـف، ويـضرب فيـه للناس

الأمثلـة بمـا ألفـوه في حياتهـم العاديـة، وقـد وجـه محمـد المهـدي بـن عبـد اللـه عنايتـه إلى رسـالة المهـدي المنتظـر الـذي يمـلأ الأرض عـدلاً كمـا ملئـت ظلمـاً فسـعى لإصـلاح مـا فسـد في المجتمـع السـوداني[112].

وقـد أسـهمت رحلـة محمـد المهـدي بـن عبـد اللـه العلميـة برصيـده العلمـي، ونضجـه الفكـري وإيمانـه العميـق بتحمـل مهمـة الإصـلاح، حتـى إذا مـا تفاعـل كل ذلـك مـع الواقـع السـوداني السـياسي والاجتماعـي، ولـد ذلـك التفاعـل خصـالاً قياديـة أنضجتهـا التجربـة في الدعـوة. وإلى جانـب شـخصية محمـد أحمـد بـن عبداللـه، هنالـك منبـع آخـر هـو المنبـع الروحـي الصـوفي حيـث نشـأ محمـد المهـدي صوفيـاً، ولا ريـب أن النزعـة الزهديـة التـي ورثهـا مـن تربيتـه وانخراطـه في سـلك الصوفيـة فـترة مـن الزمـن قـد تجلـت فيمـا بعـد حـين دعـا إلى الزهـد وبسـاطة المظهـر والابتعـاد عـن ملـذات الحيـاة الفانيـة، فأبقـى مـع القـرآن الكريـم والصحيحـين كتبـاً تتنـاول التصـوف وتعاليمـه مثـل "إحيـاء علـوم الديـن" للغـزالي ومؤلفـات الشـعرانى، وتفسـير روح البيـان للالـوسى، بالإضافـة إلى تفسـيري البيضـاوى والجـلال السـيوطى، واهتـم أيضـاً بالقـرآن الكريـم وأمـر بتدريسـه إلزاميـاً[113].

ولا يكتمـل الحديـث عـن ثقافـة محمـد أحمـد بـن عبداللـه دون الإشـارة إلى الراتـب الـذى هـو عبـارة عـن مجموعـة كبـيرة مـن الآيـات القرآنيـة والأحاديـث النبويـة الشريفـة، حيـث كان عـلى كل فـرد مـن أتبـاع محمـد المهدي بـن عبـد اللـه أن يحفظها عـلى ظهـر قلـب وأن يتلوهـا مرتـين يوميـاً بعـد صلاتـي الصبـح والعـصر[114].

وقـد صـدق الدكتـور محمـد إبراهيـم أبـو سـليم في وصفـه للراتـب بأنـه (جـاء خلـواً مـن أي وجـه مـن أوجـه السياسـة أو التمذهـب بمذهـب أو المـس بمذهـب آخـر، وليـس في فقراتـه مـا هـو مرتبـط بزمـن معـين، أو موقـوت بعهـد، ويمكـن لأي قـارئ أن يقـرأه ويـردده تقربـاً إلى اللـه دون أن يرتبـط بعقيـدة بعينهـا أو بمذهـب)[115].

ويبـدو لنـا أن الراتـب مؤهـل لأن تجتمـع عليـه كلمـة المسـلمين فى الداخـل والخـارج في مجـال الذكـر والدعـاء. ولعـل سـبب كتابـة محمـد أحمـد بـن عبـد اللـه للراتـب هـو أنـه (أحـس بالفـراغ الـذي نشـأ بـين أنصـاره بعـد انفصالهـم عـن طريقتهـم

الصوفيــة بأورادهــا وأدعيتهــا فــرأى ضرورة ســد ذلــك الفــراغ فعكــف عــلى كتابتــه ليكــون بديــلاً لمــا كان لــدى الطــرق الصوفيــة. ويتضــح مــن الراتــب أثــر الصوفيــة العميــق في بنــاء المهــدي الفكــري)[116] وإنــه عــاش صوفيــاً منــذ النشــأة وقــرأ وفهــم بعــض الكتــب الصوفيــة فعــاش بأحاسيســه ومشــاعره يســتمع إلى قصــص المظالــم والمفاســد التــي كان يحكيهــا النــاس في المجالــس فــكان لهــا أثرهــا في نفســه وســلوكه أيضــاً، إذ فــر بدينــه بعيــداً عــن المفاســد فانقطــع إلى العبــادة في الجزيــرة أبــا عــلى النيــل الأبيــض وحفــر غــاراً لعبادتــه والتــف حولــه النــاس مــن بــلاد وقبائــل شــتى حيــث قــام بتوجيههــم وإرشــادهم كمــا قــام مــن الجزيــرة أبــا بالعديــد مــن الزيارات متفقــداً أحــوال النــاس في المناطــق التــي يزورهــا وداعيــاً للإصــلاح الــذي يقــوم عــلى الأمــر بالمعــروف والنهــى عــن المنكــر، ومحاربــة البــدع والضــلالات وبهــذا وصــل محمــد المهــدي بــن عبــد اللــه مكانــة رفيعــة عنــد معظــم النــاس[117] .

وقــد تمكــن محمــد المهــدي بــن عبداللــه مــن أن يحــول ثورتــه الدينيــة إلى حركــة عســكرية ضمــت في صفوفهــا معظــم الطبقــات المظلومــة والعنــاصر المتذمــرة التــي ســاعدته في إزالــة الحكــم التركــي - المــصري في بــلاد الســودان، بعــد معــارك عســكرية اســتمرت طيلــة الفــترة (1298-1302هـــ، 1881-1885م)، وأســس دولــة دينية كان جهازهــا الإداري يقــوم عــلى أســس شــبيهة بنظــام الخلافــة الإســلامية الراشــدة.

هوامش الفصل الثانى:

(1) محمد سعيد القدال ، المرجع السابق ، ص 63 .

(2) نعوم شقير ، المصدر االسابق ، ص 626

(3) Holt:op.cit.p.9

(4) محمد سعيد القدال، المرجع السابق، ص 63.

(5) جلال يحي ، المرجع السابق ، ص 9.

(6) سورة آل عمران، الآية 104.

(7) سورة الرعد، الآية 7.

(8) سورة ا الأنبياء، الآية 105.

(9) سورة النور، الآية 55.

(10) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج3، ط1، القاهرة، 1975م ص237ـــ 238

(11) أبـو العـلاء محمـد عبـد الرحمـن بـن عبـد الرحيـم، تحفـة الأحـوذي بـشرح جامـع الترمـذي، المجلـد التاسـع، ط1، 1421هـــ - 2001م، القاهـرة، دار الحديـث، ص 92.

(12) خليـل أحمـد السـهار، بـذل المجهـود في حـل أبـي داؤود، ج9، دار الفكـر للطباعـة والتوزيـع (بـدون تاريـخ)، ص 194.

(13) أبوعيـسى محمـد بـن عيـسى بـن الترمذي،الجامـع الصحيـح سـنن الترمـذي، ج4، ط1, القاهـرة, شركـة ومطبعـة مصطفـى البابـي الحلبـي وأولاده , 1383هـ – 1962م , ص506.

(14) عبـد الرحمـن بـن خلـدون، مقدمـة ابـن خلـدون، دار الشـعب القاهـرة (بـدون تاريـخ)، ص 279

(15) أبــو داؤود ســليمان بــن الأشــعث، ســنن أبــوداؤود، القاهــرة، مكتبــة البــاب الحلبــي، ط1 1371هـــ. ص109.

(16) محمــد إبراهيــم أبــو ســليم، الحركــة الفكريــة في المهديــة، ط3، الخرطــوم، 1989م، ص11

(17) عبــد الوهــاب أحمــد عبــد الرحمــن، توشــكى، دراســة تاريخيــة لحملــة عبــد الرحمــن النجومــى عــلى مــصر، ط1 الخرطــوم 1979م، ص5 - 6

(18) ســعد محمــد حســن، المهديــة في الإســلام منــذ أقــدم العصــور حتــى اليــوم، ط1، مــصر ، الكتــاب العربــي، 1373هـــ - 1953م، ص 71.

(19) سعد محمد حسن، المرجع السابق، ص 105

(20) أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج4 ، ط 4 ، القاهرة 1975م ، ص136 .

(21) محمــــد الخضــــري، محاضرات تاريــخ الأمم الإســلامية(الدولة العباســية)،ط5، 1364هـ1945-م، ص68

(22) سعد محمد حسن، المرجع السابق، ص-170 171

(23) المرجع نفسه، ص173.

(24) عبــد الرحمــن بــن خلــدون، المرجــع الســابق، ص290 – 291, القرانــات في علــم التنجيــم تشــير إلى دراســة المواقــع والظواهــر الفلكيــة مثــل الأبــراج والكواكــب بهــدف ربطهــا بالشــخصية والأحــداث الدنيويــة .

(25) محــي الديــن بــن عربــي ، الفتوحــات المكيــة،ج3، ط1،بيروت1418هـــ - 1998م,ص319- 321

(26) المرجع نفسه، ص 319.

(27) عبــد اللــه صالــح ســفيان، المهديــة – جــدل الإنســان و الانتظــار ، الــدار البيضـــاء ، ط1 ، 1420هـــ - 1999م ، ص120-121

(28) محمد إبراهيم أبوسليم، المرجع السابق ، ص-14 15

(29) المرجع نفسه، ص -15 16.

(30) أبو داؤود سليمان بن الأشعث، المرجع السابق، ص109

(31) محمد أحمد الحاج، المهدية وأثرها الديني في السودان، في معالم تاريخ الإسلام في السودان، إعداد بروفيسور يوسف فضل حسن ، د/ محمد إبراهيم أبوسليم : الخرطوم ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (بدون تاريخ)، ص95

(32) أبوداؤود سليمان بن الأشعث، المرجع السابق، ص422.

(33) الصادق المهدى، المرجع السابق، ص109-110

(34) أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، بيروت ، دار الكتاب العربي، 1965م ، ص-9 18

(35) أحمد شلبى، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، المجلد الثامن،ط1، القاهرة،1983م ، ص328

(36) عبد الودود إبراهيم شلبى، المرجع السابق، ص73

(37) محمد محجوب مالك، المقاومة الداخلية لحركة المهدية (1881م- 1898م) ط1 بيروت ، 1987م، ص24.

(38) عمر عبد الرازق النقر، الجذور العقائدية والتاريخية لهجرة مى ورنو الى السودان مجلة الدراسات السودانية، معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية ، السودان – الخرطوم ، العدد الأول ، المجلد الثانى ، 1970م ص108

(39) الأمين أبومنقه، العلاقات السودانية النيجرية في إطار المهدية، سلسلة الدراسات السودانية رقم (17) , 1991 م ، ص-195 197.

(40) محمد إبراهيم أبوسليم، منشورات المهدية، بيروت ، 1969م، ص 336

(41) محمد إبراهيم أبوسليم، الحركة الفكرية في المهدية، المرجع السابق، ص25.

(42) المرجع نفسه، ص16

(43) المرجع نفسه ، ص-16 17

(44) محمد النور ضيف الله، المصدر السابق، ص164 – 165

(45) مهديــة 8/5/102منشــورات المهدى(الإنــذارات) ج2، ص100 دار الوثائــق القوميــة بالخرطــوم

(46) مهديــة 1/2/16، غــردون والســودان(مخطوط) ليوســف ميخائيــل، ص-26 27 دار الوثائــق القوميــة بالخرطــوم.

(47) نعوم شقير، المصدر السابق ، ص 583

(48) محمــد إبراهيــم أبوســليم، مخطــوط تاريــخ مؤســس الختميــة، مجلــة الدراســات الســودانية ، العــدد الأول، المجلــد الأول، 1968م ص36-44

(49) محمد إبراهيم أبوسليم، منشورات المهدية، الخرطوم 1969م ، ص 25

(50) المرجع نفسه، ص20 .

(51) Holt,P.M: op.cit,P.33

(52) محفظــة رقــم102، قســم الوثائــق الأفريقيــة، القلعــة، القاهــرة، دار الوثائــق القوميــة (مــن محمــد خالــد زقــل إلى الخديــوي محمــد توفيــق، 5 جمــادى أول1301هـ-4-مــارس1884م، نقــلاً عــن أضــواء عــلى الجاسوســية في عهــد المهــدي للدكتــور محمــد الأمــين ســعيد، ص 6 - 7 .

(53) عبدالرحمن الرافعي، المرجع السابق، ص 88 .

(54) المرجع نفسه،، ص 98 .

(55) زاهــر ريــاض، الســودان المعــاصر حتــى الفتــح المــصري حتــى الاســتقلال (1821-1953م) المكتبــة الأنجلــو مصريــة ، 1966م ، ص77

(56) نعوم شقير، المصدر السابق، ص567

(57) إبراهيـم فوزي ، السـودان بين يدي غردون وكتشـنر ، ج1، القاهـرة، مطبعة دار الكتب والوثائـق القومية، 1436هـ ـــ 2015م ، ص354 ـــــ 355.

(58) عبد الرحمن الرافعى ، المرجع السابق ، ص89

(59) نعوم شقير ، المصدر السابق ، ص633

(60) المصدر نفسه ، ص634

(61) عبدالـودود إبراهيـم شـلبى، الأصـول الفكريـة لحركـة المهـدي السـوداني ودعوتـه ، القاهـرة، د. ت . ص165

(62) محمـد أحمـد الجابـرى ، في شـأن اللـه أو تاريـخ السـودان كمـا يرويـه أهلـه, القاهـرة , 1948م, ص68

(63) زاهر رياض ، المرجع السابق ، ص94

(64) عبد الودود إبراهيم شلبى ، المرجع السابق، ص164

(65) HosKins,G.A: Travels in Ethopia, London 1835,P.235

(66) نعوم شقير، المصدر السابق ، ص632

(67) المصدر نفسه ، ص634

(68) على محمـد بـركات ، السياسـة البريطانيـة واسـترداد السـودان1889-1899م ، 977م ، ص11

(69) جـلال يحيى، الثـورة المهديـة وأصـول السياسـة البريطانيـة في السـودان،ط1، القاهـرة ، 1959م، ص9 10-

(70) op.cit,p33: Holt,P.M

(71) عبدالله محمد أحمد ، جهاد في سبيل الله ، الخرطوم ، بدون تاريخ، ص1 – 2

(72) عبدالودود إبراهيم شلبى ، المرجع السابق ، ص17-18

(73) عبدالله محمد أحمد، المرجع السابق، ص2

(74) الشاطر بصيلى عبدالجليل، معالم تاريخ سودان وادي النيل في القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي، ط1، القاهرة، 1955م ، ص196.

(75) عبدالله محمد أحمد، المرجع السابق، ص3

(76) محمد سعيد القدال، الإمام المهدي (لوحة لثائر سوداني) ، مطبعة جامعة الخرطوم ، 1985م ، ص32 .

(77) محمد ابراهيم أبوسليم، الحركة الفكرية فى المهدية، المرجع السابق، ص27-28

(78) عبدالله محمد أحمد، المرجع السابق، ص4

(79) عبدالودود ابراهيم شلبى، المرجع السابق، ص2

(80) مكى شبيكة، تاريخ شعوب وادى النيل (مصر والسودان) فى القرن التاسع عشر الميلادى ، بيروت 1965م، ص643

(81) نعوم شقير، المصدر السابق، ص638-639

(82) المصدر نفسه، ص640

(83) محمد ابراهيم أبوسليم، الحركة الفكرية في المهدية ، اﻻمرجع السابق، ص-29 30

(84) محمد سعيد القدال، المرجع السابق، ص47-48

(85) ابراهيم فوزى، المصدر السابق، ص 74

(86) نعوم شقير، المصدر السابق، ص643

(87) محجوب عمر باشرى ، معالم الحركة الوطنية فى السودان،ط1، 1416هـ-1996م بيروت، ص73

(88) نعوم شقير، المصدر السابق، ص644

(89) عبدالله محمد أحمد، المرجع السابق، ص2

(90) نعوم شقير ، المصدر السابق، ص 643

(91) محمــد ابراهيــم أبوســليم، الحركــة الفكريــة في المهديــة ، المرجــع الســابق، ص32

(92) محمد إبراهيم أبوسليم, منشورات المهدية ، المرجع السابق، ص13-18

(93) المرجع نفسه ، ص26

(94) مهديــة 8/2/15/منشــورات المهــدي، الأحــكام و الآداب،ج3، ص144، دار الوثائــق القوميــة بالخرطــوم

(95) إســماعيل عبدالقــادر الكردفانــي، ســعادة المســتهدي بســيرة الإمــام المهــدي، تحقيــق الدكتــور محمــد إبراهيم أبوســليم، بــيروت 1982م ، ص 109ــــــــــــ .110

(96) محمــد إبراهيــم أبــو ســليم ، الآثــار الكاملــة للإمــام المهــدي ، المجلــد الثانــى ، 1990 ، ص 59

(97) عبدالله محمد أحمد، المرجع السابق ، ص96

(98) محمــد إبراهيــم أبوســليم، الآثــار الكاملــة للإمــام المهــدي، المجلــد الثانــي، المرجــع الســابق ، ص41

(99) Holt :OP. Cit, P.112

(100) محمد إبراهيم أبوسليم، منشورات المهدية ، المرجع السابق ، ص336

(101) إبراهيم فوزي ، المصدر السابق ، ص85

(102) عبد الودود إبراهيم شلبى ، المرجع السابق ، ص33

(103) Ohrwalder: Ten years Captivity in Mahdis Camp 1882--1892 London 1970-P.42

(104) Wingate : Mahdism In The Anglo-Egyptian Sudan- London. 1889.

(105) P.216 () إسماعيل عبدالقادر الكردفاني، المستهدي بسيرة الإمام المهدي المرجع السابق ، ص80,

(106) نعوم شقير ، المصدر السابق، ص939

(107) Ohrwalder:Op.Cit.P.13

(108) محمد سعيد القدال ، المرجع السابق ، ص57

(109) إسماعيل عبدالقادر الكردفاني ، المصدر السابق، ص89

(110) رودلف سلاطين ، السيف والنار في السودان، تعريب جريدة البلاغ ـ مكتبة الحرية ، أم درمان، ص119

(111) المصدر نفسه، ص125

(112) عبد المجيد عابدين، المرجع السابق، ص130

(113) مكي شبيكة، السودان عبر القرون، ص238

(114) الصادق المهدي، المرجع السابق، ص209

(115) محمد إبراهيم أبو سليم ، الآثار الكاملة للإمام المهدي ، ج1 ، 1990م ، ص32

(116) محمد سعيد القدال، المرجع السابق، ص133

(117) إسماعيل عبدالقادر الكردفاني، المصدر السابق، ص-88 90.

الفصل الثالث

مسيرة الثورة المهدية في السودان

(1881 - 1885)

الفصل الثالث

مسيرة الثورة المهدية في السودان

(1881 - 1885)

تمهيد

- معركة الجزيرة أبا.
- محاولة حكمدارية الخرطوم للقضاء على الثورة المهدية في قدير.
- الثورة المهدية في أرض الجزيرة.
- الثورة المهدية في غرب السودان
- الثورة المهدية في شرق السودان.
- بعثة غردون باشا إلى السودان ونتائجها.
- أسباب نجاح الثورة المهدية.

تمهيد:

عندما أعلن محمد المهدي بن عبد الله مهديته إلى الناس قام بزيارة إلى إقليم كردفان جدد فيها صلاته مع الزعماء والعلماء، ووضع الأحلاف بينه وبين الطوائف الناقمة على الأوضاع في البلاد، وبعد عودته بدأ محمد المهدي بن عبد الله يباشر الخطوات العملية لإعلان الجهاد في سبيل الله، فقد شرع يكتب الخطابات لأتباعه ورجال الدين داعياً إياهم للتجمع في (الجزيرة أبا) وجعل لهم شهر رمضان (1298هـ -1881م) موعداً لهم[1]. ويبدو أن هدفه من هذا التجمع هو الهجرة من الجزيرة أبا إلى قدير بعد شهر رمضان مباشرة، بسبب موسم الأمطار الذي تصعب فيه المطاردة الحكومية له فى حين يجد هو وأتباعه الماء أينما حلوا.

أصبحت هذه الهجرة تمثل ضرورة دينية فجاء خطاب محمد المهدي بن عبد الله إلى الشيخ محمد الطيب البصير في غرة شعبان 1298هـ -يونيو1881م(... ولازم تشجع الأهل إلى الهجرة إلينا، وجميع من لم يصلنا فليبايعك، وقد جعلت مبايعتك مبايعتي ... ولازم تزهد المحبين عن الأوطان والأحوال فان الدنيا غروره ، وما للعبد إلا الأعمال الموافقة للكتاب والسنة. ومن لم يجتهد على ذلك بشق الأنفس في هذه الأيام القريبة الزوال خسر في الدارين)[2].

ويذكر على المهدي في كتابه (جهاد فى سبيل الله)، أن الشيخ محمد شريف نور الدائم بعد علمه بدعوة محمد المهدي ابن عبد الله أبلغ حكمدارية الخرطوم، فجمع حكمدارها محمد رؤوف العلماء مستشيراً. قال بعض الشيوخ إن البلاغ كيدي ، وقال آخرون إن هذه الدعوة قد صدرت من الشيخ محمد أحمد بن عبد الله وهو في حالة غيبوبة أو جذب سماوى واستقر الرأي على إرسال من يختبر حقيقة الأمر[3].

معركة الجزيرة أبا:

في يوم (11 رمضان1298هـ -7أغسطس1881م) وصل إلى الجزيرة أبا ممثل حكمدارية الخرطوم ويدعى محمد بك أبو السعود، لاستدعاء محمد المهدي إلى الخرطوم ولكنه لم يفلح في مهمته[4].

وجـه الحكمـدار محمـد رؤوف بإرسـال تجريـدة تأديبيـة بقيـادة أبـى السـعود، ثـم خصصـت الحكمداريـة فى الخرطـوم سريتـين للمهمـة عـلى رأسـها الصـاغ إبراهيـم عـلى، والصـاغ عمـر عزمـي، وحمـل الجنـود عـلى باخـرة نيليـة متجهـة نحـو الجزيرة أبـا[5]. وعندمـا علـم محمـد المهـدي بقـدوم قـوات الحكمداريـة قـام باسـتنفار القبائل المجـاورة عـلى ضفتـي النيـل الأبيـض[6]. واجتمـع لديـه مـا يزيـد عـلى ثلاثمائـة رجل[7].ويبـدو أن هـؤلاء الرجـال هـم نـواة جيـش المهديـة الـذي نمـا ليصبـح أقـوى جيـش وطنـي في القـارة الأفريقيـة.

وفى يـوم 16(رمضـان1298 هــ- 12أغسـطس1881م) نشـبت معركـة بالأيـدي والأسـلحة البيضـاء، وكان النـصر حليـف محمـد المهـدي وأتباعـه[8]. ومـن هنـا بـدأت المهديـة.

وقـد ترتـب عـلى انتصـار محمـد المهـدي ورجالـه عـلى قـوات الحكمداريـة ردود فعل. وفى هـذا يقـول ونسـتون تشرشـل:(وسرى أثـر النجـاح سريـان الكهربـاء، وانتقـل الخـبر عـلى نطـاق القطـر. قتـل الرجـال الذيـن لا يحملـون الأّعصيـاً رجـالاً يحملـون البنـادق والرصـاص، ونجـح فقيـه متواضـع في هزيمـة قـوات الحكومـة، ولابـد أن هـذا الفقيـه هـو المهـدى المنتظـر[9].

بالرغـم مـن الفـرح الـذي سـاد الجزيـرة أبـا والتكبـير والتهليـل بهـذا النـصر، فقـد عـرف محمـد المهـدي بـن عبـد اللـه أن حكمداريـة الخرطـوم لـن تقـف مكتوفـة الأيـدي. بـل إنهـا لـن تتركـه وشـأنه فقـرر الهجـرة إلى قديـر تيمنـاً بهجـرة الرسـول (صـلى اللـه عليـه وسـلم) وليبتعـد عـن الخطـر الحكومـي[10].

وكان الحكمـدار محمـد رؤوف قـد أرسـل(500 جنـدى) إلى الكـوة، وطلـب مـن مديـر كردفـان محمـد سـعيد أن يلحـق بهـم ويهاجمـوا الجزيـرة أبـا، فوجدوهـا خاويـة فخفـوا لملاحقـة محمـد المهـدي بـن عبـد اللـه ورجالـه[11]. ولكـن تأكـد لهـم وعـورة الطريـق وصعوبـة المواصـلات وشراسـة قـوات محمـد المهـدي فـصرف محمـد سـعيد النظـر عـن ذلـك[12]. وعندمـا وصـل محمـد المهـدي وأتباعـه مشـارف جبـل تقـلى أرسـل لـه الملـك آدم أم دبالـو (1859-1884م) وفـداً للترحيـب بـه، و بنصيحـة مـن الملـك آدم أم دبالـو رحـل محمـد المهـدي مـع أتباعـه إلى مـكان حصـين يقـال

لـه(بطـن أمـك)، وهـو حصـن أهـالي تقـلى الـذي يجتمعـون فيـه عندمـا يعلنـون عصيانهـم عـلى الحكومـة[13]. وفى يـوم (7 ذى الحجة1298هـ-31أكتوبـر1881م) وصـل محمـد المهـدي وأتباعـه إلى جبـل قديـر ورحـب بـه سـلطانها نـاصر[14].

وهكـذا دفعـت الحملـة الحكوميـة بعجلـة المهديـة إلى الأمـام. وكان للهجـرة موقعهـا مـن الناحيـة العقائديـة. وذلـك لأن بعـض الأقـوال الـواردة عـن المهـدي المنتظـر تذهـب إلى أنـه يظهـر فى جبـل "ماسـا" بالمغـرب، وقـد زعـم محمـد المهـدي بـن عبـد اللـه أن بجبـال قديـر جبـلاً يسـمى ماسـا، وأنـه هاجـر إليـه بأمـر مـن الرسـول (صـلى اللـه عليـه وسـلم)[15]. ويبـدو أن محمـد المهـدي حـاول أن يربـط هجرتـه بعلامـة مـن علامـات المهديـة.

محاولة حكمدارية الخرطوم للقضاء على الثورة المهدية في قدير:

أولاً: حملة راشد بك أيمن:

بلـغ راشـد بـك أيمـن مديـر فشـودة في ذلـك الوقـت أن محمـد أحمـد بـن عبـد اللـه قـد اسـتقر فى قديـر فاسـتأذن الحكمـدار محمـد رؤوف في السـير إليـه في جبـال تقـلى والقضـاء عليـه، ولكـن لـم يسـمح لـه. وكان راشـد قـد سـمع بـأن جماعـة محمـد المهـدي بـن عبـد اللـه يعانـون مـن ضيـق شـديد ومـن تفـشى الأمـراض بينهـم، فقـرر أن يتحـرك في سريـة تامـة ويفاجـئ محمـد المهـدي بـن عبـد اللـه مخالفـاً بذلـك أوامـر الحكمـدار محمـد رؤوف الـذي منعـه مـن اتخـاذ أي خطـوة عسـكرية، وسـار بجيشـه ليـلاً ونهـاراً ليحقـق أقـصى درجـات المفأجـاة، ولكـن محمـد المهـدي علـم بأمـر الحملـة مـن مصدريـن، الأول امـرأة تدعـى رابحـة الكنانيـة التـي أن سـمعت بأمـر الحملـة في منطقتهـا حتـى سـارت بأرجلهـا النهـار كلـه وثلثـي الليـل وأنـت محمـد المهـدي بـن عبـد اللـه في الثلـث الأخـير منـه. والمصـدر الثانـي المـك نـاصر مـك جبـل قديـر الـذي وصلتـه أنبـاء الحملـة عـن طريـق (النضـيرة)[16].

فمـا أن سـمع محمـد احمـد بـن عبداللـه بأمـر الحملـة حتـى خـرج بجيشـه إلى غابـة بالقـرب مـن جبـل قديـر, وهـى الطريـق الوحيـد الـذي يمكـن أن يخـرج منـه راشـد بجيشـه. وفى يوم(17محـرم 1299هـ-9 ديسـمبر1881م) اشـتبك الطرفـان في معركـة كانـت نتيجتهـا هزيمـة قـوات الحكومـة وقتـل راشـد.ثم طـار الخـبر إلى

الأماكـن المجـاورة، وبـدأ النـاس يفـدون إلى هـذا القائـد الـذي يحقـق المعجـزات[17].

ثانياً: حملة يوسف الشلالي:

وتمـت مواجهـة عسـكرية أخـرى فى قديـر عبرحملـة جهزهـا الألمانـي جقلـر باشـا القائـم بأعمـال الحكمداريـة أثنـاء فـترة عـزل محمـد رؤوف، وقبـل مجـيء عبـد القـادر حلمـي الـذي عـين حكمـداراً بعـد اسـتدعاء محمـد رؤوف[18]. وقـد قامـت الحملـة مـن الخرطـوم في منتصـف مـارس1882م بقيـادة يوسـف الشـلالى، الـذي كان شـديد الثقـة بـأن يسـتطيع القضـاء عـلى محمـد أحمـد بـن عبداللـه وأتباعـه. وكان يخطـط بعـد القضـاء عليـه أن يؤسـس مديريـة جديـدة في الجبـال يبـدأ فيهـا إنتـاج المحاصيـل الزراعيـة المختلفـة. سـار يوسـف الشـلالى مـن الكـوة إلى فشـودة ومـن ثـم اتجـه إلى قديـر في طريـق وعـر، حيـث اسـتقر في ‘‘فنقـر’’ وجعلهـا مركـز رئاسـته , وحـاول اسـتمالة محمـد المهـدي بـن عبـد اللـه بالمكاتبـات فلـم يفلـح، فنـزل الجيـش مكانـاً يسـمى جبـل الجـرادة وتحصنـوا داخـل ‘‘زريبـة’’[19].

وفى فجـر يوم(12رجب1299هـ-30مايـو1882م) اشـتبك الجيشـان فى أشـد المعـارك التـي دارت حتـى ذلـك الوقـت، ولكـن تمكـن محمـد أحمـد بـن عبداللـه مـن القضـاء عـلى جيـش الشـلالي [20] . وهكـذا ظـل ينتـصر عـلى جيـش الحكومـة للمـرة الثالثـة ولـم يتعـظ الأعـداء وقـد حقـق هـذا النـصر نجاحـاً لدعـوة محمـد المهـدي وأشـيع بـين النـاس أن اسـم محمـد أحمـد ابـن عبداللـه قـد ظهـر فى أوراق الأشـجار وجـاء المـترددون يلتمسـون الوقـوف والانضمـام تحـت رايـة محمـد المهـدي[21].

ويقول ونستون تشرشل عن هذا النصر: (كان نصراً حاسماً إذ أسقط جنوب كردفان تحت سيطرة فقيه أبا. واستولى على كثير من الأسلحة والذخائر وسارعت الألوف من كل حدب و صوب تطلب الانضمام إلى صفوفه، ولم يخامر أحد الشك فى أنه رسول العناية الإلهية الذي بعث لخلاصهم من جلاديهم)[22] .

الثورات في أرض الجزيرة:

كانـت أرض الجزيـرة تمثـل معقـلاً مـن معاقـل الصوفيـة، كمـا أنهـا عرفـت محمـد أحمـد ابـن عبـد الله شـيخاً زاهـداً ورعـاً ثـم سـمعت بانتصاراتـه المتكررة، واسـتعدت

لتأييده فقام عامر المكاشفى في جنوبي سنار في ابريل 1882م، بالهجوم على سنار، ولكن هجومه باء بالفشل ، كما ثار الشريف أحمد ود طه في شرق النيل الأزرق بين رفاعة وأبى حراز في بادئ الأمر ولكنه فشل، وانتهت حرب العصابات الأولى بالجزيرة، ولكن لم تهدأ أرض الجزيرة إذ قامت ثورات أخرى قادها رجال عاهدوا محمد المهدي بن عبد الله على الجهاد في سبيل الله، منهم ود الصليحابى الذي قاد عربان رفاعة الهوى فصادم قوات الحكومة ولكنه انهزم في معركة الجبلين(شعبان1229هـ - يوليو1882م). واندلعت ثورة أخرى في غرب أرض الجزيرة يقودها فضل الله ود كريف، الذي تمكن من قطع خط التلغراف بين الكوة والمسلمية. فأمر الحكمدار عبد القادر حلمي بإرسال حملة إلى الكوة استطاع رجال ود كريف هزيمتها فى معركة أم سنيطة في منتصف ديسمبر1882م، ولكن عزم الحكمدار عبد القادر حلمي القضاء على ود كريف ورجاله فقاد حملة هزم بها ودكريف فى معركة معتوق في غربي الجزيرة، كما نجح في هزيمة حركة أحمد المكاشفى بشرق الجزيرة فى 24 فبراير1883م. ونشبت حركة أخرى بقيادة الحاج أحمد عبد الغفار من قبيلة كنانة لحصار كركوج، فلما سمع الحكمدار عبد القادر حلمي بذلك قاد حملة التقت برجال الحاج أحمد عبد الغفار في معركة التبنة (قرب الرصيرص) في يوم(27جماد أول1300هـ-26 مارس1883م) وانتصر فيها الحكمدار عبدا لقادر حلمي أيضاً[23]

يبدو أن تلك الانتصارات التي حققها الحكمدار عبد القادر حلمي قد ساعدت السلطات الحكومية في القضاء على الحركات الثورية والحد من انتشارها في أرض الجزيرة ، ولكن لابد لنا أن نشير بأن تلك الحركات الثورية قد مثلت دوراً مهماً فى تشتت طاقة الحكومة بأرض الجزيرة .

الثورة المهدية في غرب السودان:

أولاً: الثورة المهدية في كردفان:

بعد إبادة محمد المهدي بن عبد الله لقوات حملة الشلالى، انضمت إليه مجموعات من قبائل الغرب المجاهدة ثم تقدم من قدير متجهاً إلى الأبيض

حـــاضرة كردفــان تــاركاً الأســلحة الناريـــة التـــي غنمهـــا مـــن قـــوات الحكومـــة في معركتـــي راشـــد والشـــلالى فى جبـــال النوبـــة[24]. وعندمـــا اقـــترب مـــن الأبيـــض كتـــب خطابـــين أحدهمـــا إلى محمـــد ســـعيد مديـــر كردفـــان وقـــادة الجيـــش والآخـــر إلى ســـكان الأبيـــض يطلـــب منهـــم التسـليم، ولكـــن كان رد محمـــد ســـعيد عـــلى خطـــاب محمـــد المهـــدي بـــن عبـــد اللـــه أن قـــام بشـــنق رســـولي محمـــد المهـــدي بـــن عبـــد اللـــه أمـــا المواليـــون لمحمـــد المهـــدي بـــن عبـــد اللـــه مـــن ســـكان مدينـــة الأبيـــض فقـــد انضمـــوا إليـــه، وأحـــس محمـــد ســـعيد ومعاونـــوه بنيـــة محمـــد المهـــدي بـــن عبـــد اللـــه، وأقامـــوا حصنـــين أحدهمـــا حـــول المدينـــة، والآخـــر حـــول الثكنـــات ومبانـــي المديريـــة. وفى يـــوم8 ســـبتمبر1882م وصلـــت جمـــوع أتبـــاع محمـــد المهـــدي بـــن عبـــد اللـــه إلى الأبيـــض، وانضـــم إليهـــم عـــدد آخـــر وبلـــغ نحـــو خمســـين ألفـــاً حســـب نـــص بعـــض الروايـــات، وأمـــر محمـــد المهـــدي بـــن عبداللـــه أتباعـــه بالهجـــوم وتصـــدى لهـــم جنـــود حاميـــة الأبيـــض بوابـــل مـــن نـــيران المدافـــع والبنـــادق، وأمطـــروا عليهـــم مـــن الرصـــاص مـــا كاد يحجـــب الشـــمس فحصدتهـــم النـــيران حصـــداً، ولكنهـــم لـــم يزالـــوا يقتحمونهـــا بجـــرأة وثبـــات غـــير مبالـــين بالمـــوت والعســـاكر تـــوالى رميهـــم بكـــرات المدافـــع ورصـــاص البنـــادق حتـــى ســـد الدخـــان الفضـــاء» وهكـــذا بـــذل أتبـــاع المهـــدي أرواحهـــم غـــير مبالـــين بالرصـــاص الـــذي يحصدهـــم حتـــى كانـــت النتيجـــة هزيمـــة قـــوات محمـــد المهـــدي بـــن عبداللـــه وتراجعهـــا بعـــد أن تركـــوا آلافـــاً منهـــم قتـــلى في ميـــدان المعركـــة وســـميت هـــذه المعركـــة بمعركـــة الجمعـــة[25] .

يمكننـــا أن نعـــزى هـــذه الهزيمـــة إلى اســـتخدام قـــوات محمـــد المهـــدي بـــن عبـــد اللـــه للســـلاح الأبيـــض والعـــصي مـــع قـــوات متدربـــة ومســـلحة بالأســـلحة الناريـــة ومحصنـــة. كمـــا أكـــدت هـــذه الهزيمـــة أهميـــة الأســـلحة الناريـــة في القتـــال، ولا يمكـــن الاســـتغناء عنهـــا رغـــم أنهـــا مـــن موروثـــات الحكـــم التركـــي - المـــصري. وبالرغـــم مـــن هزيمـــة قـــوات محمـــد المهـــدي بـــن عبـــد اللـــه في معركـــة الجمعـــة إلا أنهـــا أكـــدت لنـــا بوضـــوح تـــام بســـالة وشـــجاعة أبنـــاء الشـــعب الســـوداني وإقدامـــه.

وبعـــد معركـــة الجمعـــة أشـــار بعـــض قـــواد محمـــد المهـــدي بـــن عبـــد اللـــه عليـــه بالتراجـــع إلى قديـــر لتنظيـــم صفوفهـــم وإعـــادة الكـــرة مـــرة أخـــرى عـــلى مدينـــة الأبيـــض، ولكـــن هنـــاك مجموعـــة مـــن جلابـــة مدينـــة الأبيـــض أشـــاروا عليـــه بمحـــاصرة

المدينـة وإرغامهـا عـلى التسـليم، فأخـذ برأيهـم فتـم الرحيـل إلى شـمال غـرب المدينـة إلى مـكان يسـمى ''الجنـزارة'' وفـرض حصـاراً صارمـاً عـلى المدينـة. وتـم في الوقـت نفسـه حصـار مدينـة بـارا. وأصبـح الحصـار مـن فنـون الحـرب التـي أتقـن محمـد المهـدي بـن عبـد اللـه وقـواده اسـتعمالها مسـتقبلاً، ثـم قـام بإحضـار الأسـلحة الناريـة مـن قديـر مكونـاً بهـا قـوة عسـكرية عرفـت باسـم ''الجهاديـة'' وأوكل إلى حمـدان أبـى عنجـة قيادتهـم فلعبـت أدواراً بـارزة في تاريـخ الثـورة المهديـة[26].

أحكـم الحصـار عـلى مدينـة الأبيـض مـن قبـل قـوات محمـد المهـدي فعـم الجـوع والسـلب والنهـب في داخـل المدينـة، وقـد بيـع الحمـار بمبلـغ أربعمائـة **ريـال** مجيدى وقـارورة شـحمه بعـشرة ريـالات وأكل النـاس الـكلاب والقطـط والجيـف[27].

وهـذا الدافـع الجديـد يوضـح مـدى تدنـى الأوضـاع الأمنيـة، إذ أصبـح السـلاح النـاري في أيـدي الثـوار فانفـرط عقـد الأمـن في المدينـة، بالإضافـة إلى ذلـك هنـاك نقـص حـاد في المـؤن الغذائيـة للمدينـة بسـبب الحصـار الـذي ضُرب عليهـا، مـن قبـل محمـد المهـدي ابـن عبـد اللـه وقواتـه؛ وبإيعـاز مـن جنـود حاميـة الأبيـض قـام محمـد سـعيد مديـر كردفـان بإرسـال خطـاب إلى محمـد المهـدي بـن عبـد اللـه يعلـن فيـه التسـليم ويطلـب العفـو.

وصـل الخطـاب إلى محمـد أحمـد بـن عبداللـه في الجنـزارة، ورد عليـه رداً رقيقـاً قائـلاً فيه(إنكـم كنتـم في أمـر الـترك ونهيهـم صادقـين وباذلـين أنفسـكم وأموالكـم لغـير اللـه بـلا منافـع تعـود لكـم عنـد اللـه، وترفعكـم في الـدار الآخـرة فكيـف أنـى داعيكـم إلى اللـه و مـا يرفعكـم عنـده يعـود عليكـم بالخـير الدايـم والنعيـم السرمـدي، وبمـا أنكـم عاقلـون وتعلمـون أن مـا كان لغـير اللـه سـلمتم فيـه فسـلموا أمركـم لي لأنـي لا أريدكـم إلا مـا يـرضى اللـه ورسـوله ويديـم الخـير السرمـدي، فمـا دام فعـلى ممـا يعـود لكـم فمـن بـاب أولى أنكـم تسـلمون لأمـري ونهيـئ بأنفسـكم وأموالكـم وأولادكـم مـن غـير تهمـة، بـل بمحبـةً وصداقـةً بمـا أنـى ولى أمـر اللـه لكـم وخليفـة رسـول اللـه فيكـم والسـلام). وفى يـوم الجمعة19ينايـر1883م كان محمـد المهـدي ابـن عبـد اللـه يجلـس عـلى مصلاتـه وإلى جانبـه قياداتـه لتلقـى أهـل المدينـة المستسـلمة وكان أول القادمـين محمـد سـعيد مديـر كردفـان، وعـلى بـك

شريف، واسكندر بك، وأحمد دفع الله وبقية الضباط والسناجق، وخلفهم سكان مدينة الأبيض، وقد عامل محمد أحمد بن عبد الله الجميع معاملة طيبة، ولكن محمد سعيد وعلى بك الشريف وأحمد دفع الله قد استمروا في معاداتهم للثورة المهدية. وقد تم القبض عليهم وهم يرسلون رسالة إلى حكمدار السودان عبد القادر حلمي تكشف عن قوة جيش محمد المهدي بن عبد الله فحكم عليهم بالنفي ثم القتل[28].

وكان لسقوط مدينة بارا في يوم 5يناير 1883م[29]. وأيضاً مدينة الأبيض في يوم 19يناير 1883م أثر كبير في زيادة جيش محمد المهدي بن عبد الله من الناحية العددية بانضمام مجموعات جديدة إليه وأيضا من الناحية العسكرية بحصوله على كميات كبيرة من الأسلحة النارية التي استولى عليها من أعدائه. وهكذا أصبح محمد المهدي بن عبدالله قائداً وإدارياً بعد أن خرجت كردفان بأسرها من حوزة الحكم التركي المصري إلى حوزة قائد الثورة.

وبالرغم من الاحتلال البريطاني لمصر بعد هزيمة عرابي في معركة التل الكبير في شهر سبتمبر1882م وإفلاسها المالي وحل جيشها فقد كان الخديوي توفيق يسانده مجلس وزرائه حريصين كل الحرص على التمسك بالسودان والقضاء على الثورة المهدية. [30]،

وربما يعزى ذلك خوفهم من أن يفقدوا جزءاً مهماً من إمبراطوريتهم بل أصروا فيما بعد على ارسال حملة عسكرية كبيرة للقضاء على محمد المهدى بن عبدالله فى كردفان. ولم تشأ الحكومة البريطانية فى بادىء الأمر أن تتدخل لحرصها على عدم إضافة مسؤوليات جديدة إلى مسؤولية احتلالها العسكرى لمصر، بالرغم من الاتصالات العديدة التى قام بها الموظفون البريطانيون الكبار فى القاهرة بوزارة الخارجية البريطانية، وكان غرض هذه الاتصالات استخدام فرق بريطانية أو هندية لاستعادة ما فقد، و لاقرار الأمن والنظام بالسودان، ولذلك فلم يكن هنالك أي اهتمام بالموضوع إلاّ ما كان من إرسال الكولونيل ستيوارت إلى الخرطوم في مهمة استطلاعية لتنوير الحكومة البريطانية عن الموقف[31]. وفى ذلك الوقت كانت الحكومة المصرية تود للحملة التي وصلت

طلائعهــا وتتكــون أساســاً مــن جنــود مصريــين سُرحــوا بعد(معركــة التــل الكبــير) إلى الخرطــوم في أواخــر1882م، وقــد عــين عــلاء الديــن باشــا حاكمــاً بــدلاً عــن عبــد القــادر حلمــي، وســليمان نيــازى قائــداً عامــاً والضابــط البريطانــي هكــس باشــا الــذي عــرف بالكفــاءة في عملــه الطويــل مــع جيــش بــلاده في أماكــن متعــددة مــن العالــم أهمهــا الهنــد والحبشــة، وقــد عــين مديــراً للعمليــات الحربيــة فغــادر مــصر في شــهر فبرايــر1883م متجهــاً نحــو الســودان راكبــاً مــع قواتــه البحــر الأحمــر إلى ســواكن ومنهــا إلى بربــر ثــم وصــل الخرطــوم في شــهر مــارس1883م[32] .

وممــا أوردنــا ســابقاً نجــد أن تعيــين الضابــط البريطانــي هكــس قــد كان بعيــداً عــن الصــواب، وذلــك لأن الثــورة المهديــة هــي ثــورة دينيــة في المقــام الأول فلــم يكــن مــن الأرجــح تعيــين قائــد مســيحي يتــولى إدارة العمليــات الحربيــة للقضــاء عــلى محمــد المهــدي بــن عبــد اللــه وقواتــه في كردفــان، لأن هــذا التعيــين ســوف يثــير روح التعصــب لــدى الثــوار وينــشر دعــوة المهديــة في أنحــاء أخــرى مــن بــلاد الســودان .

عنــد وصــول قــوات حملــة هكــس إلى الخرطــوم أخــذت بعــض آلياتهــا لمحاربــة الثوار في منطقــة الجبلــين وانتــصرت عــلى الثــوار ممــا رفع مــن روحهــم المعنويــة[33]

وبــدأت الحملــة ســيرها مــن الدويــم في 27ســبتمبر1883م نحــو الأبيــض حــاضرة كردفــان وبــدأت الخلافــات تطــل برأســها ، فبينمــا كان هكــس يــرى إقامــة محطــات للحراســة لمؤخــرة الجيــش رفــض الحكمــدار عــلاء الديــن خوفــاً مــن أن تٌطَــوّق هــذه المحطــات مــن قبــل رجــال محمــد المهــدي بــن عبــد اللــه ، وهنالــك خــلاف آخــر حول الطريــق الــذي تســلكه الحملــة فبينمــا كان يــرى هكــس إتبــاع طريــق الدويــم- بــارا حيــث ولاء الكبابيــش لــم يــزل مزعزعــاً لمحمــد المهــدي بــن عبداللــه ثــم الانقضــاض عليــه مــن الشــمال، كان عــلاء الديــن يــرى في ذلــك مخاطــرة لنــدرة الآبــار ويقــترح أخــذ طريــق الدويــم - الرهــد مــع مــا فيــه مــن مخاطــرة محمــد المهــدي بــن عبداللــه مــن الجنــوب[34] .

واســتقر الــرأي عــلى أن تســلك قــوات حملــة هكــس طريــق الدويــم - الرهــد فتقدمــت نحــو طريــق شــات، هجليجــة، الغبشــة، الأضيــة، الرهــد، علوبــة، ووصلــت أخــيراً إلى فولــة المصاريــن فى يــوم 3 نوفمــبر 1883م[35]، وحــدث الاشــتباك الأول بــين القوتــين

في ذلك التاريخ السابق، عندما صوب جهادية أبى عنجة نيرانهم على قوات حملة هكس بينما كانوا يشقون طريقهم بصعوبة في أرض وعرة وتكرر الهجوم في اليوم التالي . وفي يوم 5 نوفمبر1883م كانت المعركة الكبرى التي أبيد فيها جيش هكس (بما فيهم هكس نفسه) في غابة شيكان. وهكذا انتصر محمد المهدي بن عبد الله وقواته على قوات الخديوية المصرية. وقد ترتب على معركة شيكان أن فقدت الحكومة المصرية آخر قوة نظامية للقضاء على محمد أحمد بن عبدالله. ولعل من أهم الآثار المباشرة لهذه المعركة هي انهيار الإدارة المصرية في كل من دار فور وبحر الغزال، حيث سلم سلاطين باشا مدير دارفور لقوات محمد المهدي في ديسمبر1883م، وسلم لبتون بك بحر الغزال في أبريل 1884م وبقى أمين باشا مدير خط الاستواء يصارع الفتن والقلاقل حتى وقع صريعاً في شباك الاستعمار الأوروبي[36].

ثانياً: الثورة المهدية في دارفور:

لب أهل دارفور نداء الثورة المهدية في دارفور، وتضافرت عوامل ساعدت على ذلك منها أن النظام المركزي الذي أدخله الحكم التركي ــ المصري لم يلائم طبيعة مجتمع دارفور القبلي الذي نفر من كل سيطرة خارجية. وبالإضافة إلى ذلك فقد أفقدت حرب الحكومة لتجار الرقيق (البقارة) مصدراً مهماً من مصادر رزقهم. ومن العوامل الأخرى التي شجعت البقارة على الثورة فداحة الضرائب التي أُلزموا بدفعها، وقصر عمر الإدارة التركية ــ المصرية بينهم وضعفها، فعندما أعلن محمد المهدي بن عبدالله دعوته لم يكن قد انقضى على الحكم التركي ــ المصري في دارفور غير سبع سنوات. وهذا الوقت لا يكفي بالطبع لتأسيس حكم قوي ثابت الدعائم، خاصة وأن المسؤولين قد انصرفوا لثلاثة أعوام متصلة (1877ــ1880م) لقمع ثورتي السلطان هارون وسليمان بن الزبير. ومن الأسباب المساعدة للثورة أيضاً انطباع البقارة ــ خاصة الرزيقات والهبانية ــ بحكم ظروفهم المعيشية على الحرب وقد انضم أغلبهم للمهدية حباً في القتال وطمعاً في الغنيمة[37] .

ارتبطت حوداث الثورة المهدية في دارفور بشخصية مادبو علي أحد شيوخ الرزيقات الذي كان خانقاً على الحكومة التركية ــ المصرية لعزلها له من

زعامـة القبيلـة في عـام1881م . فبينمـا كان يقيـم مـع أهلـه في بحـر العـرب وفـد عليـه رسـول مـن قدير يعـرض عليه دعـوة المهديـة فقبلهـا، وخـرج في عـدد مـن أتباعـه قاصـداً قدير لأخـذ البيعـة. وانخـرط مادبـو بعـد لقائـه مـع محمـد المهـدي بـن عبداللـه في صفـوف الأنصـار واشـترك معهـم ضـد قـوات حملـة يوسـف الشـلالي فأبـلى مادبـو في المعركـة التـي دارت بـين الأنصـار وقـوات يوسـف الشـلالي بـلاءاً حسـناً فعينـه محمـد أالمهـدي بـن عبداللـه أمـيراً عـلى الرزيقـات، وزوده بكتـب تحـث النـاس عـلى الثـورة ضـد الحكـم التركـي المـصري[38]. أرسـل مادبـو رسـالة إلى سـلاطين مديـر دارفـور طالبـاً منـه التسـليم إلا أنـه رفـض وتحصـن بـدارا [39]. وتمكـن مادبـو مـن الإسـتيلاء عـلى حاميـة شـكا في عـام 1882م. وتقـدم لينتـصر عـلى سـلاطين في معركـة أم وريقـات قـرب دارا في أكتوبـر 1882م, ووجـه سـلاطين بعـض المشـكلات منهـا تواطـؤ بعـض كبـار موظفـي الحكومـة مـع محمـد المهـدي بـن عبداللـه أمثـال محمـد خالـد زقـل , وأيضـاً سـخط جنـد الحكومـة في دارفـور عـلى وضعهـم وهـو أن يكـون حاكمهـم مسـيحياً , وبعـد سـقوط الأُبيـض في ينايـر 1883م، تحـرج الموقـف بالنسـبة للحكـم التركـي ـــ المـصري في دارفـور. وتفشـت روح التذمـر وعـدم الـولاء في صفـوف جنـود سـلاطين فاضطـر لإشـهار اسـلامه عـلى أمـل أن يسـتعيد ولاء جنـوده الذيـن خالفهـم في العقيـدة [40].

بعـد انتصـارات قـوات الثـورة المهديـة في كردفـان توالـت الهزائـم عـلى سـلاطين وانقطعـت صلتـه بالقاهـرة والخرطـوم. ولمـا لـم يكـن لسـلاطين جيـش قـوي يسـتطيع بـه أن يدخـل مـع الأنصـار في معركـة مكشـوفة، عمـد إلى سياسـة كسـب الوقـت آمـلاً أن ينتـصر هكـس باشـا ويخرجـه مـن الموقـف الخطـير الـذي ادخـل نفسـه فيـه. ثـم قـام بارسـال محمـد خالـد زقـل عـلى رأس وفـد إلى محمـد المهـدي بـن عبداللـه وقصـد مـن ذلـك أن يتخلـص مـن محمـد خالـد زقـل الـذي أصبـح عنـصراً غـير مرغـوب فيـه وأصبـح مصـدر خطـر لسـلاطين. غـير أن محمـد خالـد زقـل قـد انضـم إلى محمـد المهـدي بـن عبداللـه بعـد أن وقـف عـلى قـوة الأنصـار[41].

بعـد انتصـار قـوات الأنصـار عـلى قـوات هكـس باشـا في معركـة شـيكان في نوفمـبر 1883م أُرسـل محمـد خالـد زقـل إلى دارفـور خلفـاً لمادبـو. خـرج محمـد خالـد زقـل بجيشـه مـن الأبيـض في 12محـرم 1301هـ الموافـق 13نوفمـبر 1883م قاصـداً

دارفـور وأوصـاه محمدأحمـد بـن عبداللـه بتقـوى اللـه ومـن معـه مـن المسـلمين خـيراً، ثـم أمـر الأنصـار بالترفـع عـن الغنائـم [42]. وسـار محمـد خالـد زقـل حتـى دخـل أم شـنقة فجاءتـه حاميتهـا مستسـلمة. وكان رجـال الحاميـة قـد كتبـوا إلى محمـد المهـدي بـن عبداللـه معلنيـين خضوعهـم بعـد أن ضـاق بهـم الحـال بسـبب الحصـار الـذي فرضـه عليهـم ابراهيـم المليـح، لكنهـم امتنعـوا عـن التسـليم لـه خوفاً مـن بطشـه وإنتقامـه لأهلـه الذيـن قتلهـم جنـد الحكومـة، فـأوصى محمـد المهـدي ابـن عبداللـه محمـد خالـد زقـل بهـم وأمـره بمعاملتهـم بالرفـق والرأفـة. وبعـد وصـول محمـد خالـد زقـل إليهـم خرجـوا إليـه فبايعهـم وأرسـلهم إلى محمـد المهـدي ابـن عبداللـه في الأبيـض [43].

لـم يجـد سـلاطين ورجالـه مخرجـاً سـوى التسـليم إلى محمـد خالـد زقـل في شـعيرية يـوم 23ديسـمبر1883م، فبايعهـم ثـم سـاروا معـه نحـو دارا فخـرج أهلهـا وبايعوه. ولمـا تحقـق لسـيد جمعـة مديـر الفـاشر تسـليم سـلاطين ودخولـه تحـت الطاعـة أرسـل بمفاتيـح جميـع أماكـن حكومتـه بالفـاشر بعـد غلـق الأبـواب عـلى مـا فيهـا مـن الأسـلحة والجبخانـات والذخائـر وجميـع الآلات الحربيـة والأمـوال إلى محمـد خالـد زقـل بـدارا علامـة عـلى الطاعـة والتسـليم. ثـم إن سـيد جمعـة بلغـه مـن أفـواه المرجفـين بـأن هنـاك نجـدة سـوف تأتـي إليـه مـن مـصر بطريـق أسـيوط إلى دارفـور فاغـتر بذلـك وأعلـن المخالفـة وقتـل بعضـاً مـن أصحـاب محمـد خالـد زقـل الذيـن كانـوا حـول الخنـدق [44]. وقـد وقفـت حاميـة الفـاشر أيامـاً في وجـه محمـد خالـد زقـل إلا أنهـا اضطـرت تحـت وطـاة العطـش إلى الإستسـلام فدخلهـا الأنصـار في 14ينايـر1884م [45]. وبسـقوط الفـاشر فقـدت الإدارة التركيـة ـــــ المصريـة دارفـور أكـبر مديريـات السـودان واكتملـت لمحمـد المهـدي بـن عبداللـه السـيطرة عـلى غـرب السـودان كلـه.

الثورة المهدية في شرق السودان:

أمـا حـوادث الثـورة المهديـة في شرق السـودان فقـد ارتبطـت بشـخصية عثمـان دقنـة الـذي أدى دوراً فعـالاً في الموقـف المهـدوى بـشرق السـودان، حيـث كان تاجـر رقيـق في مينـاء سـواكن، وقـد قبضـت عليـه الحكومـة وسـجنته وصـادرت ممتلكاتـه، ولذلـك صـار ناقمـاً عـلى الوضـع وحـاول إثـارة النـاس في سـواكن ولكنـه فشـل، وقـد وجـد

عثمان دقنة الفرصة في ثورة محمد المهدي بن عبد الله فذهب إليه في كردفان وبايعه، وتم تعينه أميراً على الشرق وأمره بأن ينشر الدعوة المهدية في تلك المنطقة [46]. وقد أرسلت خطابات من محمد المهدي ابن عبد الله إلى شيوخ القبائل في شرق السودان، تمثلت في خطاب موجه إلى البشاريين والهدندوة وغيرهم وإلى الشيخ الطاهر المجذوب، وكافة المجاذيب وقبائل الجعليين، ثم خطاب آخر موجه إلى أهالي سواكن وآخر موجه إلى أهالي البلاد المحيطة بسواكن[47].

عاد عثمان دقنة من كردفان إلى البحر الأحمر، وبدأ في نشر الدعوة المهدية وكان من أبرز الذين بايعوه ثم نصروه الشيخ الطاهر المجذوب شيخ الطريقة المجذوبية بشرق السودان، الذي أمر أتباعه بمناصرة عثمان دقنة فاستجاب الكثيرون من قبائل البجة مثل بعض مشايخ الهدندوة [48].

وقد بدأ عثمان دقنة حركته العسكرية بالهجوم على سنكات في يوم 5 أغسطس 1883م ولكنه فشل وجرح. وما أن استرد صحته إلا وكر مرة أخرى فتمكن من قطع طريق التلغراف بين سواكن وكسلا، كما ضرب الحصار على كل من سواكن وطوكر وسنكات، فجهزت الحكومة حملة عسكرية بقيادة فالنتين بيكر، الذى حاول استخدام الوسائل السلمية بدلاً عن استخدام القوة إلا أنه فشل، فقرر استخدام سلاح القوة ضد عثمان دقنة ورجاله ولكنه هُزم في 10 ربيع الثاني 1301هـ ـــــ 8فبراير1884م[49] .

وقد أثارت هزيمة فالنتين بيكر الخوف فى سواكن، واضطرت الحكومة البريطانية التي أخذت على عاتقها حماية موانئ البحر الأحمر، إلى التدخل فسيرت حملة من مصر إلى السودان بقيادة الجنرال جراهام لحماية سواكن وطوكر في يوم 24 فبراير1884م، فقرر الزحف نحو عثمان دقنة وقواته ووقعت معركة حامية الوطيس هزمت فيها قوات عثمان دقنة في يوم أول جمادى الأول1301هـ ـــــ 29فبراير1884م، ثم أعقبها انتصار آخر لقوات جراهام في يوم 14 جمادى الاول1301هـ-3مارس1884م ، ولكن بالرغم من تلك الهزائم ظل عثمان دقنة على نشاطه وقوته مسيطراً على طريق سواكن-

بربر، وبقيت سواكن حصناً منيعاً بأيدي المصريين أمام عثمان دقنة وقواته، حتى احتلال السودان عام1898م[50].وهكذا تمكن عثمان دقنة من نشر الدعوة المهدية في شرق السودان بعد أن انتصر على قوات الحكومتين الإنجليزية والمصرية صاحبة الكفاءة والخبرة العسكرية آنذاك .

بعثة غردون إلى السودان ونتائجها:

كانت الهزيمة التي منى بها جيش هكس في شيكان قد أوقع حكومتي بريطانيا ومصر في موقف جديد وهو خطورة الموقف في السودان، فبينما كان المصريون يصرون على مواصلة المقاومة ويلحون على قنصل بريطانيا(بيرنج) أن تقبل الحكومة البريطانية مبدأ إرسال جنود بريطانيين أو هنود أو أتراك للسودان، كانت الحكومة البريطانية تصر على سياسة إخلاء السودان بأكمله، ولا مانع لديها من إرسال قوات عثمانية على أن تتكفل الحكومة التركية بنفقاتها، بالإضافة إلى موافقة الحكومة البريطانية بإرجاع شواطئ البحر الأحمر للدولة العثمانية، فوصلت التعليمات بذلك يوم 4 يناير 1884م، فاضطر شريف باشا رئيس الوزارة المصرية آنذاك من تقديم استقالته للخديوي توفيق [51] . ومما جاء فيها(قد اقترحت علينا دولة مملكة انجلترا المعظمة أن نخلي السودان، و ليس لنا حق فعل ذلك لأن هذه الولاية من ممتلكات الدولة العلية... وأن نقتدي بنصائحها بدون مذاكرة فيها. ولا يخفى أن هذه الاقتراحات مخالفة لفحوى النظامات الشورية الصادرة في 28 من شهر أغسطس سنة 1878م التي نص فيها على أن الخديوي يجري أحكام البلاد باشتراكه مع النظار، فبناءً على ذلك نضطر هنا إلى أن نطلب من مقامكم العالي أن تقبلوا استعفاءنا لأنه لا يمكن لنا والحالة هذه أن ندير البلاد على أصول شورية) [52].

أرسلت الحكومة البريطانية الجنرال غردون ليقوم بمهمة الإخلاء[53]. ولكن حملة الصحف البريطانية كانت لصالحه حيث شاركت في تلميعه وإظهاره كرجل الساعة، وأنه أنسب من يتولى تلك المهمة، زد على ذلك أن غردون كان يعرف طبيعة البلاد السودانية [54].

وفى بربر أعلن غردون عزم الحكومة على إخلاء السودان، وبعث بكسوة شرف لمحمد المهدي وبكتاب يعينه بموجبه حاكماً على كردفان، كما أعلن أيضاً

بأنـه سـوف يتنـازل عـن المتأخـر مـن الضرائـب سـنتين في المسـتقبل، وألغـى الأوامـر الصـادرة بمنـع تجـارة الرقيـق[55] .

وهنـا يقـول الدكتـور محمـد سـعيد القـدال (...التعيـين لا يضيـف جديـداً بالنسـبة للمهـدي فهـو يسـيطر فعـلاً عـلى كردفـان، كمـا يوضـح جهـل غـردون بحركـة المهـدي وبشـخصيته، وبمجمـل الأوضـاع التـي اسـتجدت في البـلاد)[56] فلـم يكـترث محمـد المهـدي ابـن عبداللـه لكتـاب غـردون ورد إليـه الهديـة ومعهـا رسـالة حـوت رفضـه التعيـين، ويدعـو غـردون إلى اعتنـاق الإسـلام فعـزم غـردون عـلى محاربـة محمـد المهـدي بـن عبـد اللـه أولاً ثـم تنفيـذ إخـلاء السـودان ثانيـاً[57].

أمـا محمـد المهـدي بـن عبداللـه ورجالـه فقـد حـاصروا الخرطوم عـن طريـق الجزيرة في منتصـف مـارس1884م، حيـث تـم للشـيخ العبيـد وود البصـير قفل الطـرق المؤدية للخرطـوم إلا عـن طريق النهـر، وحتى في هـذا فقد كان مـن الصعب على البواخـر القيام بالاخـتراق[58]. كمـا تـم عـزل الخرطـوم عـن العالـم الخارجـي، عندمـا اسـتولت قوات محمـد المهدي عـلى بربر في يـوم 23 رجـب 1301هـ-19 مايـو1884م ، بقيـادة محمد الخير(أسـتاذ محمـد المهـدي بـن عبدالله) وأيضاً سـيطرتهم عـلى طريق سـواكن- بربر بفضـل جهـود عثمـان دقنـة ورجالـه[59] . ثـم وصـل محمـد المهدي بـن عبدالله نفسـه في سـتين ألـف مقاتـل ونـزل عند ديـم أبى سـعد (جنـوب أم درمـان الحاليـة) في أواخر أكتوبـر1884م، فـزاد الحصـار حكماً عـلى مـا كان عليه من قبـل[60].

وفى الخرطـوم المحـاصرة كانـت حالـة السـكان النفسـية سـيئة وبـدأوا يحسـون بوطأة الجـوع حتـى أن غردون قـد بعث بالعجـزة والرقيق والمسـاكين إلى محمد المهـدي وكانت الحالـة سـيئة في طابية أم درمـان. وفى أول يناير1885م هاجمت قـوات حامية الخرطوم قـوات محمـد المهـدي بـن عبـد الله لفـك الحصـار وارتدوا ثـم سـلمت طابيـة أم درمان بعـد نفـاذ قوتهـا فأكرمهم محمد المهـدي بن عبد اللـه وأدخلهم في جهاديتـه، وجعل فرج اللـه باشـا (قائـد طابيتهـم) أمـيراً عليهـم. كما أمـر محمـد المهدي بـن عبد اللـه رجاله بالمعاملـة الحسـنة للاجئين وبدأ يخاطـب أهل الخرطـوم والذين انهـارت معنوياتهم بعد تسـليم أم درمـان في يوم (5 ينايـر 1885م) وخاطب غردون عله يستسـلم فلم يسـتجب غردون[61].

وهكـذا وصـل غـردون بسـوء تصرفـه تجـاه محمـد المهـدي بـن عبـد اللـه إلى حالـة مــن الخطــورة إذ أصبــح محــاصراً يحيــط بــه رجــال محمــد أحمــد بــن عبــد اللــه مــن كل الجهــات.

وتحــت ضغــط مجلــس العمــوم البريطانــي والصحافــة البريطانيــة، قامــت الحكومــة البريطانيــة بإرســال حملــة عســكرية لإنقــاذ غــردون بقيــادة عــدد مــن الضبــاط البريطانيــين وعــلى رأســهم اللــورد ولســلي، وبهــذا وجــد محمــد المهــدي بــن عبــد اللــه نفســه في صراع وســباق مباشريــن مــع الجيــش البريطانــي للاســتيلاء عــلى الخرطــوم[62].

وعندمـا علـم محمد المهدي باقـتراب قوات حملـة الإنقاذ قـرر الهجوم عـلى الخرطوم فتم لـه ذلك في فجـر يوم (9 ربيـع الثاني 1302هــ -26 يناير1885م) حيـث ركز المهديون عـلى فجوة في اسـتحكامات دفاع الخرطـوم ودار قتال عنيف أدى إلى فتح الاسـتحكامات المضروبـة حـول الخرطـوم فانهـارت مقاومـة جنـود حامية الخرطـوم بعـد أن قتل من قتـل واستسـلم الباقون وكان غـردون من ضمـن القتلى[63] .

أمـا قـوات حملـة الإنقاذ فقـد وصلوا الخرطـوم في يوم 11 ربيـع الثانـي 1302هـ -28 ينايـر 1885م ، ليجـدوا أن غـردون قد مـات وأن الخرطـوم قد تحررت فرجعـوا بعد أن تعرضوا للنـيران الحامية[64].

هكـذا كان لتحريـر الخرطـوم على أيدي قـوات الثـورة المهديـة ومقتل غـردون واندحار حملـة الإنقـاذ ضربة موجعـة لأقوى دولـة اسـتعمارية آنذاك.

أسباب نجاح الثورة المهدية:

تهيـأت كل أسـباب النجـاح للثـورة المهديـة في السـودان، وفى هـذا الصدد يقـول عبد الرحمـن الرافعـى أنـه عنـد قيـام الثـورة المهدية(1298هــ-1881م) كان عـلى إدارة السـودان أضعـف الحـكام وأقلهـم كفـاءة وشـجاعة، ألا وهـو الحكمدار محمـد رؤوف الـذى كان وجـوده مـن أكبر الأسـباب في ظهـور الثـورة المهديـة وانتصارهـا[65].

وعندمـا جهـر محمـد المهـدي بـن عبداللـه بدعوتـه أرسـل إلى الحكمـدار محمـد رؤوف كتابـاً يحـذره فيـه ويقول(فمـن عبـد ربـه محمـد المهـدي بـن السـيد عبـد اللـه إلى

الحكمـدار بالخرطـوم وبعـد... فالأمـر المطلـوب كشـفه أن دعائـي الخلـق عـلى تقويـم السـنة والهجـرة بالديـن ممـا عليـه الطبـاع الزمنيـة أمـر مـن سـيد الوجـود (صـلى اللـه عليـه وسـلم) والإعـلام بأنـي المهـدي المنتظـر مـن سـيد الوجـود (صـلى اللـه عليـه وسـلم) مـرات عديـدة مـع الهواتـف الإلهيـة وعلامـات أخـبر بهـا سـيد الوجـود (صـلى اللـه عليـه وسـلم) فمـن تبـع صـار مـن المقربـين الفائزيـن، ومـن خالـف خذلـه اللـه في الداريـن وصـده بقوتـه، التـى يعجـز عـن معارضتهـا جميـع العالمـين. وأمـا المواعـظ للمؤمنـين فهـي مبينـة فمـن لـم يصـدق طهـره السـيف... ومـن أتانـا بالعـداوة يأخـذه اللـه أمـا بالخسـف أو الغـرق... وفى مـا ذكرتـه كفايـة يكتفـي بهـا أهـل العنايـة...)[66]، فجمـع الحكمـدار محمـد رؤوف العلمـاء وأطلعهـم عـلى كتـاب محمـد المهـدي بـن عبـد اللـه فالتمـس بعضهـم لـه عـذراً بأنـه قـد حصـل لـه جـذب سـماوى، ولكنهـم أجمعـوا عـلى ضرورة القبـض عليـه قبـل اتسـاع الخـرق. فنـدب الحكمـدار محمـد رؤوف لهـذا الأمـر أحـد معاونيـه وهـو محمـد بـك أبـو السـعود وعندمـا ذهـب إلى محمـد المهـدي ابـن عبداللـه وجـده جالسـاً وحولـه بعـض مـن تلاميـذه فسـلم عليـه وقـال:(إن حكمـدار السـودان قـد بلغـه أمـر الدعـوة التـي قمـت بهـا، وأرسـلني لآتـى بـك إليـه بمدينـة الخرطـوم وهـو ولى الأمـر الـذي تجـب طاعتـه، فأجابـه محمـد المهـدي بـن عبداللـه: أمـا مـا طلبتـه مـن الوصـول معـك إلى الخرطـوم فهـذا ممـا لا سـبيل إليـه، وأنـا ولى الأمـر الـذي تجـب طاعتـه عـلى جميـع الأمـة المحمديـة) [67] .

ممـا سـبق يتضـح لنـا أن أفـدح خطـأ ارتكبـه الحكمـدار محمـد رؤوف هـو ظنـه أن محمـد المهـدي بـن عبداللـه شـخص في حالـة جـذب سـماوي ، ولذلـك حـاول إقناعـه بالمنطـق فارسـل إليـه أحـد معاونيـه لإحضـاره إلى الخرطـوم ، إلا إن محمـد المهـدي ابـن عبداللـه أصر عـلى دعوتـه.

ومـن بـين الأسـباب التـي أدت إلى نجـاح الثـورة المهديـة أن الحكومـة لم تتخذ سياسـة ثابتـة في إخمـاد الثـورة المهديـة بـل إنهـا أظهـرت كثـيراً مـن الـتردد والارتبـاك فى مواقـف الحـزم والعـزم ، وقـد ترتـب عـلى ذلـك فقـدان الحكومـة لجميـع حامياتهـا بحيـث اضطـرت للعـودة إلى حدودهـا بمـصر[68].

وأورد محمد محجوب مالك في كتابه(المقاومة الداخلية للحركة المهدية) أن المكانة الدينية التي عرفها الناس في محمد المهدي بالإضافة إلى مقدراته القيادية في الاستفادة من الظروف التي كانت محيطة به قد أتاحت له أن يجمع الناس حوله، وحسم موقف المترددين، كما أن ضعف الحكومة قد أدى إلى خذلان القبائل والطوائف الموالية له ا[69].

وقد ذكر هولت أن طبيعة الثورة المهدية في السودان أدت إلى مواجهة كل من حكمدارية الخرطوم وحكومة القاهرة فمحمد المهدي لم يكن متمرداً بل كان زعيماً دينياً دعا الناس للجهاد في سبيل الله من أجل بناء مجتمع تسوده الروح الإسلامية [70]

ولابد لنا ونحن نتحدث عن أسباب نجاح الثورة المهدية_ أن نورد نقطة وهى أن الحاميات العسكرية بالسودان قد كانت تعانى من الضعف، وقد بلغ عدد جنودها 40490 جندياً موزعين على خمس عشرة حامية فى مدن السودان و أقاليمه المختلفة، وهذا يعنى أنها كانت بعيدة عن بعضها البعض ، ولم تكن هذه الحاميات محصنة ولما حصنت أيام الثورة المهدية كان في كل حصن خطأ دفاعي، بالإضافة إلى ذلك لم يكن كل الجنود من القوات النظامية بل كان بينهم جنود غير نظاميين (الباشبوزق) ، الذين لم يكن لديهم خبرة بفنون القتال وقد تعودوا على الترف والراحة بعكس أهل السودان الذين كانوا مطبوعين على الفروسية والشجاعة، وأيضاً تعودوا على الحرب فصدقوا محمد المهدي وأحبوا الموت معه في سبيل الله[71].

وقد تزامن إعلان الثورة المهدية في السودان مع حدثين مهمين، يمكن اعتبارهما عاملين وطنيين ساعدا في إذكائها أحدهما اندلاع ثورة أحمد عرابي بمصر سنة (1881-1882م) فلم يتأت للحكومة الخديوية أن تتفرغ لأمر ثورة محمد المهدي وتنجد السودان بالعساكر قبل انتهاء الثورة العرابية في مصر، ثم لم تنته هذه الثورة حتى كانت الثورة المهدية قد عمت السودان كله، فضلاً عن ذلك نجد أن الحكومة الخديوية في مصر نفسها كانت غارقة في مشاكلها الداخلية والخارجية. أما العامل الثاني فيتمثل في ظهور شخصية الخطيب

المصري أحمد العوام الذي جيء به منفياً إلى السودان لاتهامه بتأييده للثورة العرابية فلعب دوراً كبيراً في إلهاب الحماس الوطني ضد الحكومة الخديوية[72].

ولعل من بين أسباب نجاح الثورة المهدية الاحتلال الإنجليزي لمصر سنة 1882م، الذي أدى إلى ضعفها تماماً من الناحية السياسية والناحية العسكرية فأضحت خاضعة للسياسة الإنجليزية. ودليلنا على ذلك أن الإنجليز بعد قضائهم على الثورة العرابية قاموا بتسريح الجيش الوطني، وجردوا مصر من قوتها الحربية والبحرية، مما ترامى صداه في نواحي السودان فأغرى بها الثائرين, وقد حالت إنجلترا دون كبح جماح الثورة المهدية وأكرهت الحكومة الخديوية على إخلاء السودان بحجة عجزها عن إخماد الثورة المهدية. وكانت سياسة إنجلترا لمصر بعد احتلالها ترمي إلى نشر الثورة المهدية في السودان وذلك لاتخاذها سبباً لبقائها بمصر بل نجد أن إنجلترا قد كانت فرحة بانتصارات الثورة المهدية في السودان على القوات الحكومية, ولهذا لم يتركوا للمصريين حرية القضاء على الثورة بدليل أنهم أبعدوا الحكمدار عبد القادر حلمي عن حكمدارية السودان لما رأوا انتصاره على بعض الثائرين فلا شك أن سياسة إنجلترا تعتبر من أهم العوامل التي ساعدت على نجاح الثورة المهدية تحقيقاً لمطامعها الاستعمارية[73].

وهنالك جانب آخر مهم من أسباب نجاح الثورة المهدية فى السودان ألا وهو الجانب الاستخبارى إذ تتحدث إحدى الوثائق التاريخية عن عثور عيون محمد المهدي على نسخة من جريدة (البرهان)، التي تصدر في مصر، وكانت المواضيع التي تعالجها تنصب حول موضوع الساعة آنذاك والذي يشغل نظام الحكم في مصر، ألا وهو دعوة محمد المهدي بن عبدالله والنقاش الذي يدور في مصر حوله. وأنهم (أي الخديوية) يرون أن دعوة المهدية ما هي إلا فتنة في الدين، وأن الأحاديث الواردة في محمد المهدي كلها ضعيفة، ولا يصلح الاعتماد عليها لعدم صحتها. هذه الآراء المنشورة بجريدة (البرهان) تصب كلها في خانة الدفاع عن الخديوية المصرية ومصالحها، وبالتالي هي بمثابة مرآه عاكسه لمحمد المهدي ولو أنها لم تعكس موقف الرأي المصري فإنها تعكس فقط وجهة نظر الخديوية المصرية المعارضة تماماً لتوجيهات الدعوة

المهديـة. وتشـير الوثيقـة إلى أن محمـد خالـد زقـل أمـير دارفـور قـد ضبـط بوسـتة سـنة 1883م ووجـد مـن بينهـا خطابـاً مـن الخديـوي محمـد توفيـق إلى سـلاطين الـذي كان مديـراً عـلى دارفـور بتاريـخ 2 ديسـمبر1883م (بيـد مخصـوص) إلا أن هـذا الشـخص قـد قبـض عليـه وكشـفت الأسرار التـي كانـت بالخطـاب، ويسـتطرد أمـير دارفـور موجهـاً حديثـه للخديـوي محمـد توفيـق(إن البريـد الـذي كان مرسـلاً منكـم بيـد سـتة أشـخاص مـن عربـان المغاربـة لـدار فـور فبمجـرد دخولهـم (أي العربـان) الديـار قبـض عليهـم عربـان الزياديـة وأحضروهـم إلينـا ففتحنا البوسـتـة فوجدنـــا بينــــها خطابـين أحدهمـا منكـم والثانـي مـن محمـد شريـف رئيـس النظـار... أمـا فحـوى خطابكـم فقـد علـم أنـه يتحـدث عـن تعـسر إطلاعكـم عـلى أحـوال دارفـور، نظـراً لمـا أصـاب طـرق المواصـلات مـن معايـب وأنـه بلغكـم الآن أن أهـل دار فـور في أمـن وأمـان وقـد اعتبرتـم ذلـك مـن حسـن تدبـير سـلاطين وأنكـم سـاعون في ضعضعـة رجـال المهـدي ... وتطلبـون مـن سـلاطين بـذل الجهـد في ثبـات الأهـالي واسـتعمال الطـرق النافعـة لذلـك ... تتحدثـون عـن وجـود محمـد أحمـد المهـدي في كردفـان... وأنكـم تنـوون إرسـال العسـاكر والضبـاط وأصحـاب النجـدة والمعرفـة والتدبـير والمدافـع والجبخانـات الكافيـة وأنـه عمـا قريـب تصلكـم الأخبـار السـارة ولا يكـون لهـذا الشـخص أي المهـدي أي تأثـير أو وجـود. أمـا خطـاب رئيـس النظـار فمضمونـه أن هنالـك خطابـات قـد وصلتـه مـن حـكام دار فـور يطلبـون فيهـا إرسـال إمـدادات وأن الحكومـة عـلى اسـتعداد لإرسـال تلـك الطلبيـات... فقـد عثرنـا مـع تلـك الخطابـات عـلى أربعـين نسـخة مؤلفـة مـن بعـض العلمـاء يدعـون أنهـا نصائـح وهـى رد عـلى خطـاب مـن خطابـات المهـدي التـي أرسـلها لبعـض الجهـات).[74]

ولعـل معرفـة قـادة الثـورة المهديـة بهـذا الكـم الهائـل مـن المعلومـات قـد جعلهـم فى وضـع متميـز، حيـث أصبحـوا يحسـبون لـكل صغـيرة وكبـيرة في ضـوء مـا توافـر لديهـم مـن معلومـات بـل ولعلنـا لا نجانـب الصـواب إذا قلنـا أن نشـاط العمـل الاسـتخبارى قـد لعـب دوراً مهمـاً في تلـك الانتصـارات التـي حققتهـا الثـورة المهديـة.

وهنالـك أيضـاً وثيقـة أخـرى تدلنا عـلى براعـة محمد المهـدي وتغلغـل دعوتـه في البلاد المصريـة بـين العامـة وأصحاب القـرار إذ تقـول (إن وكيـل مكتـب دنقلة يـوم تاريخ 8

أكتوبر 1884م أحضر البوستة الصادرة من بحري فبفتحها كالعادة وجد خطاباً داخل مظروف لم يكن عليه اسم المحرر منه... فقد كتب إلينا حضرة السيد الأجل حامل لواء الإسلام المبشر على لسان سيد الأنام السيد محمد أحمد أعز الله نصره يشكركم على إخلاصكم وصداقتكم في خدمة دينكم... أمرنا السيد الأكبر (المهدي) ألانتواني في أخباركم ببعض الأحوال السياسية فى أوربا ونحن كما تعهدنا لا نفرط في استمرار الكتابة ومواصلتها غير أن بعض رسائلكم تصل إلينا متأخرة وإننا في قلق من «الرقيم» الذي بعثناه بتاريخ 15 يوليو حيث لم يصلنا خبر وصوله إلى الآن ، فنرجو الإفادة ولو بإشارة تلغرافية بالرمز الذي تعلمون... الآن نخبركم بالمزيد عما سبق إخباركم به أن الشقي ولسلي والشقي نورثبروك وصلا القاهرة، وقد بينا لكم في رقيم سابق سوء ما عزما عليه بالنسبة للمسلمين إلا أنه ينبغي ألا تخشوا بأسهما فان الإنجليز ليست عندهم قوة حقيقية، وإنما هي أوهام وخيانة فقط ، فأثبتوا في مقامكم وعليكم أن تكتموا أمركم غاية الكتمان فان عليكم الرقباء... إخوانكم عربان طرابلس الغرب، وعربان الشرقية والبحيرة معكم قلباً وقالباً والباقون لا يتأخرون عنهم ، وإنما هم في انتظار اليوم الموعود وصدور الأمر من السيد الأكبر (المهدي) ... رياض باشا وشريف باشا وصاحبنا القديم مصطفى فهمي باشا، وسليمان باشا أباظة ومعهم أغلب رجال الحكومة وأكابر البلاد جميعهم متفقون على معاكسة الإنجليز في أعمالهم والسعي في خيبة أمالهم وهم معكم بقلوبهم وهممهم، وإن كانوا يكتمون ذلك اليوم المعلوم فإذا جاء الأمر رأيتم الجميع فى العمل فكونوا مطمئنين وداوموا على كتمان أخبار الخرطوم كما تعلمتم ولا تظهروا شيئاً حقيقياً من حركات السيد الأكبر فالحرب خدعة) [75].

مما سبق تتضح لنا المكانة الشعبية التي تمتعت بها دعوة محمد المهدى ابن عبدالله وثورته فضلاً عن الوعي السياسي الناضج وبعْد النظر، حيث أن الثورة المهدية لم تغفل البعد الإقليمي والدولي إذ نراها تسعى إلى طلب معلومات عن الأحوال السياسية في أوربا وهذا يعنى أنها كانت تعي تماماً ما يمكن أن تلعبه تلك الدول الأوروبية. ويضاف إلى هذا إن عملية العمل الاستخباري قد اخترقت صفوف صناع القرار، وبالتالي استطاعت العملية الاستخبارتية استغلال الوسائل المتاحة آنذاك مثل التلغراف بالإضافة إلى استخدام الشفرة المتفق عليها

بين الجانبين، كما رأينا تعاطف كبار الشخصيات المصرية لمحمد المهدي ابن عبدالله آملين أن تنجح الثورة المهدية فيما فشلت فيه الثورة العرابية ليس في السودان فحسب بل في مصر في عصر خيم فيه الاستعمار الأوربي على دول العالم الإسلامي، وتزايد فيه السخط العام على هذا الاستبداد الأوربي, فتطلع العالم الإسلامي إلي منقذ يخلصهم من الاستعمار الأوربي، فوجد ذلك في الثورة المهدية، باعتبارها تمثل صحوة إسلامية ضد الاستعمار الأوربي وبهذا حق لكافة المسلمين تأييدها، فلا غرابة أن اتجهت إليها الأنظار في مناطق إسلامية عديدة كرمز يجسد لآمالهم في الخلاص .

ولا يفوتنا أن نضيف سبباً آخر للنجاح ألا وهو العامل الديني الذي جمع حول الثورة المهدية قلوب الشعب السوداني, فدعوة المهدية في المقام الأول دينية ترمى إلى إعادة الإسلام إلى أيامه الأولى، في بلد تقدس الدين، وتؤمن بالكرامات، بالإضافة إلى ذلك الانتصارات الأولى التي حققتها جيوش الثورة المهدية رغم عدم التكافؤ بينها وبين جيوش الإدارة التركية- المصرية من حيث العدد والمؤن العسكرية مما يؤكد للعامة أن هنالك قوة خارقة تسند محمد المهدي بن عبد الله، والكثيرون منهم يتبعونه، فتمت المبايعة بقولهم (نبايعك على المهدية وإن لم تكن مهدياً... نبايعك على قتال الحكومة وخلع طاعتها)[76].

هوامش الفصل الثالث :

(1) مكى شبيكة , تاريخ شعوب وادى النيل(مصر والسودان) فى القرن التاسع عشر الميلادى، بيروت , 1965م , ص 648ــــــ 649.

(2) محمد إبراهيم أبوسليم , منشورات المهدية، المرجع السابق ، ص12-13

(3) عبدالله محمد أحمد , المرجع السابق ، ص6

(4) المرجع نفسه ، ص 8 - 10

(5)محمد عبدالرحيم , النداء فى دفع الافتراء، القاهرة ، 1952 م ، ص131

(6) إسماعيل عبدالقادر الكردفاني، المصدر السابق، ص124

Holt, P.M: OP.Cit,P.42(7)

(8) نعوم شقير ، المصدر السابق ، ص654 .

Churchil. W,S:The River War, London,1899.Voll.P.16 :(9)

(10) محجوب عمر باشرى ، المرجع السابق ، ص75

(11) نعوم شقير ، المصدر السابق ، ص655- 656

(12) محجوب عمر باشرى ، المرجع السابق، ص76

(13) مكى شبيكة ، السودان فى قرن ، ط2, القاهرة ، 1376هـ-1957م ، ص146

(14)نعوم شقير، المصدر السابق،ص657

(15)المصدر نفسه ، ص655

(16) محمد سعيد القدال ، تاريخ السودان الحديث(1830-1955م) الخرطوم1992م، ص125- 126 . النضيرة وهى نار يشعلها أهالي جبال النوبة ليلاً فوق القمم عندما يدخل أراضيهم جيش غريب

(17) نعوم شقير ، االمصدر السابق، ص657

(18) محمد سعيد القدال ، المرجع السابق، ص126

(19) مكى شبيكة، المرجع السابق ، ص151- 153

(20) عبدالله محمد أحمد ، المرجع السابق، ص33.

(21) محجوب عمر باشرى ، المرجع السابق، ص77

churchill,W,S: Op.Cit,p.33(22)

(23) نعوم شقير ، المصدر السابق ، ص682

(24) مكى شبيكة ، تاريخ شعوب وادي النيل(مصر والسودان) فى القرن التاسع عشر الميلادي ، المرجع السابق، ص661

(25) نعوم شقير ، المصدر السابق ، ص693

(26) محمد سعيد القدال ، المرجع السابق ، ص136

(27) عبد المحمود أبوشامة ، من أبا الى تسلهاى(حروب حياة الامام المهدى)،1986م، ص47

(28) نعوم شقير ، المصدر السابق ، ص 702 ـــــــ 706.

(29) المصدر نفسه ، ص 696.

(30) المصدر نفسه ، ص 712 .

Holt,P.M :Op cit,P.61(31)

(32) نعوم شقير ، المصدر السابق، ص715

(33) محمد سعيد القدال ، المرجع السابق، ص141

Holt,P.M :Op cit,P.63 (34)

(35) عبد المحمود أبو شامة ، المرجع السابق ، ص63

(36) الشاطر بصيلي عبد الجليل ، المرجع السابق, ص173

(37) موسى المبارك ، تاريخ دارفور السياسي ,ط2، دار الخرطوم للطباعة والنشر والتوزيع, 1995م ، ص 50 ـــــــ 52 .

(38) المرجع نفسه ، ص 50 ــــــ 51 .

(39) المرجع نفسه ، ص 53 .

(40) بشير كوكو حميدة ، صفحات من التركية والمهدية، دار الارشاد ،الخرطوم د.ت ، ص 168-169 .

(41) المرجع نفسه ، ص 169 .

(42) إسماعيل عبدالقادر الكردفاني، المصدر السابق ، ص 287 - 288

(43) المصدر نفسه ، ص 289 ـــــــ 290 .

(44) المصدر نفسه ، ص 292 .

(45) بشير كوكو حميدة ، المرجع السابق ، ص 169 .

(46) محمد إبراهيم أبو سليم ، مذكرات عثمان دقنة ، ط2، شركة دار البلد للطباعة والنشر والتوزيع، 1998م، ص2ـــــــ4.

(47) المرجع نفسه، ص31.

(48) نعوم شقير ، المصدر السابق ، ص 747

(49) المصدر نفسه ، ص749 – 754

Holt.M :OP, Cit,P.78-P.79(50)

(51) مكى شبيكة ، السودان عبر القرون ، ص301 – 307

(52) محمد فؤاد شكري ، مصر و السودان، تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر 1820-1899م ، ط3 القاهرة 1963م ، ص310

(53) Holt, P.M: OP.Cit, P.79

(54) محمد سعيد القدال ، المرجع السابق ، ص147

(55) مكى شبيكة ، المرجع السابق، ص323

(56) محمد سعيد القدال ، المرجع السابق ، ص148

(57) مكى شبيكة ، المرجع السابق ، ص 334- 335

(58) المرجع نفسه ، ص332

(59)Holt, P.M : P.Cit,P.91

(60) نعوم شقير ، المصدر السابق ، ص827

(61) مكي شبيكة ، المرجع السابق ، ص 346ـــــــ 351.

(62) عبدالعزيز حسين الصاوي ومحمد علي جادين ، الثورة المهدية ـــــ مشروع رؤية جديدة , ط7, 1407هـــ 1987م ، ص 95.

(63) نعوم شقير ، المصدر السابق ، ص 864 ـــــ 867 .

(64) مكي شبيكة ، السودان في قرن ، ط2، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1376هـ ـــــ 1957م، ص 226 ـــــ 227

(65) عبد الرحمن الرافعى ، المرجع السابق، ص90

(66) إسماعيل عبدالقادر الكردفاني، المصدر السابق، ص120-121

(67) نعوم شقير ، المصدر السابق ، ص652

(68) المصدر نفسه ، ص636

(69) محمد محجوب مالك ، المرجع السابق ، ص37

Holt, P.M: OP,Cit, P.33()70

(71) نعوم شقير ، المصدر السابق ، ص635-636

(72) عبد الله صالح أبو سفيان ، المرجع السابق ، ص222

(73) عبد الرحمن الرافعى ، المرجع السابق، ص91

(74) محفظة رقم102 قسم الوثائق الأفريقية (دار الوثائق القومية. القاهرة) من محمد خالد للخديوي 5جمادى أول1301هـ-4مارس 1884م ، نقلاً عن أضواء على الجاسوسية في عهد المهدي للدكتور محمد الأمين سعيد (بحث لم ينشر) ، ص 2 – 3.

(75) خطابات وتلغرافات مديربة دنقلة1/6 قسم الوثائق الافريقية 8 أُكتوبر1884م دار الوثائق القومية. القاهرة. نقلاً عن أضواء على الجاسوسية فى عهد المهدي للدكتور محمد الأمين سعيد (بحث لم ينشر) ، ص 4 – 6 .

(76) إبراهيم فوزي، المصدر السابق، ص 85 .

الفصل الرابع

اتجاهات الدولة المهدية الاجتماعية
فى السودان

الفصل الرابع

اتجاهات الدولة المهدية الاجتماعية
فى السودان

تمهيد:

- القيم التربوية للدولة المهدية.
- محاربة العادات الاجتماعية الضارة.
- محاربة المفاسد الأخلاقية.
- وضع المرأة في الدولة المهدية.
- الرقيق في الدولة المهدية.
- مدينة أم درمان حاضرة الدولة المهدية.

تمهيد:

عندما أعلن محمد المهدي بن عبدالله أن ثورته تهدف إلى إحياء القيم الإسلامية بخلق مجتمع يقوم على تعاليم الإسلام التي تتجه في أحكامها إلى تحقيق أهداف اجتماعية نبيلة ومقاصد كريمة، لذا اهتم اهتماماً كبيراً بتربية الفرد في المقام الأول باعتباره العنصر الأساسي في بناء المجتمع. وحتى تؤتي هذه التربية ثمارها أصدر مجموعة من قوانين الإصلاح الاجتماعي التي أحدثت تغييرات واسعة في حياة المجتمع السوداني وساهمت في تنقية المجتمع السوداني مما كان يعلق به من شوائب.

القيم التربوية للدولة المهدية:

كانت الثورة المهدية بمثابة حركة توحيد في جوهرها، فهي التي نشرت لواء الشريعة الإسلامية على أرض السودان، ونادت بالعودة إلى أصل الدين المتمثل في الكتاب والسنة وحدهما، فركز محمد المهدي بن عبدالله على تربية الفرد على نمط إسلامي بحسبانه العنصر الأساسي في بناء المجتمع المسلم. فالمهدية إذاً امتداد لصدر الإسلام الأول ومندرجة فيه.

أولا: التوحيد :

ويلاحظ الدارس لمنشورات ورسائل محمد المهدي بن عبدالله أنه قد ردد هذه المعاني في كثير من أقواله وأحكامه المطابقة للفكر السلفي ومنابعه.

ففي دعوته إلى توحيد الله تعالى بالتوجه والدعاء والعبادة يقول محمد المهدي بن عبدالله (ياأحبابي , فقد بايعتموني على ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولاتزنوا , ولا تأتوا ببهتان , ولا تعصوني في معروف ... وأن تزهدوا في الدنيا وتبذلوا أنفسكم وأموالكم في سبيل الله ... فإن بيعتكم هذه هي بيعة الله ورسوله، إذ أن من بايعني فقد بايع الله ورسوله ... فوحدوا الله في كل شيء ... وكل من نظر إلى شيء دون الله وأثر في قلبه أنه ينفع أو يضر فقد أشرك في الحقيقة، إذ أن كل ما سوى الله باطل ... ومن كان يوحد الله ويرجو لقاء الله لايميل لشيء دون الله فيطمئن به فيصرفه عن الله ويكون ممن خسر دنياه

وآخرتـه . لأن منفعـة الغـير التـي يراهـا مـن غـير حقيقـة تصـد قلبـه عـن التمسـك باللـه فيتمسـك بذلـك الغـير، فيكـون مقطوعـاً عـن اللـه ... فمـن اعتمـد عـلى شيء دون اللـه وفـرح بـه فقـد جهـل . وكـذا مـن رجـا شـيئاً دون اللـه . ويعلـم مـن ذلـك أن مـن تفخـر بـشيء دون اللـه فقـد تفخـر بالعـدم ، وتمسـكه بالغـير يكـون حجابـاً لـه مـن اللـه وكفـراً لنعمـة اللـه تعـالى ، لأن اللـه هـو المحيـي والـرزاق والمقيـت والمعـز لاغـيره ... فـإن كنتـم مصدقـين بوحدانيـة اللـه في الاقتيـات ، والحيـاة ,وكل شيء إلى الممـات فأخرجـوا عمـا عـن اللـه يصدكـم وعـن طلـب الآخـرة يصرفكـم فإنـه لا رب إلا اللـه ولا حيـاة إلا في الآخـرة ...)[1]. ولعـل محمـد المهـدي بـن عبداللـه قـد كان يترسـم خطـى رسـول اللـه (صـلى اللـه عليـه وسـلم) في تربيـة أتباعـه عـلى التوحيـد الخالـص.

وقـد أوضـح محمـد المهـدي بـن عبداللـه إلى أتباعـه أن الآجـال مقـدرة بتقديـر اللـه سـبحانه وتعـالى ووقتهـا أيضـاً عنـد اللـه تعـالى مضمـون. ولـن تصيـب أحـد منكـم مصيبـة إلا أن تكـون مكتوبـة لـه فأمرهـم بالإتقـان بوحدانيـة اللـه وقدرتـه العامة[2].

ولمـا كان التوحيـد هـو أسـاس العقيـدة الإسـلامية فقـد دعـا محمـد المهـدي بـن عبداللـه أحبابـه إلى وحدانيـة اللـه في أحـد منشـوراته قائـلاً : (لا تسـتغيثوا بأحـد دون اللـه , ولاتطلبـوا أحـداً دون اللـه ولـو نبيـاً رسـولاً أو ملـكاً فجميـع الأنبيـاء والمرسـلين دعـوا إلى وحدانيـة اللـه فـلا تتوهمـوا وتنسـبوا إلى رجـل صالـح شـيئاً، أو تطلبـوا منـه شـيئاً , فـإن مـا سـوى اللـه يقطـع النظـر عـن اللـه تعـالى ... فـلا تشركـوا باللـه شـيئاً وراعـوا حـق اللـه في حقـه[3]).

وقـد ذُكرعنـه أنـه أمـر بتسـوير مقابـر وقبـاب الأوليـاء الصالحـين حتـى يتمكـن منع ضعـاف الإيمـان مـن أفـراد المجتمـع السـوداني مـن زيارتهـا، لأنهـا كانـت عبـارة عن مراكـز لتجمـع النـاس بطبولهـم وذبائحهـم في الأعيـاد والمناسـبات العامـة[4]. ولاريـب في أن هـذا الأمـر لا يتمـاشى مـع منهـج التوحيـد الـذي تنـادي بـه تعاليـم الدعـوة المهديـة. ويظهـر ذلـك في عـدم سـماح محمـد المهـدي بـن عبداللـه للخليفـة عبداللـه بإرسـال الخليفـة محمـد شريـف والخليفـة عـلي ود حلـو لزيـارة قـبر والـده، حتـى لا سـابقة يسـتغلها ضعـاف الإيمـان فيعـودوا إلى زيـارة قبـور الأوليـاء والصالحـين

للتبرك, ولكنه طلب من الخليفة عبدالله فقط قراءة الفاتحة لوالده من بعيد[5].

وحذر محمد المهدي بن عبدالله أتباعه من الحلف بغير الله لأن كل مؤمن يُصدق بوحدانية الله سبحانه وتعالى لايحلف بغيره وقال لهم:(... فلا تحلفوا بشيء دون الله فيجري الحلف في غير موضعه. وفي الحديث من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت)[6].

وهكذا أزالت تشريعات المهدية السيطرة الاجتماعية التي كان يتمتع بها هؤلاء الأولياء الصالحين وشيوخ الطرق الصوفية، وبالتالي اختفت ظاهرة زيارة القبور، كما اختفت أيضاً الاحتفالات السنوية التي كانت تقام حول قباب الأولياء الصالحين , واتجه أتباع محمد المهدي بن عبدالله إلى ترتيل القرآن الكريم وقراءة الراتب الذي كان بمثابة رسالة كبرى في توحيد الله سبحانه وتعالى.

ثانياً: الزهد:

وكانت تربية محمد المهدي بن عبدالله لأتباعه تربية تقوم على الزهد، لأنه كان يمثل هو القدوة والمثال في هذا السبيل . فقد اشتهر محمد المهدي بن عبدالله بين الناس بالتقوى والزهد ووعظه لهم بتجنب المفاسد واتباع طريق الحق[7]. وورد عنه أنه كان يذهب إلى النيل للصيد دون أن يضع طعاماً في صنارته, ويرى في ذلك خداعاً للسمك بل وفي رواية أخرى قيل أنه قام بإعادة سمكة بعد أن اصطادها إلى النيل لرقته بها[8].

وذكر أحد المعاصرين أن محمد المهدي بن عبدالله كان(يُظهر الزهد وعدم الميل إلى الأطعمة، ويكثر من التنديد بالذين يأكلون غير ماخشن من الطعام، وكثيراً ما كان يربط على بطنه حجراً حتى زاع بين الناس أن الذين يأكلون الأطعمة الفاخرة كفار لا نصيب لهم من الإسلام ... وكان محمد المهدي بن عبدالله لا يخرج أمام الناس من طعامه إلا خبز الذرة أوالبليلة وقد تغالى المهدي في إظهار الزهد في الأطعمة حتى أنه منع إيقاد النار في بيته لطبخ أو خبز مدعياً أن ذلك ينافي التوكل على الله) [9].

والراجـح أن محمـد المهـدي بـن عبداللـه كان يريـد أن يربـط الزهـد بالتقليـل مـن الطعـام وعـدم الأخـذ بأنواعـه المختلفـة، وهـذا يكـون نوعـاً مـن أنـواع تعذيـب النفـس لا داعـي لـه لأن الحفـاظ عـلى النفـس واجـب ضروري بـل ومـن ضروريـات الديـن الكـبرى.

وهكـذا أرادت تعاليـم المهديـة تعميـق النواحـي التهذيبيـة التـي جـاء بهـا الإسـلام في النفـوس ولعـل رسـالة الأمـير عبدالرحمـن النجومـي, وحمـدان ابـي عنجـة إلى محمـد المهـدي بـن عبداللـه تشـهد عـلى ذلـك إذ جـاء فيهـا : (إننـا حضرنـا بجهـة منـدر، وإن أخوانـنـا الفقـراء لمـا رأينـا مأكولهـم البليلـة إذنـا لهـم بتعاطـي قليـل مـن البصـل والويكـة والسمسـم، وقـد رأينـا ذلـك غـير مخلـص عنـد اللـه تعـالى لـذا ورفـع الأمـر لسـيادتكم وحيـث أن الأخـوان حاصـل لهـم التعـب ... ومعنـا أبقـار قليلـة التزامنـا بتحريـر هـذا العـرض لسـيادتكم راجـين الإذن في راحـة الأخـوان ... وأن تبينـوا لنـا الجائـز تعاطيـه منهـا والممنـوع لسـلوك طريـق الرشـاد) [10]. وهـذه الرسـالة تبـين لنـا أثـر تربيـة المهديـة لأتباعهـا عـلى الزهـد.

ثالثاً: التواضع:

وقـد ذُكـر أن محمـد المهـدي بـن عبداللـه كان متواضعـاً في حياتـه حيـث أورد أحـد المقربـين منـه في هجرتـه مـن كردفـان إلى الخرطـوم هـذا التواضـع ذاكـراً أن محمـد المهـدي بـن عبداللـه كان ينـزل مـن دابتـه لكـي يمـشي عـلى الأرض حـافي القدمـين حتـى تورمـت قدمـاه مـن المـشي وذلـك مراعـاة لحالـة المهاجريـن والضعفـاء معـه إذ أن معظمهـم يمـشي راجـلاً ليـس لـه دابـة[11] .وحينمـا كان الأهـالي يحـضرون لـه الهدايـا كان محمـد المهـدي سـبن عبداللـه يقـوم بتوزيعهـا عـلى الفقـراء مما سـاعد ذلـك في حبهـم إلى هـذا الزاهـد الـذي يرفـض ملـذات الدنيـا[12].

ويذكـر أن محمـد المهـدي بـن عبداللـه قـد خاطـب أتباعـه في سـبيل التواضـع قائـلاً : (فراعـوا رضـاء اللـه المـشي بالـدور التـي بالبلـد بالتواضـع للـه ولايركـب الواحـد منكـم الحمـار بـدوره إلا إذا كان لا يسـتطيع المـشي ... فـلا تركبـوا حصانـاً إلا في الجهـاد أو في العرضـة بنيـة تعليـم الجهـاد فقـط لا لفـرح ولا لمـرح ولا مباهـاة ...فأقتـدوا بالنبـي (صـلى اللـه عليـه وسـلم) وأصحابـه (رضـوان اللـه عليهـم) ولا

تقتدوا بالترك والظالمين الذين نسوا الله واستقبلوا نعمته بالفرح والفخر بضرب البنادق والمدافع والدلاليك وما أشبه ذلك ...)[13]

ومن الرموز الدالة على المساواة والتواضع توحيد الزي والمظهر، بلبس الجبة المرقعة من الأمراء إلى المجاهد العادي، بالإضافة إلى السروال والمركوب (الشقيانة) والكربة والطاقية والعمة والمسبحة، وهذا الزي الأنصاري دليل على التقشف والزهد في الدنيا[14].

ولاشك أن في الجبة معنى للزهد والاستعداد للجهاد فاتخاذها من ألوان ورقع شتى يدل على الزهد وطريقة حياكتها تجعلها تصلح لأن يرتديها الأنصاري بأي من الجهتين تلبية لداعي الجهاد والاسراع إليه دون تأخير. وكان لشباب الأنصار زي خاص بهم يتكون من قميص وسروال طويل بالإضافة للمركوب والشال[15].

رابعاً: العفو:

ولما كان العفو عند المقدرة تتجلى فيها أحسن صور النفس وسمو القصد, وقد أدب القرآن الكريم محمد المهدي بن عبدالله بهذا الخلق الكريم فتخلق محمد المهدي بن عبدالله بهذا الخلق في أقواله وأفعاله. ولا يخفى معاملته لأستاذه الشيخ محمد الخير الذي ظل بعيداً في المراحل الأولى لسريان روح المهدية، يراقب نجم تلميذه الساطع باهتمام ولكن بعد هزيمة قوات هكس باشا في معركة شيكان، وإعلان حكومة القاهرة لسياسة إخلاء السودان شد الأستاذ الرحال وذهب إلى مدينة الأبيض ولم ينتقم محمد المهدي بن عبدالله من أستاذه، وإنما تلقاه عندما جاءه بالاحترام وأناط به محمد المهدي بن عبدالله بمهمة قطع الاتصال بين مصر والخرطوم، وعزل كل الحاميات في داخل السودان. وقد نجح الشيخ محمد الخير في مهمته مع قوات الأنصار محققاً انتصارات أهمها سقوط بربر، واعتقال مديرها حسين بك خليفة [16]. وهكذا بسقوط بربر انقطع اتصال حكومة الخرطوم عن طريق النيل وأصبح الانسحاب مستحيلاً.

ومن الشخصيات التي حاربت المهدية أو أساءت لمحمد المهدي بن عبدالله وعفا عنهم نذكر كبراء الخرطوم وزعماء الشر فلما دخل محمد المهدي بن عبدالله

الخرطوم وحررها من قوات الحكم التركي ـــ المصري أوصى بالعفو عنهم والحفاظ على حياتهم، وعين لهم من يقوم بذلك وهم : فرج باشا الزين القائد العام, الشيخ محمد حتيك قاضي القضاة, والشيخ الأمين الضرير شيخ الإسلام , والسيد حسين مجدي , والمفتي شاكر , والشيخ محمد الخرساني , والشيخ محمد السقا , والسنجك محمد قرضية وابنه السنجك أحمد محمد قرضية , وأحمد بك علي جلاب مدير الخرطوم , والشيخ سليمان الدراوي سر تجار الخرطوم ، ومحمد سليمان ، ومحمد طه الشامي , والشيخ صالح أوباري [17].

وكان شاغل محمد المهدي بن عبدالله الرئيس هو كيفية إيقاف الصراعات القبلية ، وتوجيه كافة طاقات رجال القبائل لخدمة دعوته مستفيداً من علاقاته مع زعماء ومشايخ هذه القبائل ، فنجح في تحقيق تحالف كافة جيوش القبائل تحت لوائه , وبالتالي تمكن من تكوين جيش قوي راعى فيه محمد المهدي بن عبدالله التكوين القبلي . وفي الجزيرة أبا عين محمد المهدي ابن عبدالله خلفائه الأربعة طبقاً للحضرة النبوية، وأختار لهم ألقاب الخلفاء الراشدين تيمناً بالرسول صلى الله عليه وسلم، فسمى الخليفة عبدالله ابن محمد التعايشي خليفة أبا بكر الصديق، علي ودحلو خليفة عمر بن الخطاب، ووهب منصب الخليفة عثمان بن عفان لابن السنوسي بليبيا، ومحمد شريف خليفة علي بن أبي طالب[18].

ثم فكر محمد المهدي بن عبدالله في تأسيس معالم الشكل التنظيمي لقوات المهدية في الجزيرة أبا، عندما اهتم بالتركيبة القبلية والاعتبارات الجهوية في السودان، بدليل أنه عين خليفة الصديق عبدالله بن محمد التعايشي نائباً له، وقائد للراية الزرقاء التي تضم قبائل غرب السودان، وخليفة عمر الفاروق علي ود حلو قائداً للراية الخضراء التي تضم قبائل دغيم وكنانة وبعض مناطق الجزيرة، وخليفة علي الكرار محمد شريف قائداً للراية الحمراء التي تضم القبائل النيلية في شمال السودان[19] .

وبعد معركة الجزيرة أبا أمر محمد المهدي بن عبد الله الناس بالخروج بالهجرة لجبل «ماسه» بالقرب من جبل قدير ذاكراً أنها أمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم[20].

ويبدو لنا أن محمد المهدي بن عبدالله قد أراد من إعلانه للهجرة أن يقتدي بهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم، التي كانت حداً فاصلاً بين عهد الظلام الجاهلي و عهد نور الإسلام. وكانت استجابة الناس سريعة وواسعة، فقد شرع الناس في تعدية النساء والأطفال وتركوا أغلب ما معهم من الأمتعة والأموال وكانت نفوسهم راضية رغبة فيما أعده الله تعالي[21].

خامساً: الجهاد:

وفي سبيل تربية المجتمع المهدوي تربية دينية حثت تعاليم المهدية على الجهاد في سبيل الله لأنه وسيلة للتقرب لله والنجاة من النار، يوم الحشر كما قال محمد بن عبدالله بن المهدي في منشور الجهاد بتاريخ 29 ذي الحجة 1300هـ الموافق 31 نوفمبر 1883م (وما أمركم بجهاد العدو إلا لتنالوا عظيم الأجر والقرب من الله والنجاة يوم الحشر وترك الجهاد بعد حث الله عليه وترغيب الله ورسوله فيه خسران عظيم ... فترك الجهاد بعد ذلك إما جهل بقدرة الله ، أو كفر بايات الله أو جهل بعظيم ما عند الله من الثواب، أو عدم معرفة بخسة الدنيا السراب ... قال تعالى: (ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله) الآية. وقوله تعالى: (مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله أثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) [22].

مما سبق يتضح لنا أن الجهاد يعتبر شرطاً أساسياً لاتمام إسلام الفرد المسلم، لأن تركه كفر بآيات الله سبحانه وتعالى، وجهل بما عند الله سبحانه وتعالى من عظيم الثواب فمن أراد إتمام إسلامه فالجهاد هو طريقه.

وعندما قامت الدعوة المهدية في السودان (1298هـ ـ 1881م) كانت الفلسفة التربوية العامة تنبني على العودة بأفراد المجتمع السوداني إلى القرآن الكريم والسنة الشريفة. لذا وجب علينا تسليط الضوء على التعليم ومناهجه ونظامه في الدولة المهدية.

فلسفة التعليم في الدولة المهدية:

1. قامـت دولـة المهديـة بثـورة تعليميـة عـلى مناهـج التعليـم السـابقة التـي أصيبـت بعيـوب كثـيرة ، منهـا قبـول الفقهـاء للمرتبـات والإعانـات مـن حكومـة الأتـراك، فقـد ذكـر محمـد المهـدي ابـن عبداللـه أنـه لا يجـوز قبـول المرتبـات لأنهـا جمعـت مـن الأهـالي دون وجـه حـق شرعـي[23] .

2. تجنبـت دولـة المهديـة إثـارة المواطنـين لاسـيما وأن محمـد المهـدي بـن عبداللـه كان قـد عـاش وسـط عامـة النـاس وتعـرف عـلى رغباتهـم وشـكواهم عـن قرب، بـل وتأثـر بنظرتهـم نحـو التعليـم الحديـث الـذي رأوا فيـه مفسـدة ورجـس مـن عمـل الكفـار, فرفضـوا ارسـال أبنائهـم إلى المـدارس الحديثـة أو مـدارس الارسـاليات، خوفـاً عليهـم مـن الكفـر والإلحـاد, ممـا أدى ذلـك لإغـلاق هـذه المـدارس. وهنـا كان لزامـاً عـلى محمـد المهـدى بـن عبداللـه أن يسـتجيب لمشـاعر أفـراد المجتمـع السـوداني، وذلـك بتغيـير مناهـج التعليـم الحديثـة بمناهـج دينيـة مـن أجـل إقامـة مجتمـع يقـوم عـلى الكتـاب والسـنة وتتوحـد فيـه كلمـة الأمـة السـودانية [24].

أهداف التعليم في الدولة المهدية:

إن مـن أهـداف الدولة المهديـة في المقام الأول تحرير العقيدة الإسـلامية من الشـوائب التي لحقـت بهـا، وإقامـة نموذجـاً لدولة راشـدة تنـداح فيها قيـم العـدل والأمانـة والصدق وغيرهـا مـن المعانـي التي يسـعى الإسـلام لتأصيلهـا في نفس الفرد المسـلم، كمـا عملت عـلى الاهتمـام بحاجيات المجتمـع التعليميـة والثقافيـة والاجتماعية، بل وقد سـعت أيضاً لبنـاء الإنسـان ذاتيـاً من خـلال تعليمه وصقـل مهاراتـه وابتكاراتـه من خـلال أهدافها التـي رسـمها محمد المهدي ابـن عبدالله وهـي تتمثـل في الآتي[25]:

1. السـعي لتوحيـد أهـل القبلة وعـدم تشـتيت جهودهـم العقليـة والفكريـة وذلك من خـلال التمسـك بالثوابـت في الدين.

2. فتـح بـاب الاجتهاد عـلى مصراعيـه واسـتصحاب آراء أئمـة المذاهـب إذا توافقت مع العصر.

3. تمكين راية التوحيد لله وتحقيق الولاء له وعدم موالاة الكافرين.

4. تزويد الطلاب بالعلوم الدينية التي تمكنهم من الايمان بوحدانية الله وإتباع سنة رسوله ودراسة القرآن الكريم وعلومه وتفسيره.

5. غرس روح الجهاد في نفوس الطلاب وتعميق النواحي التهذيبية مثل الزهد والتواضع والتعاون.

6. التوسع في فتح الخلاوي التي تقوم بتحفيظ القرآن الكريم الذي أصبح إلزامياً.

مناهج التعليم في الدولة المهدية:

كانت الأمية والجهل بقواعد الدين الإسلامي يسود بين معظم أفراد المجتمع السوداني. لذا وجه محمد المهدي بن عبدالله اهتمامه لتعليم هؤلاء أصول الدين الإسلامي بإبعاده بعض الكتب التي كانت تدرس في الخلاوي والمساجد والتي يرى محمد المهدي بن عبدالله أنها كتب تحوي حيلاً شرعية وأحاديث ضعيفة أدخلها بعض الملحدون لأغراض شخصية أو سياسية فقد أمر بحرق أغلب الكتب التي لا صحة لها، وقد أبقى الكتب المشهورة التي اتفق العلماء على صحتها مثل مسلم والبخاري ، وإحياء علوم الدين، وكتب الشعراني، والسيرة الحلبية ، وكتب التفاسير مثل روح البيان ، والبيضاوي ، وجلال السيوطي وغيرها وقد أمر بتدريس القرآن الكريم[26] .

وقد وجدت هذه المناهج والنظم التعليمية استجابة من أرباب المساجد والخلاوي، بعضهم بدعوة منه ربما لعلاقة قديمة ترجع إلى علاقة زمالة دراسية في الخلوة، وبعضهم لتوافق آرائهم مع رأيه، وكان ضمن المهاجرين إليه بعض الشعراء الذين آزروا الدعوة المهدية وأثاروا الحماسة في قلوب الناس، فالأمير ود التويم الجعلي انضم للمهدية في بدايتها، وصار من المقربين لمحمد المهدي بن عبدالله، وصار شاعر الثورة الأول، وأحمد القلع الذي أنشد القصائد في تمجيد الثوار. أما من العلماء نذكر أحمد المصطفى ابن الأمين ود أم حقين أحد علماء الجزيرة اسلانج، كما هاجر إليه علماء آخرون كالحسين ود

الزهـراء والمضـوي عبـد الرحمـن وإسـماعيل عبـد القـادر الكردفانـي والشـيخ أحمـد المكاشـفي أحـد كبـار فقهـاء الكواهلـة و غيرهـم[27].

النظام التعليمي في الدولة المهدية:

ألغـى محمـد المهـدي بـن عبداللـه المـدارس العامـة، التـي كانـت قائمـة في البـلاد باعتبارهـا أثـر مـن آثـار الحكـم التركـي ــــ المـصري، كما ألغـى المـدارس التبشـيرية التـي كانـت تديرهـا الارسـاليات المسـيحية. وبذلـك تركـز النشـاط التعليمـي في الخـلاوي التـي كانـت تقـوم بتحفيـظ القـرآن الكريـم وتعليـم القـراءة والكتابـة [28].

وظيفة الخلوة التربوية:

كان الجميـع سواسـية في الخلـوة، ولا يوجـد مـا يميـز الحـيران عـلى أسـاس قبـلي أو طبقـي فالـكل يحـترم شـيخ الخلـوة، واحـترام الروابـط بـين أتبـاع محمـد المهـدي بـن عبداللـه (الأنصـار) ومعرفـة مبـادئ المهديـة مـن خـلال قـراءة الـدروس المسـتفادة مـن راتـب المهـدي، كل ذلـك كفيـل بـأن يشـعر الأنصـاري بنـوع مـن التوحيـد، فالـزي الموحـد (الجبـة) الـذي يرتدونـه بلونـه الناصـع البيـاض يشـعرهم بالكيـان الأنصـاري، وبـروح الجماعـة. وكذلـك الحشـد الأنصـاري الـذي يشـهده الحـيران في كل صـلاة جمعـة يولـد لديهـم شـعور بالانتمـاء لبقيـة الكيـان الأنصـاري خـارج الخلـوة فهـم يشـعرون بـروح المحبـة والأبـوة مـن الأنصـار الكبـار، خاصـة في المناسـبات الدينيـة والوطنيـة التـي يشـاركون فيهـا كمـا يحظـون بنصيـب كبـير مـن الولائـم التـي تقـدم في هـذه المناسـبات الاحتفاليـة [29].

وتحـرص ادارة الخـلاوي في دولـة المهديـة عـلى أن تطلـق عـلى حجـرات الخـلاوي أسـماء دالـة عـلى الانتمـاء للمهديـة مثـل الجزيـرة أبـا ، شـيكان ، وهـي أسـماء معـارك حربيـة حقـق فيهـا الأنصـار انتصـارات عـلى قـوات الحكـم التركـي المـصري في السـودان [30].

التعليم الخاص في الدولة المهدية:

كان محمـد المهـدي بـن عبداللـه بجانـب تأسيسـه للخـلاوي فقـد افتتـح مدرسـة في أم درمـان لتعليـم الصبيـان مـن أسرى الحبشـة، كمـا افتتحـت مدرسـة أخـرى

لتعليم أبناء كبار دولة المهدية يتعلم فيها اللغة والحساب والدين الإسلامي، وبها بعض المقرئيين أمثال الشيخ علي طلبة، والشيخ الصاوي، وأيضاً بعض العلماء من أمثال الطيب أحمد هاشم، وأحمد العجب، وقد عهد أمرها إلى عثمان فريد[31]. ولعل من أبرز سمات هذه المدرسة أنها تدير تعليما خاصا يحظى به أبناء الأمراء وعلية القوم، لذلك لم يكتب لفكرتها حظ الإنتشار وكان يمكن أن تكون نواة لمدرسة حديثة تجمع بين علوم الشريعة الإسلامية والعلوم الأخرى، وتسد بذلك ثغرة مهمة في الكادر المتعلم في دولة المهدية.

مجالس المذاكرة:

ولما كانت الأمية والجهل بقواعد الدين الإسلامي سائدة في أوساط أكثر الفئات فقد وجه محمد المهدي بن عبدالله جزءاً كبيراً من اهتمامه لتعليم هؤلاء أصول الدين الإسلامي، وسلك في ذلك أسلوباً عامياً أقرب إلى فهمهم ، فبدأ بضرب الأمثال وإلقاء المواعظ عن الدنيا, والآخرة ونعيمها , وأهتم بتعليمهم كيفية الصلاة وشروطها وآدابها[32] .وعلى هذا الأساس كانت مجالس محمد المهدي بن عبدالله مجالاً لنشر فكرة المهدية . وقد انتهت إلينا مصنفات دون فيها بعض أصحابها ما كان يرويه من الدروس التي كان يلقيها محمد المهدي ابن عبدالله على أتباعه، وكانت تتناول أمور كثيرة كالتفسير والحديث والوعظ في هذه المجالس [33].

مسجد الخليفة عبدالله بن محمد في أم درمان:

اهتم الخليفة عبدالله بن محمد بالتعليم فأسهم مسجده في أم درمان اسهاماً بارزاً في التعليم الديني، فبتكليف من الخليفة عبدالله بن محمد تولى الحسن سعد العبادي لفترة إلقاء دروس في المعاملات والحديث، كما استقدم الخليفة عبدالله بن محمد الشيخ الحسين ابراهيم الزهراء من أرض الجزيرة لإلقاء دروس في المواريث، وذلك لحاجة الناس إليها وخاصة عند تقسيم التركات[34]. ويذكر أن البنين والبنات كانوا يتعلمون في عهده قدراً من القرآن الكريم والحديث في حجرات مجاورة لمسجد أم درمان، وكان بعض أولئك البنين يُرسل بعد ذلك إلى بيت المال ليتعلموا قدراً محدوداً من المراسلات الكتابية العامة[35]. وقد جعل

الخليفة عبدالله بن محمد فيما بعد تعليم القرآن الكريم إلزامياً لكل الناس كبيرهم وصغيرهم، كما ألزم أفراد جيشه بحفظ القرآن الكريم رغم قيامهم بأعباء الجهاد [36] .

وقد ساهم مسجد أم درمان بإعتباره مسجد الدولة المهدية الرسمي في تدعيم فكرة المهدية وتعميقها في النفوس، وكان يقوم بوظائف المساجد الأساسية، فبالإضافة إلى الآلاف الذين كانوا يرتادونه للصلاة، والذين فرض عليهم ملازمة الصلوات الخمس من الأعيان والعلماء، والذين كانوا يجلسون ممسكين بألواحهم يرتلون القرآن الكريم ويحفظونه عن ظهر قلب فإنه كان مكاناً للعبادة وتلاوة الراتب، ومحلاً للتقاضي، ومركزاً للتعبئة الجهادية ومحلاً للقاء الأمراء والأعيان ، كما كان جزءاً منه مخصصاً للاحتفالات الدينية والوعظ والإرشاد[37] .

وتجدر الإشارة إلى أن مسجد الخليفة بأم درمان قد كان عبارة عن مركز للدروس الدينية التي تلقى على الأنصار في مجالات علوم القرآن الكريم والسنة والفقه.

التعليم الصناعي في عهد الخليفة عبدالله بن محمد:

اهتم الخليفة عبدالله بن محمد بصناعة الأسلحة والذخيرة لتأمين سلطانه في الداخل ولحماية البلاد التي تربص بها الاستعماريين الأوربيين الدوائر من كل الجهات ففي ناحية الشمال كانت بريطانيا ومصر، أما فرنسا وبلجيكا فمن جهة الغرب والجنوب الغربي، ثم ايطاليا وبريطانيا والحبشة من الناحية الشرقية للبلاد[38]. وهكذا أصبح الخليفة عبدالله بن محمد في حرب دائمة معهم، وقد منعوا عنه الأسلحة والذخائر منعاً صارماً بل منعوا عنه الحصول على الرصاص والنحاس والمبارد والكبريت وملح البارود. فوجه اهتمامه على عمل الجبخانة. وكان أهم ما يلزمه الكبريت وملح البارود والرصاص والنحاس والمبارد وعجينة الكبسول (وهي المادة المفرقعة فيها). أما الرصاص فقد استخرجه من جبل كُتم في دارفور. وقد استعان الخليفة عبدالله بن محمد ببعض الأوربيين مثل لبتن بك مدير بحر الغزال السابق , والدكتور حسن أفندي زكي من أطباء الخرطوم. وأمر نوفل النمساوي وغيره فصنعوا له

ملح البارود. وجمع كل ما أمكن جمعه من آنية النحاس في البلاد فصنع منها الظروف، وأرسل إلى عماله في الجهات فجمعوا له الظروف الفارغة من مكان المعارك. وأقام معملاً للبارود في جزيرة توتي وورشة لعمل الخرطوش في أم درمان .[39] ولعل الاهتمام بهذا النوع من التعليم دليل واضح لسد النقص في احتياجات الدولة المهدية من البارود والمواد الأخرى .

محاربة العادات الاجتماعية الضارة:

من أجل تطهير أفراد المجتمع السوداني من المفاسد الاجتماعية الضارة والإنحلال الخلقي، اتخذ محمد المهدي بن عبدالله أحكاماً صارمة لصيانة المجتمع السوداني من تلك المفاسد. فكان على أحبابه كما جاء في منشور الدعوة أن يبايعوه قبل أن ينخرطوا في سلك المهدية، بالأ يسرقوا ولا يزنوا ولا يأتوا ببهتان. بل وأن محمد المهدي ابن عبدالله قد منع أحبابه من التنابز بالألفاظ النابية مثل: ياكلب، ياسارق، يازاني ، ياكافر وغيرها [40]. وعندما نما إلى محمد المهدي بن عبدالله أن أتباعه يطلق عليهم بعض الناس اسم الدراويش للاستخفاف بهم حتى تضعف مكانتهم الدينية، غضب وأصدر منشوراً منع فيه الناس من تسمية أحبابه بهذا الاسم بل حدد عقوبة ثمانين جلدة لمن يخالف الأمر [41].

كذلك سعت تعاليم المهدية إلى محاربة الألقاب المتصلة بالحكم مثل الملك، والمك، والسلطان ، والكجور وغيرها من الأسماء التي عرف بها بعض زعماء القبائل السودانية فقد بعث محمد المهدي بن عبدالله برسالة إلى السلطان عبدالله أبي بكر في دارفور وأخبره فيها أنه رفع عنه لقب سلطان رغم عظمة مكانته عنده ، موضحاً له أن السلطان هو الله سبحانه وتعالى وأنه يريد له أن يكون عبداً وخادماً للإخوان، وأن يسير في طريق المهدية الداعية إلى التوحيد والمودة بين الناس[42] .

ويبدو أن محمد المهدي بن عبدالله أراد أن يكون جميع زعماء القبائل السودانية تحت سيطرة حكمه، يسميهم بالأسماء أو الألقاب التي تدل على تبعيتهم للمهدية مثل النائب، أو الأمير، أو العامل وغيرها. ولم ينحصر هذا الأمر في

الداخل بل شمل حكام البلاد الذين اعترفوا بالدعوة المهدية فقد كتب المهدي خطاباً للشيخ حياتو بن سعيد عينه فيه عاملاً للمهدية في صوكتو رغم أنه (أي الشيخ حياتو) قد كان حاكماً لتلك المنطقة [43].

كان برنامج الإصلاح الاجتماعي للدولة المهدية مناهضاً تماماً للعادات السودانية البالية , وفي هذا الصدد كتب الخليفة عبدالله منشوراً بتاريخ رمضان 1302هـ / يونيو 1885م: (وكان المهدي عليه السلام نهى عن الحلف بالحرام والطلاق وقال يؤدب الفاعل وكفارة اليمين فيها ... ونهى عن الفراش على الميت وبلغني أنه جاري فعل ذلك ورأينا أنه من الآن فصاعداً من بعد إجتماع الناس لتجهيز الميت ودفنه وإذا عادوا وفعلوا الفراش وفرشوا له كالعادة السابقة فيؤخذ نصف مال الميت نفسه ونصف مال وليه الذي فرش له ويورد هذا لبيت المال وإلا فأيهما له مال فيؤخذ نصفه ويورد كذلك جزاء على المخالفة وزجراً عن الإعادة لها)[44].

وكذلك حاربت تشريعات المهدية أعمال السحر والتعزيم وكتابة الحجب ، ويذكر ابراهيم فوزي أن الخليفة عبدالله أمر بقطع يد إحدى النساء اللاتي اتهمن بالذهاب للدجالين من أجل أعمال السحر والشعوذة [45].

ومن تعاليم محمد المهدي بن عبدالله التي كان يبسطها للناس ماتضمنه منشور الحدود الذي منع فيه الرجل من التحدث مع أية امرأة أجنبية إلا لأمر شرعي يجوز الكلام، ومن يخالف ذلك يجلد سبعة وعشرين جلدة، وأيضاً من شرب الدخان يؤدب ثمانين جلدة ثم يحرق التنباك إذا كان عنده ، وتسري العقوبة أيضاً على من خزنه ومن استعمله بأنفه، كذلك من يقوم ببيعه أوشرائه حتى ولو لم يستعمله يعاقب بسبعة وعشرين جلدة. أما من يشرب الخمر فيعاقب بثمانين جلدة بالإضافة إلى سجنه لمدة سبعة أيام، وقد امتدت عقوبة شرب الخمر إلى جار الشارب، إذا لم يقوم بالتبليغ عنه فيعاقب بنفس عقوبة شارب الخمر. أما الشخص الذي يساعد شارب الخمر ولو بجرعة ماء أو إناء فهو الآخر يؤدب كذلك ويحبس سبعة أيام[46].

ولعل محمد المهدي بن عبدالله كان يريد من محاربة الخمر لأنها أم الخبائث ومفتاح الشرور بل لأنها تؤدي إلى التفكك الأسري حيث تسود فيه الفوضي والخلافات بين متعاطي الخمر.

وتصدت أحكام الدولة المهدية إلى محاربة الاختلاس والرشوة بإصدار الأوامر لعمال دولة المهدية على من يحاول اختلاس أموال دولة المهدية أن تؤخذ منه الأموال التي اختلسها ويعاقب على ذلك بقطع اليد، أو الضرب ، أو السجن [47].

وحذر محمد المهدي بن عبدالله من قبول الهدايا تجنباً للشبهات، لأن العمال والحكام والقضاة والأتقياء منهم خاصة لا يتدنسون بالهدايا التي لا بد فيها من العلل. ووضع شروطاً لقبول الهدية، وهي أن تكون الهدية خالية من العلل، فإن كانت وراءها علة أو شفاعة في حكم، أو نظر على إبطال أمر دين، فلا تقبل وترد إلى صاحبها[48]. وطلب محمد المهدي بن عبد الله من الناس عدم التشكي من ضيق الحياة لأن ذلك يؤدي إلى ضعف الإيمان الذي يقود إلى المذلة والإنحطاط إذ لا مذلة إلا لله سبحانه وتعالى وهو رب العالمين [49].

أما عن الوسائل التي اتخذتها الدولة المهدية لمحاربة الغلاء في الأسواق فقد أصدر محمد المهدي بن عبدالله منشوراً إلى أهل السوق في أم درمان وإلى جميع العاملين في حرفة البيع والشراء طلب منهم فيه الالتزام بأوامر الله في معاملاتهم التجارية مع المسلمين، وأن يكونوا صادقين في أوزانهم وألا يظلموا العباد، وألا يحلفوا باليمين الكاذب عند البيع والشراء. الأمر الذي تطلب إنشاء وظيفة المحتسب في الأسواق من أجل حماية الناس من جشع التجار ومراقبة الأسعار وأيضاً تنظيم السوق [50].

محاربة المفاسد الأخلاقية:

أما فيما يخص محاربة المفاسد الأخلاقية، فلا شك أن وجود المدمنين في المجتمع علامة على انتشار الرزيلة بكل صورها، وأيضاً الدعارة فهي تعد تمرداً على سنن الله سبحانه وتعالى في الكون وهتكاً للمحرمات وهدماً للاستقرار الأسري، وبذلك تتلوث الحياة ويختل المجتمع لشيوع الفاحشة فيه.

لهـذا كان لابـد للدولـة المهديـة مـن إصـدار تشريعـات تضمـن صيانـة الحرمـات ورعايـة التقاليـد الصالحـة واحـترام أوامـر اللـه سـبحانه وتعـالى ونواهيـه، وتطهـير الجـو الاجتماعـي مـن دواعـي الإغـراء ومثـيرات الغرائـز والعوامـل المحرضـة عـلى الفسـاد. ولهـذا لابـد مـن وجـود سـلطان القانـون بجـوار سـلطان التربيـة والتوجيـه.

وقـد تصـدت دولـة المهديـة لمحاربـة تلـك الرزائـل حيـث قامـت بنظافـة مدينـة الخرطـوم مـن المخنثـين الذيـن لعبـوا دوراً كبـيراً في الانحطـاط الأخلاقـي خـلال الحكـم التركـي ـــ المـصري في السـودان فتـم القبـض عليهـم ووضعـوا في مراكـب وأرسـلوا إلى منطقـة الرجـاف بجنـوب السـودان ثـم تركـوا في جزيـرة وسـط النيـل كانـت غنيـة بالتماسـيح فلقـوا حتفهـم هنـاك ، وبهـذا أصبحـت مدينـة الخرطـوم نظيفـة مـن تلـك العنـاصر البشريـة السـاقطة التـي كانـت تتمتـع في فـترة الحكـم التركـي ـــ المـصري بالقـوة ، ممـا جعلهـا تخـرج إلى شـوارع مدينـة الخرطـوم في زى نسـائي والكحـل في أعينهـا بالإضافـة إلى الخضـاب في أيديهـم[51] .ومـن جهـة أخـرى أمـر محمـد المهـدي بتنفيـذ عقوبـة الإعـدام بالسـيف عـلى شـخص يدعـى دوكـة اعـترف بجريمتـه الأخلاقيـة مـع طفـل صغـير السـن [52].

ولمـا سـمعت العاهـرات الزنجيـات صاحبـات بيـوت بيـع الخمـور والدعـارة بقـرارات المهديـة المحرمـة للرزيلـة والداعيـة لقفـل أماكـن صناعـة وبيـع الخمـور سـارعن إلى إنـزال الرايـات البيضـاء مـن عـلى سـطح بيوتهـن نهائيـاً. والجديـر بالذكـر أن الرايـات ظلـت ترفـرف منـذ زمـن بعيـد عـلى أسـطح تلـك البيـوت بحـي سـلامة الباشـا (شـمال محطـة سـكة حديـد الخرطـوم حاليـاً) مشـيرة ودالـة عـلى وجـود الخمـر بهـذا البيـت أو ذاك, وأصبـح المـرء لايـرى في الطرقـات أو الأسـواق تلـك المجموعـات الكبـيرة المتزاحمـة مـن النسـاء إلا أزواج الشـهداء أو كبـار السـن مـن النسـاء [53].

وبفضـل تلـك الاجـراءات خـلا المجتمـع السـوداني مـن تلـك الرذائـل التـي أقرتهـا القوانـين الوضعيـة لـلإدارة التركيـة ـــ المصريـة في السـودان وطبقتهـا فيـه. كمـا نهـى محمـد المهـدي بـن عبداللـه عـن الملاهـي والمعـازف والدلاليـك والنقاقـير بحيـث لا يـضرب النحـاس إلا في حالـة الحاجـة إليـه في الحـرب [54].

ولعل محمد المهدي بن عبدالله قد كان يستند في تحريم الموسيقا إلى الحديث النبوي الشريف الذي ينص على حرمتها ويقول هذا الحديث أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قال:(ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحرير والخمر والمعازف) ، وفي حديث آخر أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : (إن الله حرم الخمر والكوبة (الطبل) والغبيراء (العود) وكل مسكر حرام [55]).

وبعد أن تم تعطيل الفن الغنائي أصبحت الأناشيد الجهادية والمدائح النبوية هي سيدة الساحة الفنية في دولة المهدية. وأخذ أهالي مدينة أم درمان (حاضرة الدولة المهدية) يقيمون ليالي أفراحهم بالمادحين والتهليل والتكبير والتسبيح حتى مطلع الفجر[56].

وضع المرأة في الدولة المهدية:

اهتم محمد المهدي اهتماماً كبيراً بأمر المرأة لأنها تقع عليها مسؤولية تغيير المجتمع والارتقاء به باعتبارها تمثل نصف المجتمع, والنصف الآخر يتربى في أحضانها. لذا فقد أصدر محمد المهدي بن عبدالله مجموعة من قوانين الإصلاح الاجتماعي التي أحدثت تغيرات واسعة في حياة المرأة السودانية في المجتمع المهدوي. نستطيع أن نبينها فيما يلي:

أولا: حقوق المرأة في دولة المهدية:

أ- حق إعلان الانتماء:

أول حق من حقوق المرأة الذي يجب أن تعيه جيداً وتتمسك به هو حقها في إعلان انتمائها إلى أمة التوحيد، وسبيلها في ذلك حقها في اللباس الشرعي(الحجاب) لأنها حين تمارس هذا الحق تتميز بأنها تعلن وتجاهر في كل مكان بمنهجها في الحياة ففرض محمد المهدي بن عبدالله على النساء الحجاب، وكل من تسير عارية الرأس تعاقب بالضرب سبعة وعشرين جلدة ، وقد امتدت نفس العقوبة لتشمل أهل الفتيات غير المحجبات اللائي يبلغ عمرهن خمسة سنوات[57].

ب – الحق في طلب العلم:

أوردت المؤلفــات التاريخيــة أن نســاء محمــد المهــدي بــن عبداللــه كــن يقمــن بعمليــة التدريــس ســواء كان قرآنــاً أو حديثــاً أو درســاً في النحــو، وكذلــك راتــب الامــام المهــدي، وقــد تميــزت منطقــة المجاذيــب في شــمال الســودان بكثــرة الخــلاوي النســائية، وكذلــك مناطــق العمــراب، وشــندي، وأم درمــان، والجزيــرة ســلانج في شــمال أم درمــان، والجريــف، وحلفايــة الملــوك. ومــن النســاء اللائي أســهمن مســاهمة فعالــة في نــشر التعليــم الدينــي نذكــر منهــن الشــيخة خديجــة الأزهــري، التــي كانــت بجانــب إدارتهــا لخلوتهــا تقــوم بالطــواف عــلى النســاء في المنــازل لتعليمهــن، كمــا اشــتهرت بالطــواف أيضــاً الشــيخة الفقيهــة رقيــة بــت عبدالقــادر مــن أهــالي جزيــرة توتــي. وعندمــا تــزور الشــيخة أحــد المنــازل تتجمــع حولهــا النســاء مــن المنــازل المجــاورة فكانــت حلقــة الشــيخة بحــق مدرســة متحركــة، أفــادت كثــيراً في توعيــة النســاء ونــشر المعرفــة بينهــن [58]. ويذكــر بابكــر بــدري أن أمــه وأخواتــه كــن يرتلــن القــرآن الكريــم ويقــرأن الراتــب يوميــاً بعــد صــلاة الصبــح [59]. وأيضــاً كان بعــض البنــين والبنــات يتلقــون القليــل مــن الــدروس والآيــات القرآنيــة والحديــث الشريــف عــلى أيــدي شــيوخ دينيــين في حجــرات صغــيرة مجــاورة لمســجد الخليفــة عبداللــه في أم درمــان[60].

وهكــذا يتضــح لنــا أن الدولــة المهديــة قــد بذلــت مجهــوداً مقــدراً في مجــال تعليــم المــرأة مــن أجــل أن تعــرف ربهــا فتعــرف بذلــك مبدأهــا ومصيرهــا وسر وجودهــا.

ت – حق اختيار الزوج:

مــن ســنن اللــه ســبحانه وتعــالى في الكــون أن يجعــل لــكل شيء زوجــاً، يقــول تعــالى: (ومــن كل شيء خلقنــا زوجــين لعلكــم تذكــرون [61]). ومــن هنــا كانــت الرغبــة في التــزاوج باعتبــاره علاقــة حــرة كاملــة الإرادة تقــوم عــلى الــتراضي بــين الطرفــين فــلا الرجــل يقبــل الــزواج ممــن لايحــب ولا المــرأة ترُغــم عــلى قبــول مــن لاتريــده.

ومــن هــذا المفهــوم نجــد أن محمــد المهــدي بــن عبدالله يؤكــد حــق الاختيــار وضرورته ســواء بالنســبة للرجــل أو المــرأة ، فقــد أشــار أن الــزواج لايتــم بإكــراه المــرأة بــل أمــر بطــلاق إمــرأة تزوجــت وهــي مرغمــة فالعلاقــة الأسريــة تقــوم عــلى الرحمــة والمــودة

فالرجل لايتزوج المرأة التي ترفض الزواج منه ولكنه في بعض الحالات أعطى محمد المهدي بن عبدالله الحق للأم في أن تزوج إبنتها لمن تشاء[62]. ويعني هذا أن المرأة هي إنسان شريك للرجل في حياته الأسرية فيجب أن تقوم العلاقة بينهما على المودة والرحمة وإذا انقطعت هذه العلاقة بينهما انقصمت عرى الزوجية بطريق مشروع. ولذلك فقد حرص محمد المهدي بن عبدالله أن تنال المرأة حقوقها الشرعية كاملة فحدد سن زواج الفتاة بعشر سنوات، فإن رفض ولي الأمر تزويج بنته عند بلوغها هذه السن يضرب[63].

كما تعرض في أحدى منشوراته إلى تخفيض نفقات الزواج وعدم المباهاة في الأعراس، وأيضاً حدد وليمة الزواج بتمر كوليمة فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أو مع طعام كوليمة أم المؤمنين، وقال: (ومن يتبع فعل النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك لم يجد ولم يرما يفعلونه الناس في هذا الزمن. ومن لم يقدر... فلا يزيد على خروف وذلك إسراف. ولا تزاد العزبة على خمسة ريال، ولا البكر على عشرة ريال واللباس لا يزيد على ثوبين وكل ذلك خروجاً من المباهاة وحب الدنيا [64].)

إن ظاهرة المباهاة والمغالاة في المهور أصبحت من السمات البارزة في مجتمعنا السوداني بعد أن غزتنا الحضارة المادية بقيمها وموازينها, فأصبحت الأسرة ترى في ابنتها سلعة تعرضها في سوق المزاد بحثاً عن السمعة والتماساً للمباهاة والرياء.

وقد دعت تعاليم المهدية الشباب من الجنسين إلى الزواج الجماعي، وقدمت الدولة المهدية بعض المساعدات المالية للراغبين في الزواج بل خصصت يوماً للزواج الجماعي هو يوم 27 رجب من كل عام[65].

ث – حق الطلاق:

أباحت تعاليم الشريعة الإسلامية الطلاق عند تعذر الوفاق بين الزوجين. وقد ذكر محمد المهدي بن عبدالله في إحدى منشوراته الواردة في مسائل الطلاق وخاصة ماهو واقع قبل المهدية وموقع ذلك من نسائه قائلاً: (أن الطلاق قبل المهدية لا يحسب لمن تمت الثلاثة ولو بعد المهدية . وبعد المهدية لا تكون

الفتـاوى التـي كان العلمـاء يفتـون بهـا في مطلقـة الثـلاث وقـد وقـع في قلبـي حينئـذ ـــ أعنـي في وقـت ذلـك ـــ الـوارد لنـا مـن رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم إننا لمـا نخـرج مـن آبـا إلى الغـرب فالنـاس يدخلـون في ديـن الإسـلام جديـداً ... وقـد وقـع لبعـض نسـائي تمـام الطـلاق، وقـد وقـع بعضهـا قبـل المهديـة. وقـد تـضرروا بأنفسـهم وبأهلهـم وبعـض الأصحـاب وأمرتهـم بـأن يتزوجـوا فلـم يرتضوا.حتـى ورد الخـبر بمنـع ذلـك بالخصوصيـة التـي يأتـي ذكرهـا . ولازالـوا يتـضررون فقلـت لا سـبيل إلى ذلـك إلا بـشيء يأتـي لنـا مـن اللـه ورسـوله صـلى اللـه عليـه وسـلم مـع وقـوع بعـض حـضرات في حسـبتها مـن نسـائي ووقوفهـا معهـم في التصفيـة, وبعـض حـضرات حصـل فيهـا الأمـر برجوعهـا مـع كثـير مـن رآوى صالحـة في حسـبتها مـن نسـائي .وبـكل ذلـك كنـت أجـد نفـسي الحـرج مـن الرجـوع لهـا مـع تمـام حسـبة الطـلاق حتـى ورد لي الـوارد فيهـا مـع ذلـك الـوارد المتقـدم ذكـره , وهـو قولـه تعـالى: (لكيـلا يكـون عليـك حـرج وكان اللـه غفـوراً رحيمـاً)الآيـة . فـلا أدري إلا وقـد انفـرج مـا بـي مـن ذلـك الخـوف وانـشرح لهـا صـدري بغـير مـا أعهـده والأمـر للـه , وللـه تعـالى في كل وقـت شـأن. وقـد جـاء الاخبـار مـن رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم أن معـي ملـك الالهـام مـن اللـه يسـددني وعينـه . فمـن هـذا الخـبر النبـوي علمـت أن الـذي يلهمنـي اللـه بـه بواسـطة ملـك الالهـام لـو كان رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم حـاضر لفعلـه [66]).

وعـن عصمـة زوجـات الذيـن كانـوا بمدينتـي الأبيـض وبـارا قبـل أن يتـم فتحهـا ولـزوم تجديـد العقـد لهـن ، أورد محمـد المهـدي بـن عبداللـه مـا يـلي : (ولاتمسـكوا بعصـم الكوافـر) أي نهـى عـن الـزواج من النسـاء المـشركات ، كمـا أورد أيضـاً أن كل امـرأة تخلفـت بعـد خـروج زوجهـا وانضمامـه عـلى الأنصـار المحاصريـن أو حضوره لطرفنـا فهـي طالـق , وكل مـن هاجـرت ولـو بالانضمـام إلى الأنصـار وتخلـف زوجهـا عنهـا فهـي طالـق أيضـاً وعـلى هـذا فينبغـي أنكـم تجـددوا عصـم نسـائكم السـابقات والمتأخـرات عنكـم في الخـروج ولا تقولـوا عـلى العصـم السـابقة وتقيمـوا معهـن بـدون تجديـد فـإن ذلـك محظـور[67] .

وفي منشـور آخـر مـن محمـد المهـدي بـن عبداللـه في المـرأة الناشـزة والخطبـة يوضح مـا يـلي : (أحبابـي فقـد تسـألون عـن الناشـزة والكارهـة لزوجهـا , فإنهـا تـرد مـا

كان دفعه الزوج من صداق وغيره , وأن يعفي عنها لا بأس بها ولا فائدة فيه والله أعلم ... وتسألون عن من كان خطيب ودفع أموالاً عديدة في تلك المرأة ومتوقف تلك العقد لأجل نظر, وأتى إليها أحد غير الأول وعقد عليها أي الحرمة التي دفع فيها تلك الأموال المتقدم ذكرها ، هذا لا يرضاه الله ولا رسوله ومخالف للمهدية ، حرام والحرام لم يتبع . إن صاحب ذلك يضرب ويحبس وتفسخ تلك العصمة [68].)

أدى نشاط المهدية العسكري إلى زيادة نسبة الطلاق والعلاقات غير الشرعية بين النساء والرجال فأصدر محمد المهدي ابن عبدالله عدداً من التشريعات في هذا الشأن فهو قد شرع بفسخ الزواج إذا انضم الزوج إلى الأتراك. أما إذا كان مع قوات المهدية استمرت الرابطة الزوجية، إلا إذا غاب الزوج فترة طويلة (ست سنوات)، لم يترك أو يرسل خلالها لزوجته ما تعيش به فمن حقها أن تطلب الطلاق وتتزوج بغيره. وقد كان الهدف من هذه التشريعات هو تأكيد عدم شرعية الزواج بين من آمن بالمهدية ومن أنكرها، وفي نفس الوقت تسهيل وتشجيع زواج النساء الأيامي اللائي فقدن أزواجهن حتى يعود الاستقرار إلى المجتمع السوداني الذي تعرض لهزات عنيفة خلال الفترة التي تمكنت فيها قوات المهدية من إزالة الحكم التركي ـ المصري في السودان[69].

وفي غرب السودان كان هناك نوع من الطلاق شائعاً يعرف (بالخلع) وهو طلاق مقابل مال تدفعه الزوجة أما المهر أو جزء منه أو أي مال آخر فيتم الطلاق بعد إجراءات قانونية . فرأى محمد المهدي بن عبدالله أن هذا ليس بطلاق إلا إذا تلفظ الزوج به واستحسن ألا يأخذ الزوج أي مال مقابل الطلاق [70].

ويبدو أن تلك التشريعات الخاصة بالطلاق قد ساهمت إلى حد كبير في صيانة حقوق المرأة المتعلقة بالأحوال الشخصية .

ج – حق العمل :

خصصت دولة المهدية سوقاً خاصاً للنساء عندما وجدت به أعداداً من الأرامل، ومن النساء اللائي ذهب أزواجهن للجهاد فرأت تخصيص ذلك السوق لهن منعاً للاختلاط، وقد لاحظ القس أهرولدر أن نساء البقارة لهن فطرة تجارية

اقتحمن بها مجال السوق وأجدن فن التجارة وساهمن فيه بفاعلية، وأن تلك المساهمة كانت من مدخل متخصص فقد كان النساء يبعن المنتجات المنزلية التي تستعمل في الماضي للاستهلاك الشخصي مثل الزيت ، والشحم ، واللبن الخمير، والأدوية البلدية، وأصبحت تلك الأسواق النواة لما يعرف اليوم بسوق النسوان [71].

مما سبق تبرز أهمية العمل وضرورته بالنسبة للمرأة بوصفه واقعاً إنسانياً في الدولة المهدية حيث شاركت المرأة في الصناعة والتجارة وغير ذلك من شؤون الحياة المختلفة.

ومن المشكلات الاجتماعية التي واجهتها الدولة المهدية عمل المرأة اليدوية في الزراعة ورعي الحيوانات حيث كانت المرأة تختلط بالرجال الأجانب، وهي في ملابس شبه عارية ترتدي قرباباً تلفه حول الجزء الأسفل من جسمها، وتترك صدرها وثديها ورأسها كاشفاً مما أدى إلى انتشار بعض المفاسد الاجتماعية الأمر الذي جعل محمد المهدي بن عبدالله يكتب منشوراً إلى كافة الزغاوة وجيرانهم قائلاً: (... أمنعوا نساءكم وبناتكم من النشور والسروح في الخلا، مع البهائم واجتماعهن مع الرجال الأجانب وأقطعوا مادة السفاح[72]).

ويبدو أن الهدف من هذا التشريع هو عدم مخالطة النساء بالرجال من أجل تنقية أفراد المجتمع السوداني من عوامل التفكك والانحلال الخلقي.

ح – حق الجهاد:

ولما كانت فكرة الدولة التي تحيي فريضة الجهاد تسيطر على ذهن محمد المهدي ابن عبدالله فقد شملت نظرته النساء أيضاً فكان أن رغبهن في التصدُق بأموالهن في هذا السبيل إن كن ميسورات الحال حيث يقول: (يجب أن ترغبوا النساء ذوات الصدقات الكثيرة فيما عند الله وتزهدوهن في خيالات هذه الدار، فمن كانت راغبة فيما عند الله ومؤثرة للدار الآخرة تعطي من صداقها بطيب نفس لبعلها ليستعين به على لوازم الجهاد [73]). كما سمح محمد المهدي ابن عبدالله للنساء من كبار السن بمرافقة أزواجهن في ميادين القتال ذاكراً أن المرافقات لأزواجهن والمتحملات للشدائد لهن مثل ثواب المجاهدين من أنصاره[74].

ثانياً: واجبات المرأة في دولة المهدية:

وإذا كانت المرأة مطالبة بمعرفة حقوقها التي عرضناها سابقاً فمن باب أولى أن تعرف واجباتها في الدولة المهدية وتلتزم بها ومن تلك الواجبات التي حددها محمد المهدي ابن عبد الله ما يلي:

أ. أمر بحجر النساء ومنعهن من الخروج إلى الأسواق والطرقات إلا بنت صغيرة لا تشتهي أو المرأة العجوز التي انقطع أرب الرجال عنها غالباً وحتى الأماء الشباب يمنعن من الخروج، إلا في محل لا يكون به رجال ومن خرجت بعد التنبيه بثلاثة أيام تضرب مائة جلدة زجراً لها وعبرة لغيرها[75].

ب. على النساء ألا يتكلمن بكلام جهراً ولايسمعن الرجال أصواتهن إلا وراء حجاب ويقمن الصلاة ويطعن أزواجهن ويتسترن بثيابهن. فمن وقفت كاشفة رأسها ولو لحظة عين فتؤدب بالضرب سبعة وعشرين جلدة، ومن تكلمت بصوت عال فتضرب سبعة وعشرين جلدة [.76].

ت. تمنع المرأة من أن تصافح بيدها على رجل أجنبي فإذا فعلت ذلك الأمر تجلد هي والرجل الذي صافحته مائة جلدة لكل منهما. أما إذا تصافحا عناقاً فعقوبة كل منهما مائتان وخمسين جلدة وصيام شهرين متتالين وعتق رقبة[77]

ث. إن الحرية التي نالتها المرأة في فترة الحكم التركي ـــ المصري: كان لها أثر كبير في انغماس كثير من النساء في المفاسد الأخلاقية، مما جعل محمد المهدي بن عبدالله يطلب من الشيخ محمد الطيب البصير أن تلبس النساء الحجاب ولا يتكشفن كالبقارة بغرب السودان[78].

ج. منع النساء من لبس الذهب والفضة، وأيضاً منع لباس الشعر المستعار وخروجهن مكشوفات الرؤوس، وخروج الحديثات منهن بين الناس، ولكنه سمح لهن بالتحلي في منازلهن بالسوميت والمرجان والصدف واللؤلؤ[79]. وحرم تزين النساء بالعاج لأنه يؤخذ من الفيل بعد قتله، وهو فطيس

وأجاز للنساء استعمال الدلكة لأنها من الذرة وهي تنظف الجسم. أما الدخان فيمكن استعماله بشرط ألا يكثرن فيه حتى لايحول بين البشرة وماء الوضوء [80].

ومن مقاصد تلك التشريعات أن المرأة يجب أن تصان وتحفظ بما لايجب مثله في الرجل ولذا خصت بالاحتجاب, وترك ابداء الزينة وترك التبرك فيجب في حقها الاستتار باللباس وأن لايبدين زينتهن إلا لأزواجهن.

الرقيق في الدولة المهدية:

لقد كانت تجارة الرقيق أحد أسباب قيام الثورة المهدية عندما حاول الخديوي اسماعيل محاربتها في السودان على اعتبار أن نظام الرقيق يمثل نظاماً اجتماعياً متغلغلاً في المجتمع السوداني، كما أن التجارة في الرقيق تدر عائداً اقتصادياً كبيراً للقبائل السودانية، فضلاً عن طبيعة المجتمع السوداني وما يمثله من نظام طبقي قائم على السادة والعبيد.

وعندما جاءت المهدية لم تستطع أن تزيل الرقيق على الرغم من أنه نظام لايعمل على احترام النفس البشرية. فتم تقسيمه إلى قسمين:

1. ملكية بيت المال للرقيق:

بعد تحرير الخرطوم استولى بيت المال على كم هائل من الرقيق ضمن ما استولى عليه من مخلفات التركية ومؤسساتها وممتلكاتها الحكومية العامة أو مخلفات وممتلكات رموزها وأفرادها الذين فروا مع قواتها المندحرة، أو هجروا المدينة، أو أولئك الذين بقوا فيها وصودرت ممتلكاتهم. وكان بيت المال آنذاك قد اكتسب تجربة وصاغ منهجاً للتعامل مع صنف الرقيق كمورد ثابت من موارد إيراداته العينية والنقدية، وكذلك في أوجه منصرفاته منذ استيلاء المهدية على مدينة الأبيض وما تبعها من معارك حتى حصار وتحرير الخرطوم. وأفاد فيما بعد من النظم الحسابية للتركية واستوظف عدداً من موظفيها، وظل بيت المال يفرض رقابته الحازمة على حركة سلعة الرقيق حتى نهاية دولة المهدية[81].

ونظـراً لأهميـة الرقيـق في المجتمـع السـوداني أصـدر محمـد المهـدي بـن عبداللـه منشـورات صارمـة، وعـلى سـبيل المثـال أصـدر محمـد المهـدي منشـوراً عنـد توزيـع غنائـم الفـاشر بمنـع تقسـيم أو تخميـس للجهاديـة وحريمهـم، ويقصـد بالجهاديـة الرقيـق الملازمـين للجنـود المحاربـين حيـث جـاء فيـه: (فالـذي نعلمكـم بـه مـن خصـوص غنيمـة الفـاشر: أجـروا تخميسـها عـلى كتـاب اللـه وسـنة رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم، للجيـش أربعـة أسـهم يتسـاوى فيـه الغنـي والضعيـف كمـا أمـر اللـه ورسـوله بذلـك . والسـهم الخـاص لبيـت المـال كمـا قـال تعـالى في كتابه:(وأعلمـوا مـا غنمتـم مـن شيء فـإن للـه خمسـه وللرسـول ولـذي القربـى واليتامـى والمسـاكين وابـن السـبيل) ماعـدا الأسـلحة الناريـة مـن البنـادق والمدافـع والصواريـخ والجباخـين والخيـل والبغـال والجهاديـة وحريمهـم. وجميـع مايكـون مماثـل لهـذا الخصـوص فـلا يجـري فيـه تقسـيم ولاتخميـس، فإنـه لبيـت المـال)[82].

ويتمتـع بيـت المـال بكافـة حقوقـه في ملكيـة الرقيـق مثـل حريـة بيعـه أو إهدائـه أو الاحتفـاظ بـه، ويتضـح ذلـك عندمـا منـع الخليفـة عبداللـه التعايـشي تصديـر الرقيـق إلى مـصر خوفـاً أن ينضـم الرقيـق إلى المحاربـين مـن أعدائـه[83]. كمـا يتضـح حـق بيـت المـال في التـصرف في الرقيـق عنـد تعرضـه لضائقـة ماليـة، حيـث أرسـل أحمـد سـليمان (أمـين بيـت المـال) لمحمـد المهـدي بـن عبداللـه رسـالة يعـرض عليـه ضعـف مـوارد بيـت المـال وأنـه لـم يتمكـن مـن تلبيـة الـصرف العمومـي للرايـات ليومـين متتاليـين، وأنـه صرفـه قـد اقتـصر عـلى الأرامـل وذوي الحاجـات الضاغطـة، وهـذا يعنـي أن ضرراً قـد مـس الإخـوان في الرايـات. وهـو يقـترح بدافـع الشـفقة عليهـم ورفـع الـضرر عنهـم أن يجـرد كل الرقيـق الموجـود في بيـت المـال ويوزعـه عـلى الرايـات البالـغ عددهـا خمسـين، وأن نقسـمه لهـم بالقيمـة الناقصـة مـن أثمـان الجاريـة في السـوق لينتفعـوا بفـرق السـعر [84].

وأمـر محمـد المهـدي بـن عبداللـه بمركـزة بيـع الرقيـق في الداخـل تحـت اشراف بيـت المـال في العاصمـة أم درمـان ومنـع بيعـه في الأقاليـم منعـاً حازمـاً، وأمـر بعـدم الاعـتراف بـأي مبايعـة لا يحمـل شـاريها موافقـة بيـت المـال بعـد قـرار منـع البيـع. وثابـر عـلى مخاطبـة عمالـه وأمرائـه المـرة تلـو المـرة ـــــ فأرسـل إلى كـرم اللـه

الكركساوي يحيطه علماً أن الأوامر قد صدرت لكافة الأنصار أن لا يبيعوا الرقيق الذكور، وكذلك منع بيع الإناث إلا بإذن وترتيب من بيت المال في أم درمان كيلا يصل الذكور إلى الكفرة ويدخلوه العسكرية وفي ذلك مساعدة لهم. وقد توقف الأنصار والعمال الذين بيدهم رقيق بيت المال عن التداول في هذا الصنف بعد قرار المنع [85].

وواصل الخليفة عبدالله من بعده فوجه أمراً إلى أمرائه وعماله مثل أبي قرجة في طريق سواكن على البحر الأحمر، ومحمد الخير في منطقة بربر على ضفاف النيل، وعبدالرحمن النجومي في دنقلا شمالاً لمنع بيع الرقيق الذكور، كما وجه أيضاً ذات الأمر إلى كرم الله الكركساوي وعثمان آدم في الغرب والجنوب الغربي ـ ودارفور وبحر الغزال والتي تمثل أكبر مورد للرقيق تاريخياً ـ لمنع بيع الرقيق الذكور[86].

2. **ملكية الأفراد للرقيق:**

وقد تمثلت الملكية في الإطار العام الذي أباحه الشرع فيما ملكت أيمانكم، وفي الأعراف المتفق عليها في مجتمعات الرق، وكما كان لبيت المال من حقوق في بيع وشراء أو إهداء الرقيق فإن من حق الأفراد أيضاً التصرف في الرقيق. [87].

وللحد من تجارة الرقيق دعا محمد المهدي بن عبدالله إلى نشر الإسلام في البلاد التي يغلب فيها الأرقاء لتصبح داراً للإسلام، فلا يجوز شرعاً بعد ذلك ممارسة قنص الرقيق في تلك المناطق، كما أدخل محمد المهدي ابن عبد الله فكرة نزع السلاح من سكان الجبال بغرب السودان لإيقاف الحروب القبلية التي كانت تنشب من أجل الحصول على أسرى لبيعهم لتجار الرقيق[88] .

وقد أقر محمد المهدي بن عبدالله تحرير الرقيق وهو ما عبر عنه الإسلام في قوله تعالى: (فك رقبة)[89]. و(تحرير رقبة)[90]. بل وأمر بحسن معاملة الرقيق ومعاملتهم كالأولاد في اللبس والمسكن والزواج ، وأمر بتوزيع الأسرى من الرقيق على فرق الجيش ، كما قام بإرجاع الأشخاص الذين عفا عنهم ، وأمر بإرجاع رقيق كبار المشايخ والعلماء[91]. كما أمر بعدم سب الآخرين بلفظ (ياعبد) وفرض عقوبة مائة جلدة لمن يلفظ تلك الكلمة [92].

وحرمــت تعاليــم المهديــة خــصي الأرقــاء، ومنعــت تفريــق شــمل العائلــة خاصــة الأم والطفــل كمــا شــجعت عــلى زواج الرقيــق واســتقراره ، وأباحــت الأخــذ بشــهادة الجهاديــة في المحاكــم. إلا أن الرقيــق قــد ظــل رقيقــاً فقــد عرضــت عــلى محمــد المهدي بــن عبــد اللــه ســبع مســائل ليفتــي فيهــا إحداهــا أمــة تــزوج بهــا مملــوك وانتقلــت ملكيــة المملــوك لســيد آخــر، وتعــذر اجتمــاع الــزوج والزوجــة لزمــن طويــل فهــل تطلــق منــه؟ أفتــى محمــد المهــدي بــن عبداللــه: إذا اســتعفت وصــبرت الزوجــة عــلى المــدة فــلا طــلاق. أمــا إذا لــم تســتعف مــع مــا هــو معلــوم مــن عــدم عفــة الأمــاء فــإذا زنــت عوقبــت بنصــف عقــاب المحصنــات[93].

وخلاصــة القــول فــأن قراردولــة المهديــة بتحريــر الرقيــق قــد كان بمثابــة محاولــة منهــا لإذابــة الفــوارق الاجتماعيــة مــن أجــل تحقيــق المســاواة بــين النــاس.

خامساً: مدينة أم درمان:

كانــت مدينــة أم درمــان حــاضرة دولة المهديــة التــي اتخذها محمــد المهدي بــن عبدالله مقــراً للمهديــين ومركــزاً لنــشر دعوتهم الدينيــة وحصناً منيعــاً لهم ، وقد ذكــر أن محمد المهــدي ابــن عبدالله قد اختارهــا داراً للهجرة لتتجمــع فيها قواته لتتجه منها إلى الشــمال لفتــح مــصر، ولكن الظــروف التاريخيــة قد أقضــت أن تكــون مدينة أم درمــان حاضرة لدولــة المهدية [94].

وقــد اختلفــت الروايــات التاريخيــة حــول إســم أم درمان ولكــن أكثرهــا رواجــاً الرواية التــي ترجــع هذا الإســم إلى إمرأة كانت تســكن تلــك الجهة ولهــا ولد يدعــى درمان، وهي ابنــة أحــد ملــوك العنج، وكانت تســكن منــزلاً مبنيــاً بالحجــر ومحاطاً بســور متين[95].

وعنــد مــا تم تحريــر مدينــة الخرطــوم كان معســكر محمــد المهدي بــن عبداللــه في أبي ســعد إلى الجنــوب مــن أم درمــان، وقــد زار محمد المهــدي بــن عبدالله مدينــة الخرطوم عــدة مــرات إلا أنــه لــم يفكــر في أن يتخــذ عاصمــة الترك مقــراً له. وقــد قيل في مناســبة اختيــار الموضــع أن محمــد المهدي بــن عبدالله قد خــرج في جماعة من أصحابــه وهو على جمــل أطلــق لــه فســار الجمل من أبي ســعد شــمالاً حتــى بــرك في الموضع الــذي به قبة الامــام المهــدي الآن. و قــد وقع اختيــار محمد المهــدي بن عبداللــه على هــذا الموضع وبنى حجــرة مــن الطين في المــكان الذي بــرك فيه الجمــل ، ولما توفي محمــد المهدي بــن عبدالله

دفنـه أصحابـه في حجرته أسـوة بمـا فعلـه الصحابـة عندما دفنوا الرسـول (صـلى الله عليـه وسـلم) في حجرة السـيدة عائشـة التـي مات فيهـا . وأقـام الخليفة عبداللـه القبة فـوق هذا الموضـع [96].

فأطلـق محمـد المهدي بـن عبدالله عـلى هذا الموضع اسـم البقعـة، وهو اسـم درج محمد المهـدي بـن عبداللـه عـلى اطلاقـه عـلى الأماكـن التـي يعسـكر فيهـا. وبـروح التفـاؤل والاعتـزاز والتـبرك كان يقال البقعـة المباركة والبقعـة الطاهرة . كماعـرف الموضع أيضاً بـدار الهجرة، وهذا الاسـم نقشـه محمـد المهدي بـن عبدالله عـلى العملة التـي ضربت في عهـده ، وقـد طوى النسـيان هذا الاسـم بعـد أن تحول الموضـع إلى مدينة كبـيرة. وبدافع الاعتـزاز واليمـن وصـف الأنصـار مدينتهـم بقولهم: بقعـة أم درمـان أمـان للخائف ما ياباهـا غـير الخائـب، وقالوا أيضـاً (أم درامـان) ويعنون بذلك مـكان الدر المأمـون. وقد أشـاروا إليهـا في مكتوباتهم بأسـماء أخرى كمدينـة المهدي، ودار الفلاح ، ومركز الارشـاد وغيرهـا من الأسـماء الدالة عـلى الاعتزاز والتفـاؤل [97].

وفي عهـد الخليفـة عبداللـه اسـتمر توسـع المدينـة حيـث بـدأت المنـازل المبنيـة بالطين والطـوب الأحمـر تحل مكان منـازل القش والجلد. وصـار المكان يتحـول إلى مدينة دائمة بعـد أن كان معسـكراً للهجـرة. وبعد وفاة محمد المهـدي بن عبداللـه في 22يونيو1885م بنـى الخليفـة عبداللـه بيت المـال والسـجن المعروف بالسـاير نسـبة إلى ادريس السـاير الـذي كان أمير السـجن. وفي سـنة 1887م شـيد الخليفة عبدالله الـدور الأرضي من منزله بمـواد أحضرهـا من مدينـة الخرطوم، وقـد بنى عليه الـدور الثاني في سـنة 1891م. وفي سـنة 1888م شـيد بيـت المال. وهو مخـزن كبير للسـلاح ومعـدات الحرب، وقبـة الإمام المهـدي . وبـدأ بنـاء سـور المدينة الـذي أحـاط بقلب المدينـة حيث قبـة المهـدي ومنازل الخلفـاء وحـرس الخليفـة عبدالله وأهـل عصبيتـه والمصالـح العامة. وفي سـنة 1889م أحـاط المسـجد الجامـع بسـور عظيم. وفي قلـب المدينـة تقع قبة المهـدي، وبغربـي القبة المسـجد الكبـير وبين المسـجد الكبير والقبـة كان جامع الصفيـح [98].

وكانـت مدينـة أم درمـان مقسـمة إلى أربعة أجـزاء: الجنوب والشـمال الغربي والوسـط والشـمال. ويشـمل الجزء الجنوبي مـن المدينة حلة الفتيحـاب، والكارة، ومـشرع الموردة وهـو الميـنـاء الرئيـس لأم درمـان وأكبرمـشرع على النيـل الأبيـض. وكان يسـكنها معظم

أهـل الغـرب وغرب المـوردة يوجد محـزن الذخيرة وآلات الحـرب، وبعض منـازل الخليفة عبداللـه ومنـزل الأمـير يعقوب. ويشـمل الجـزء الشـمالي الغربي عـدداً كبيراً مـن الأحياء التـي اختـارت كل قبيلـة حيـاً لسـكنها، فهنـاك حي قبيلـة كنانة وحـي قبيلـة دغيم، ثم هنـاك حـي المسـلمانية ، ثـم المقابر ثـم حـي الدناقلة وحـي الكنـوز والنوبيـين، ومنازل أحمـد شرفي وعائلـة الخليفـة محمـد شريـف. أمـا سـوق المدينة فيقـع بين حـي الدناقلة وحـي كنانـة. والجـزء الأوسـط هو الجـزء الـذي يوجد فيـه المسـجد الكبير وقبـة الإمام المهـدي وجامـع الصفيـح ومنـزل الخليفة عـلي ود حلو ومنـزل عائلة محمـد المهدي بن عبـد الله، وبعـض أقربائه وبيـت الخليفة عبدالله ومنـزل الأمير يعقوب، ومنـازل القضاة وكتبـة ديـوان المهدية، وحـي الملازمين ومدرسـة المهدية. أمـا الجزء الشـمالي فيتكون من بيـت المـال ومنازل كتبـة بيت المال ومسـاكن المصريـين وأهل مدينـة الخرطـوم القديمة. وفي الجانـب الشرقـي الشـمالي مـن هـذا الجـزء كان مايعرف بـدار الهجرة وهـو يتكون مـن مسـجد ودار للخليفـة عبداللـه وداراً أخـرى للخليفـة عـلي ود حلو، وقد سـميت دار الهجـرة لأن الخليفـة عبداللـه كان يقيـم فيهـا عندمـا يقـوم بتوديـع القـوات المتجة إلى الشـمال، وكانـت العادة أن يسـير معها حتـى كـرري[99]. وكان الأمن في الأحياء السـكنية عـلى مسـؤولية أهل الحـي الذين كانـوا يتولون الحراسـة ليـلاً [100].

فقد شـهد مجتمـع أم درمان في العهـد المهدوي أجناسـاً مختلفة من البـشر حيث (اجتمع فيهـا خليـط من القبائـل والأجناس، كان بهـا أهم قبائـل أولاد البلد الدناقلـة، والجعليين، والشـكرية، والنوبيـين. وأهـم قبائل الغـرب البقارة، والمسـاليت، والرزيقات، والتعايشـة، والمسـيرية. ومـن عرب كردفـان الكبابيش، ومن الـشرق الهدندوة، والمصوعيـة، والمكاوية. ومـن غرب أفريقيـا الفلاتة والتكارير، والهوسـا، وبهـا أعداد من مصريـين وهنود ويهود وأوروبيـين)[101]. وأيضـاً بعـض العـرب من مكة، وسـوريين، وتـرك، وأثيوبيـين والنيام نيـام والمانقبتـو. وكان كل نـوع مـن ذلـك الخليـط البـشري يسـكن في حي خـاص به ، ولهـذا لـم تكـن ظاهـرة المصاهـرة بين تلـك الأجنـاس عمليـة سـهلة، وبالرغم مـن هذا التنـوع البـشري كانـت اللغة العربيـة هي الوحيـدة التي يتعامـل بها الجميـع [102].

وتأثـر المظهـر العـام لمجتمع أم درمان حـين اختفت ظاهـرة الفخامة في الملبـس، والزينة، والمسـكن. فتقيـد الرجـال بالزى الموحـد الذي حددتـه الثـورة المهدية والـذي يتكون من جبـة وسروال وعمـة وطاقيـة وحـذاء بالإضافة إلى سـبحة [103]. كمـا قامت دولـة المهدية

برعايــة المتســولين في أم درمــان ، وذلــك بتشــييد مــكان لهــم عرف باســم (تكيــة) وهو عبــارة عــن زريبــة يوجــد بداخلهــا مظــلات (رواكيــب)، وقامت بــصرف الملابــس لهم ، ووفــرت لهــم أيضاً مأكلهــم ومشربهــم ومصروفاتهــم، كما عينت لهــم إمامــاً ليصلي بهم الأوقــات الخمســة [104].

وكانــت مدينــة أم درمــان تــزدان بأبهــى حللهــا في المواســم الدينيــة، فترفــع الرايــات ويســتعرض الجيــش، وتدق الطبــول ويخرج الخليفــة عبدالله في موكبــه العظيم , وكانت الأعيــاد التــي يحتفــل بهــا الأنصار أربعــة هي المولــد النبوي, وعيــد الرجبيــة (27رجب) ، ثــم العيديــن (عيــد الفطــر وعيــد الأضحــى)، وكان العيــد الأخــير هــو أهم الأعيــاد لأن المدينــة تســتقبل فيه أعــداداً هائلة مــن القادمين إليهــا للزيــارة ، أو تلبية لطلــب الخليفة عبداللــه ، وكان الخليفــة عبداللــه يطلــب أمــراء الأقاليــم وقادتهــا في هــذا العيــد لتجديد الــولاء ولإســتعراض المشــاكل ووضــع الحلول لهــا ، كما كان يســتنفر القبائل التي يشــك في ولائهــا ويجبرهــا عــلى القــدوم إلى المدينة وإعــلان الطاعة لــه [105].

ومــن الأمــور المشــهورة في مجتمــع أهــل أم درمان عنــد إقامة مناســباتهم هو قــدح ود زايــد وهــو عبــارة عن قــدح من الخشــب كبــير في حجمه يتســع لأردب مــن الــذرة. وهذا القــدح قــد اســتولى عليــه الخليفــة عبدالله بعــد القضاء عــلى زعيــم قبيلة الضبانيــة التي تقطــن أرض البطانــة في ســنة 1886م، وكانــت الجموع التــي تدعى للمناســبة تأكل من هــذا القــدح بالتنــاوب , ويحتــوي هــذا القــدح على الكــسرة وعليهــا لحم الضان المشــوي والحســاء. وتبــدأ الدعوة بنهايــة صلاة العــصر إلى مابعد المغــرب [106].

وقــد ظلــت مدينــة أم درمــان حــاضرة للدولــة المهديــة خــلال الفــترةً من ســنة 1885م حتــى زالــت الدولة في ســنة 1898م. وبحلــول الحكــم الثنائي انحسرت وضمرت بســبب اســتباحة كتشــنر للمدينة، لأنها كانــت تمثل في نظــره روح المهدية، فإذا بقيــت أم درمان بقيــت روح المهديــة مشــتعلة في النفــوس، ولهــذا قــام بتحطيم قبــة الإمام محمــد المهدي بــن عبداللــه، بل حول المســجد الكبير إلى ســاحة يســتعرض فيها جيشــه، ثم أعد كتشــنر عدتــه لإخــلاء المدينة من ســكانها وتعمــير مدينة الخرطــوم لتكون حــاضرة لدولة الحكم الثنائي[107] .

هوامش الفصل الرابع :

(1) محمد ابراهيم أبوسليم ، منشورات المهدية ، المرجع السابق، ص28 ـ 30.

(2) محمد ابراهيم أبوسليم ، الآثار الكاملة للإمام المهدي ، المجلد السادس ، جامعة الخرطوم، دارجامعة الخرطوم للنشر، 1990م ، ص104ـــ 105

(3) مهدية 107/5/8، منشورات المهدي ، الجزء الأول ، ص 46 ، دار الوثائق القومية بالخرطوم.

(4) مهدية 15/2/8، منشورات المهدي ، الجزء الثالث(الأحكام والآداب)، ص24، منشور من المهدي إلى أحبابه بتاريخ 25ذي الحجة 1300هـ ، دار الوثائق القومية بالخرطوم.

(5) عوض الكريم المسلمي ، الفيوضات الوهبية (مخطوط) ، الجزء الأول ، ص200، دار الوثائق القومية بالخرطوم .

(6) مهدية 15/2/8، منشورات المهدي، الجزء الثالث(الأحكام والآداب) ، ص24 ، منشور من المهدي إلى أحبابه بتاريخ 25 ذي الحجة 1300هـ ، دار الوثائق القومية بالخرطوم.

(7) يوسف فضل حسن ، دراسات في تاريخ السودان وافريقيا ،ج2، ط1، 1989م ، ص 70.

(8) محمد سعيد القدال ، الامام المهدي 1844ـــ 1885م ، مطبعة جامعة الخرطوم ، 1985م ، ص 37.

(9) ابراهيم فوزي ، السودان بين يدي كتشنر وغردون ، ج2، القاهرة ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، 1436هـــ 2015م ، ص 70 ـ71.

(10) منصور خالد ، حوار مع الصفوة ، ط1 ، جامعة الخرطوم ، دار التأليف و الترجمة والنشر ، ص134ـ 135.

(11) Churchill,W , S:op,cit, P.25

(12) مهديــة 5/2/8 ، منشــورات المهــدي (الأحــكام والآداب) ، ج3 ، ص 114, دار الوثائــق القوميــة بالخرطــوم .

(13) محمــد ابراهيــم أبوســليم ، الآثــار الكاملــة للامــام المهــدي ، المجلد الثانــي ، دار جامعــة الخرطــوم للنــشر ، 1991م, ص 26 ـــ 28.

(14) محمــد ابراهيم أبوســليم ، أدوات الحكــم والولاية في الســودان ، ط1 ، بيروت ، دار الجيــل ، 1413هـ ،1992م ، ص 49.

(15) المرجع نفسه ، 46.

(16) مكي شبيكة ، السودان في قرن ، المرجع السابق ، ص 209.

(17) عــلي المهــدي, جهــاد في ســبيل اللــه ، تحقيــق عبدالله محمــد أحمــد ، الخرطوم ، 1965م ، ص92.

(18) ســلاطين باشــا ، الســيف والنــار في الســودان ،تعريــب جريــدة البــلاغ , مكتبــة الحريــة , أم درمــان ص 51.

(19) أحمــد ابراهيــم أبوشــوك ، الســودان الســلطة والثــروة ،ج5، ط1, أم درمــان ، الســودان ، مركــز عبدالكريــم ميرغنــي الثقــافي ، 2015م ، ص 80ـــ 81.

(20) اسماعيل عبدالقادر الكردفاني ، المصدر السابق، ص139

(21) المصدر نفسه , ص 140 .

(22) محمد ابراهيم أبوسليم ، منشورات المهدية ، المرجع السابق ، ص 113ـ115.

(32) مكي شبيكة , السودان عبر القرون ، المرجع السابق ، ص 251.

(24) محمد ابراهيم أبوسليم ، تاريخ الخرطوم، ط3 ، دار الجيل ، بيروت, لبنان, ص43.

(25) محمــد الطيــب محمــد عبداللــه أبوشــوك، النظــام التعليمــي الســوداني، الأزمــة والأمــل , ط1, مطبعــة المصابيــح للطباعة والنــشر ،أم درمان , أغســطس 2011م ، ص 100.

(26) مكي شبيكة ، السودان عبر القرون ، المرجع السابق ، ص375.

(27) يحـــى محمـــد ابراهيـــم ، تاريـــخ التعليـــم الدينـــي في الســـودان ،ط1، بـــيروت ، لبنـــان ، دار الجيـــل ، 1407هـــــ 1987م ، ص 335 ـــ 338.

(28) المرجع نفسه ، ص 334.

(29) هـــدي مـــكاوي ، البنـــاء الاجتماعـــي للمهديـــة في الســـودان ، ط1، مكتبـــة مدبـــولي , القاهـــرة ، 2007م ، ص 177.

(30) المرجع نفسه ، ص 176.

(31) محمد ابراهيم أبوسليم ، تاريخ الخرطوم ، المرجع السابق ، ص 97.

(32) يحى محمد ابراهيم ، المرجع السابق ، ص 330ـــــ 331.

(33) المرجع نفسه ، ص 331.

(34) يحى محمد ابراهيم ، المرجع السابق ، ص 340.

(35) سلاطين باشا ، المصدر السابق ، ص 250.

(36) يحى محمد ابراهيم ، المرجع السابق ، ص 339.

(37) المرجع نفسه ، ص 341.

(38) بشـــير كوكـــو حميـــدة ، صفحـــات مـــن التركيـــة والمهديـــة ، دار الارشـــاد , الخرطـــوم , 1389هــــــ 1969م ، ص 223.

(39) نعوم شقير ، المصدر السابق ، ص 1254ــــ 1255.

(40) عبدالودود ابراهيم شلبي ، المرجع السابق ، ص 266.

(41) مهدية 15/2/8 ، منشورات المهدي (الأحكام والآداب) ، ج3، ص 173دار الوثائق القومية بالخرطوم

(24) مهدية 102/5/8، منشورات المهدي(الإنذارات) ،ج2 ، ص 98, دار الوثائق القومية بالخرطوم .

(43) عـوض الكريـم المسـلمي، الفيوضـات الوهبيـة ، ج2 ، ص50, دار الوثائـق القوميـة بالخرطـوم.

(44) محمد ابراهيم أبوسليم ، منشورات المهدية ، المرجع السابق ، ص294ـ295.

(45) ابراهيم فوزي ، المصدر السابق،ج2، ص192.

(46) محمد ابراهيم أبوسليم ، منشورات المهدية ، المرجع السابق ، ص186.

(47) مهدية 15/2/8 ، منشورات المهدي (الأحكام والآداب) ، ج3 ، ص 214.

(48) المصدر نفسه ، ص 80.

(49) مهديـة 102/5/8, منشـورات المهـدي , (الإنـذارات) , ج2, ص 70 , دار الوثائـق القوميـة بالخرطـوم

(50) مهدية 15/2/8 , منشورات المهدي (الأحكام والآداب) , ج3, ص90.

(51) ابراهيم فوزي ، المصدر السابق، ج2، ص173 ــــــ 174.

(52) عـوض الكريـم المسـلمي : الفيوضـات الوهبيـة ,ج1, ص 211,دار الوثائـق القوميـة بالخرطـوم .

(53) مهديـة 36/5/8, مجموعـة وثائـق النجومـي , ص40, دار الوثائـق القوميـة بالخرطـوم.

(54) محمد ابراهيم أبوسليم , منشورات المهدية , المرجع السابق ,ص 166.

(55) عبدالقـادر أحمـد عطـا : هـذا حـلال وهـذا حـرام , القاهـرة , 1395هـ ـــ 1975م , ص 214.

(56) عـوض الكريـم المسـلمي, الفيوضـات الوهبيـة, ج3, ص 14, دار الوثائـق القوميـة بالخرطـوم

(57) محمد ابراهيم أبوسليم, منشورات المهدية ، المرجع السابق، ص 187.

(58) حاجة كاشف بدري, الحركة النسائية في السودان , ط1, دار جامعة الخرطوم للنشر , الخرطوم , 1984م , ص 7 ـ 8.

(59) بابكر بدري , حياتي , ج1, ص 129.

(60) الشيخ الأميرابراهيم الفكي , الدعوة الإسلامية وتطورها في السودان في مجلة البيان , العدد 13, الخرطوم , جمادى الأول 1401هـ ـــ مارس 1981م , ص 36 ـ37.

(61) سورة الزاريات , الآية 49.

(62) محمد ابراهيم أبوسليم, المرشد إلى وثائق المهدية , الخرطوم , 1971م, ص 130.

(36) دفتر صادر رقم 2, ص14, دار الوثائق القومية بالخرطوم .

(64) محمد ابراهيم أبوسليم , منشورات المهدية ، المرجع السابق، ص 300.

(65) دفتر صادر رقم 2, ص 14 , دار الوثائق القومية بالخرطوم

(66) محمد ابراهيم أبوسليم , منشورات المهدية ، المرجع السابق، ص 302 ـ 303.

(67) المرجع نفسه , ص 305ـ306

(86) المرجع نفسه ، ص 307.

(69) Holt ,M: Op.Cit,P113-114

(07) (70) محمد ابراهيم أبوسليم , المرشد إلى المهدية ، المرجع السابق، ص 197.

(71) محمد سعيد القدال ، المرجع السابق ، ص180.

(72) مهدية 8/5/36 ، مجموعة وثائق النجومي ، ص21, بتاريخ 25جمادى أول 1300هـ ـ 3أبريل 1883م

(73) مهدية 15/5/8، منشورات المهدية ، الأحكام والآداب ،ج3 ، ص43، خطاب من المهدي إلى محمد خير، دار الوثائق القومية بالخرطوم.

(74) عوض الكريم المسلمي ، الفيوضات الوهبية ، ج2, ص119، دار الوثائق القومية بالخرطوم .

(75) محمدابراهيم أبوسليم ، منشورات المهدية، المرجع السابق، ص 298ـ 299.

(76) المرجع نفسه ، ص186.

(77) مهدية 15/5/8، منشورات المهدية ، الأحكام والآداب ،ج3، ص225 ، دار الوثائق القومية بالخرطوم .

(78) محمد ابراهيم أبوسليم ، منشورات المهدية، المرجع السابق، ص 15.

(79) نعوم شقير : المصدر السابق ، ص942.

(80) محمد ابرهيم أبوسليم ، منشورات المهدية، المرجع السابق، ص 199.

(81) محمد إبراهيم نقد، علاقات الرق في المجتمع السوداني ، النشأة ــ السمات ـ الإضمحلال، توثيق وتعليق، ط2، دار عزة للنشر والتوزيع، الخرطوم، 2003م، ص100.

(82) محممد ابراهيم أبوسليم , منشورات المهدية ، المرجع السابق , ص 252.

(83) سلاطين باشا ، المصدر السابق ، ص 254.

(84) محمد ابراهيم نقد ، المرجع السابق ، ص 101.

(85) المرجع نفسه ، ص 91.

(86) المرجع نفسه والصفحة .

(87) المرجع نفسه ، ص 115.

(88) دفتر صادر رقم (2) ، ص 18، خطاب من المهدي إلى حمدان أبي عنجة بتاريخ 22شعبان 1302هـ ، دار الوثائق القومية بالخرطوم .

(89) سورة البلد ، الآية 13.

(90) سورة المائدة ، الآية 89.

(91) مهدية 14/2/9،،مجموعة وثائق أحمد العجب ، الجزء الثالث ، ص210,دار الوثائق القومية بالخرطوم .

(29) مهدية 5/4/9 مجموعة الصادق المهدي , الجزء الثاني ص 208، 5ربيع أول 1301هـ ، دار الوثائق القومية بالخرطوم.

(93) محمد ابراهيم نقد ، المرجع السابق ، ص 117ـــــ118.

(94) محمد ابراهيم أبوسليم ، بحوث في تاريخ السودان ، ط1، بيروت ،1412هـ ـ 1992م , ص 40.

(95) محمد ابراهيم أبوسليم ، تاريخ الخرطوم ، المرجع السابق ، ص 84.

(96) المرجع نفسه ، ص 84 ـــــ 85.

(97) المرجع نفسه ، ص 85.

(98) المرجع نفسه ، ص 86 .

(99) المرجع نفسه ، ص 87 ـــــ 90 .

(001) المرجع نفسه ، ص 102.

(101) محمد سعيد القدال ، السياسة الاقتصادية للدولة المهدية ، ط1 ، 1986م , ص 105.

(102) محمد ابراهيم أبوسليم ، تاريخ الخرطوم ،المرجع السابق ، ص 123.

(103) مهديــة 8/2/ 5، منشــورات المهــدي (الأحــكام والآداب) ، ج3 ، ص66 ، دار الوثائــق القوميــة بالخرطــوم .

(104) مجموعة وثائق أحمد سليمان ، ص17 ، دار الوثائق القومية بالخرطوم .

(105) محمد ابراهيم أبوسليم ، تاريخ الخرطوم ، المرجع السابق ، ص 106.

(106) عــزة الريــح العيــدروس ، أم درمــان : الإنســان والأرض عــبر القــرون والحقــب، 2000م/ 1421هــ،ص78 .

(107) محمد ابراهيم أبوسليم ، تاريخ الخرطوم ، المرجع السابق ، ص 115 .

الخاتمة

اتسم الحكم التركي ـ المصري في السودان بظلم الحكام وقدعانى أفراد المجتمع السوداني من العسف والظلم في تلك الحقبة، أضف إلى ذلك أن هؤلاء الحكام لم تأخذهم الغيرة على الدين وانتهاك محارمه مما جعل الكثيرين يتطلعون لظهور المهدي ليملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً. وقد اندلعت الثورة المهدية في سنة (1298هـ ـ 1881م) بقيادة محمد المهدي بن عبدالله مرتكزة على أسس دينية تهدف إلى إصلاح العقيدة الإسلامية وتنقيتها من الشوائب التي علقت بها , وقد لقي محمد المهدي بن عبدالله عند الناس استجابة كبيرة لاقتران دعوته باسم الدين.

ونجح محمد المهدي بن عبدالله في تحقيق الوحدة السياسية السودانية عند ما انضوت تحت لواء الثورة المهدية ,أغلب المجموعات القبلية في السودان , التي أصبحت تحارب عدواً وحداً هو الحكم التركي – المصري , وصولاً إلى تحرير إرادة الأمة السودانية من قبضته

و قد اتخذ محمد المهدي بن عبدالله في برنامجه الإصلاحي الاجتماعي للدولة المهدية الزهد والتقشف أساساً لفلسفته الاجتماعية وجعلها محور المجتمع المهدوي، الذي نادى به فدعا إلى مراعاة الله سبحانه وتعالى في الركوب والملبس والمشي بالإضافة إلى ترك الألقاب الرسمية التي عرفت في السودان أثناء فترة الحكم التركي ــــ المصري مثل الملك والمك والسلطان وغيرها حتى لا يميز الشخص نفسه عن عامة الناس , كما ناهضت تعاليم الدولة المهدية العادات السودانية الضارة كاستعمال الدلاليك والنقارة، والاختلاط في الاحتفالات بين الرجال والنساء وغيرها. وساهمت في معالجة ظاهرة عزوف الشباب عن الزواج باصدارها مجموعة من الأحكام الخاصة بتحديد سن الزواج، وتكاليف نفقاته، وجعلت يوم (27 رجب) من كل عام يوماً للزواج الجماعي.

والنتيجة أن الإصلاح الاجتماعي خلال فترة دولة المهدية في السودان قد أحدث تغييراً جذرياً في المجتمع السوداني، وذلك بإعادة تربيته على أسس جديدة عمادها الشريعة الإسلامية كدستور حياة وأسلوب معاملات ومنهج رباني لابد من تحقيق مقاصد الشريعة الإسلامية من خلاله.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

1. **القران الكريم .**

2. **المصادر الأولية :**

أ. وثائــق ومخطوطــات المهديــة الغــير منشــورة والمودوعــة بــدار الوثائــق القوميــة بالخرطــوم:

1. منشــورات المهــدي ، الجــزء الأول ، تحــت الرقــم مهديــة 8/15/70، دار الوثائــق القوميــة بالخرطــوم .

2. منشــورات المهــدي ، الجــزء الثانــي ، (الإنــذارات) ، تحــت الرقــم مهديــة 8/5/ 102, دار الوثائــق القوميــة بالخرطــوم .

3. منشــورات المهــدي ، الجــزء الثالــث ،(الأحــكام والآداب) ، تحــت الرقــم مهديــة 8/2/ 15, دار الوثائــق القوميــة بالخرطــوم .

4. وثائق أحمد سليمان , تحت الرقم مهدية 8/1/4/ج .

5. وثائــق أحمــد العجــب ، الجــزء الثالــث ، تحــت الرقــم مهديــة 9/2/14 ، دار الوثائــق القوميــة بالخرطــوم

6. وثائــق النجومــي ،(مخطــوط), تحــت الرقــم مهديــة 8/5/36 ، دار الوثائــق القوميــة بالخرطــوم .

7. وثائــق الصــادق المهــدي ،(مخطــوط) ، الجــزء الثانــي، تحــت الرقــم مهديــة 9/4/ 25، دار الوثائــق القوميــة بالخرطــوم .

8. دفتر صادر رقم (2) ، دار الوثائق القومية بالخرطوم .

9. عــوض الكريــم المســلمي، الفيوضــات الذهبية(مخطــوط) ج1، ج2 ,ج3 , دارالوثائق القوميــة بالخرطوم

10. غـردون والسـودان ليوسـف ميخائيـل (مخطـوط) , تحـت الرقـم 16/2/1, دار الوثائـق القوميـة بالخرطـوم .

ب ـ المصادر العربية:

1. ابراهيم فوزي ، السودان بين يدي غردون وكتشنر ، ج1,ج2، القاهرة ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية،1436هـ ـــــ 2015م.

2. إسماعيل عبدالقادر الكردفاني, سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي, تحقيق الدكتور محمد ابراهيم أبوسليم, ط1, الخرطوم, الدار السودانية للكتب, 1392هـ – 1972م.

3. سلاطين باشا ، السيف والنار في السودان ،تعريب جريدة البلاغ , مكتبة الحرية , أم درمان .

4. نعوم شقير، جغرافية وتاريخ السودان، بيروت 1967م .

ثانياً: بحوث غير منشورة :

1. د. محمد الأمين سعيد : أضواء على الجاسوسية في عهد المهدي .

ثالثاً أوراق المؤتمرات العلمية :

1. محمد أحمد الحاج ، المهدية وأثرها الديني في السودان ، من معالم تاريخ الإسلام في السودان (المؤتمر الأول لجماعة الفكر والثقافة الإسلامية من يوم 11 إلى 14 صفر 1403 هـ ـــــــ 30 نوفمبر 1982م ، إعداد بروفسير يوسف فضل حسن ودكتور محمد ابراهيم أبوسليم ، الخرطوم ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

رابعاً :الدوريات :

محمد ابراهيم أبوسليم ، مخطوط تاريخ مؤسس الختمية ، مجلة الدراسات السودانية ، المجلد الأول ، العدد الأول ، 1968م .

2. عمر عبدالرازق النقر ، الجذور العقائدية والتاريخية لهجرة مى ورنو إلى السودان ، مجلة الدراسات السودانية ، معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية ، السودان , الخرطوم , العدد الأول ، المجلد الثاني ،1970 م .

3. الشيخ الأمير ابراهيم الفكي ، الدعوة الإسلامية وتطورها في السودان ، مجلة البيان , العدد (13) ، الخرطوم ، جمادي الأول 1401هـ ــــــ مارس 1981م .

4. الأمين منقه، العلاقات السودانية النيجرية في إطار المهدية ، سلسلة الدراسات السودانية ، رقم (17) ، 1991م .

خامساً: المراجع العربية:

(1) أبوالعـــلاء محمـــد عبدالرحمـــن عبدالرحيـــم ، تحفـــة الأحـــوذي بـــشرح جامـــع الترمـــذي ، المجلـــد التاســـع ، ط1، القاهـــرة، دار الحديـــث ، 1421هـ ــــــــ 2001م .

(2) أبـــو داؤود ســـليمان بـــن الأشـــعث ، ســـنن أبـــو داؤود ، ط1، القاهـــرة، مكتبـــة البـــاب الحلبـــي، 1371هـ .

(3) أبوعيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى الضحاك السلمي الترمذي ، الصحيح الجامع سنن الترمذي , ج4, ط1, القاهرة , شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده, 1383هـ- 1962م.

(4) أحمد أمين ، زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، بيروت، دار الكتاب العربي ، 1965م .

(5) ...، ضحى الإسلام ، ج3, ط1 ،

(6) ,,, ظهر الإسلام ،ج4 ، ط1، القاهرة ، 1975م.

(7) أحمد شلبي ، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، المجلد الثامن ، ط 1، القاهرة , 1983م .

(8) أحمد عثمان ابراهيم ، تطور الوعي القومي في السودان ، مدني، مطابع النيل الأزرق.

(9) أحمد أحمد سيد أحمد ، تاريخ الخرطوم تحت الحكم المصري 1820 ـــ1885م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب , 2000م .

(10) الســـيد يوســـف نـــصر ، الـــدور الحضـــاري للجيـــش المـــصري في القـــرن التاســـع عـــشر في آســـيا وأفريقيـــا ، القاهـــرة، مكتبـــة مدبـــولي ، 1983م .

(11) الشاطر بصيلي عبدالجليل ، تاريخ حضارات السودان الشرقي والأوسط من القرن السابع الميلادي إلى القرن التاسع الميلادي ، معالم تاريخ سودان وادى النيل من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي، ,ط1 ، القاهرة ، 1955م .

(12) الصادق المهدي , يسألونك عن المهدية، بيروت، دار القضايا ،1975م .

(13) بابكر بدري ، حياتي , ج1.

(14) بشير كوكو حميدة ، ملامح من تاريخ السودان في عهد الخديوي اسماعيل ، ط1, 1984م ،

...، صفحات من التركية والمهدية، دار الارشاد ،الخرطوم ، د. ت.

(15) توماس أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن ابراهيم حسن ، عبدالمجيد عابدين ، اسماعيل النحراوي ، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية ، 1970م .

(16) جلال يحي ، الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية في السودان ، ط1 ، القاهرة , 1959م .

(17) حاجة كاشف بدري ، الحركة النسائية في السودان ، ط1, دار جامعة الخرطوم للنشر ، الخرطوم ، 1984م .

(18) حسن مكي محمد أحمد ، السياسات الثقافية في الصومال الكبير(قرن أفريقيا) ، 1887ــــــ 1986م، ط1، المركز الإسلامي الإفريقي ،الخرطوم ، 1410هـ ـــــ 1990م.

(19) حمدنا الله مصطفى حسن ، التطور الاقتصادي والاجتماعي في السودان 1841ــــــ 1881م, ط،, دار المعارف ، 1985م .

(20) خليل أحمد السهار ، بذل المجهود في حل أبي داؤد ، ج9 ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ،, د. ت .

(21) ريتشارد هيل ، على تخوم العالم الإسلامي ، حقبة من تاريخ السودان 1822ــــــ1841م ، ترجمة عبدالعظيم عكاشة , ج1 .

(22) زاهر رياض ، السودان المعاصر منذ الفتح المصري حتى الاستقلال 1821ــــــ1953م ، القاهرة، المكتبة الأنجلوالمصرية ، 1966م .

(23) سعاد عبدالعزيز أحمد ، قضايا التعليم الأهلي في السودان ، الخلاوي والمدارس الأهلية ، 1898ــــــ1956م ، ج1, ط1، مطبعة جامعة الخرطوم ، دار جامعة الخرطوم للنشر ، 1991م

(24) سعد محمد حسن ، المهدية في الإسلام منذ أقدم العصور حتى اليوم ، ط1، مصر، مطابع الكتاب العربي ، 1373هـ ـــــ 1953م .

(25) سليمان كشه ، تأسيس مدينة الخرطوم والمهدية ,،د.ت.

(26) شوقي الجمل ، تاريخ سودان وادي النيل ، حضارته وعلاقاته بمصر من أقدم العصور حتى الوقت الحاضر ، ج2 ، القاهرة، الأنجلو المصرية 1969م .

(27) عبدالرحمن الرافعي ، مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ، ط2 ، القاهرة , 1948م.

(28) عبدالرحمن بن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، القاهرة، دار الشعب ، د.ت.

(29) عبدالرحمن زكي ، الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا ، القاهرة، مطبعة يوسف ، 1965م .

(30) عبدالعزيز حسين الصاوي ومحمد علي جادين ، الثورة المهدية، مشروع رؤية جديدة ، ط7 ، 1407هـ ـــــ 1987م .

(31) عبدالله صالح سفيان،المهدية ــــــ جدل الانسان والانتظار ، ط1، الدار البيضاء ,1420هـ ـــــ 1999م .

(32) عبد الله محمد أحمد ، جهاد في سبيل الله ، الخرطوم ،1965بدون تاريخ .

(33) عبـد القـادر أحمـد عطـا ، هـذا حـلال وهـذا حـرام ، القاهـرة ، 1395هـ ـ1975م .

(34) عبدالقـادر محمـود ، الطوائـف الصوفيـة في السـودان ، ط1 ، الخرطـوم ، 1971م .

(35) عبدالمجيد عابدين ، تاريخ الثقافة العربية في السودان ، ط2 ، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ، 1967م .

(36) عبدالمحمود أبوشامة ، من أبا إلى تسلهاي (حروب حياة الامام المهدي) .

(37) عبدالودود ابراهيم شلبي ، الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني ودعوته ، القاهرة , د. ت

(38) عبدالوهاب أحمد عبد الرحمن ، توشكي , دراسة تاريخية لحملة عبدالرحمن النجومي على مصر ، ط1، الخرطوم , 1979م .

(39) عزة الريح العيدروس، أم درمان: الانسان والأرض عبر القرون والحقب، 1421هـ ـــــ 2000م.

(40) علي حسن عبدالله ، الإدارة والحكم في السودان ، القاهرة، دار المستقبل العربي ، 1986م.

(41) علي صالح كرار ، الطريقة الإدريسية في السودان ، ط1 ، بيروت، دار الجيل،1411هـ ـــــ 1991م .

(42) علي محمد بركات ، السياسة البريطانية واسترداد السودان 1889ـــــ 1899م , 1977م .

(43) محجوب عمر باشري ، معالم الحركة الوطنية في السودان ، ط1،بيروت، 1416هـ ـــــ 1996م .

(44) محمد ابراهيم أبوسليم , منشورات المهدية ، بيروت ، 1969م .

...، مذكرات عثمان دقنة ،ط2، شركة دار البلد للطباعة والنشر والتوزيع، 1998م .

.....، الحركة الفكرية في المهدية ،ج3 ، الخرطوم ، 1989م .

.....، تاريخ الخرطوم ، ط3، دار الجيل ، بيروت ،1412هـ ـــــ 1992م.

.....، بحوث في تاريخ السودان ، بيروت ، 1412هـ ـــــ 1992م

.....، أدوات الحكم والولاية في السودان ، ط1 ، بيروت، دار الجيل ، 1413 هـ ـــــــ 1992م

.....، الآثار الكاملة للامام المهدي ، ط1، المجلد الأول ، الثاني ، السادس ، 1994م .

.....، المرشد إلى المهدية .

.....، الشخصية السودانية .

(45) محمد ابراهيم نقد ، علاقات الرق في المجتمع السوداني , النشأة ـــــ السمات ـــــ الاضمحلال ، توثيق وتعليق ، ط2، الخرطوم ، السودان، دارعزة للنشر والتوزيع ، 2003م .

(46) محمد أحمد الجابري ، في شأن الله أو تاريخ السودان كما يرويه أهله ، القاهرة ,1948م.

(47) محمد الأمين سعيد ، عصري عباس ومحمد سعيد في السودان 1265ـــ1279هـ / 1848 ـ1863م ، مطبعة جامعة الخرطوم ، 2018م .

(48) محمد الخضري ، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية)،ط5، 1364هـ ـ 1945م.

(49) محمد النور ضيف الله ، مقدمة كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والشعراء في السودان ، ط 4 ، نشر وتحقيق ابراهيم صديق ، الخرطوم ، 1992م .

(50) محمد سعيد القدال ، الامام المهدي (لوحة ثائر سوداني) ، 1985م .

....., السياسة الاقتصادية للدولة المهدية ، ط1 ، 1986م.

(15) ....., تاريخ السودان الحديث 1820 ــــــــ1955م ، الخرطوم ، 1991م

(52) محمد عبد الرحيم , النداء في دفع الافتراء ، القاهرة ، 1952م .

(53) محمد عمربشير ، تطور التعليم في السودان 1898ـ1956م ، ترجمة هنري رياض وآخرون ، بيروت، دار الثقافة ، الخرطوم، مكتبة خليفة عطية بالسجانة ، د.ت.

(54) محمد عوض محمد ، السودان الشمالي ، سكانه وقبائله ، ط1، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، 1951م .

(55) .... الشعوب والسلالات الأفريقية ، سلسلة دراسات أفريقية ، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، 1965م .

(56) محمد فؤاد شكري ، الحكم المصري في السودان ، 1820 ــــــــ 1885م ، القاهرة، دار الفكر العربي ، 1947م .

(75) ....، مصر والسودان ، تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر 1820ـ 1899م ، القاهرة ، 1963م .

(58) محمد محجوب مالك ، المقاومة الداخلية لحركة المهدية (1881ـ1898م) ,ط1, بيروت ، 1987م .

(59) محي الدين بن عربي , الفتوحات المكية ،ج3 ، ط1، بيروت ، 1418هـ ــــــــ 1998م.

(60) مكي شبيكة ، السودان في قرن ، ط2 ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، 1376هـ ــــــ 1957م .

(16) ....، تاريخ شعوب وادي النيل، مصر والسودان في القرن التاسع عشر الميلادي ، بيروت ، 1965م .

....، السودان عبر القرون ، دار الجيل ، بيروت ،1411هـ ــــ 1991م .

(62) منصــور خالــد ، حــوار مــع الصفــوة ،ط1 ، جامعــة الخرطــوم، دار التأليــف والترجمــة والنــشر ، 1974م .

(63) مــوسى المبــارك الحســن، تاريــخ دارفــو الســياسى(1882م-1898م)،ط2، الخرطــوم، دار الخرطــوم للطباعــة والنــشر والتوزيــع، 1995م .

(64) نــاصر الســيد , تاريــخ السياســة والتعليــم في الســودان ، الخرطــوم، دار جامعــة الخرطــوم للنــشر .

(65) يحــي محمــد ابراهيــم ، التعليــم الدينــي في الســودان ، ط1، دار الجيــل ، لبنــان ، 1407هـ ــــ 1987م .

(66) يوســف فضــل حســن ، دراســات في تاريــخ الســودان وأفريقيــا ،ج2, ط1، 1989م .

سادساً: المراجع الأجنبية:

(1) A.B. Theobald : the Mahdiya . London 1962.

(2) Churchill, ws: the River war , Landon 1949,

(3) Hill,R: Egypt in the sudan , London ,1959.

(4) HoskinsG.A :Travels in Ethopia , London 1835.

(5) Holt. P.m: TheMahadist state in the Sudan 1888- 1898- Oxford 1959.

(6) Ohrwalder .J :Ten years captivity in the mahdis camp. 1882 –1892,London1970.

(7) Trimingham :Islam in Sudan,London,1949.

(8) Wingate : Mahdism in the Anglo- Egyptian Sudan ,London 1889



دار آريثيريا للنشر والتوزيع

Arrythria for Publishing and Distribuation

كانت الحركة المهدية كغيرها من الحركات الإصلاحية الإسلامية التي سبقتها تهدف إلى إحياء شرائع الإسلام السمحة ومقاومة الفساد ومناهضة النفوذ الأجنبي متمثلاً في الأتراك. وقد اهتمت بعد انتصارها على الحكم التركي- المصري في السودان بتربية الفرد باعتباره العنصر الأساسي في بناء المجتمع. وحتى تؤتي هذه التربية ثمارها أصدر قائدها محمد المهدي بن عبد الله مجموعة من قوانين الإصلاح الاجتماعي التي أحدثت تغيرات واسعة في حياة المجتمع السوداني وساهمت في تنقية المجتمع مما كان يعلق به من شوائب.

وتنبع أهمية الكتاب في أنه يتعرض إلى جانب مهمل في تاريخ المهدية لم يجد حقه من الباحثين والمؤرخين. لذا يقدم لنا الكتاب تجربة في الإصلاح الاجتماعي للمجتمع السوداني إذا تمت دراستها بعمق يمكن أن نأخذ منها الكثير من العبر والدروس. ويهدف الكتاب إلى تسليط الضوء على الدور الإصلاحي الاجتماعي الذي قامت به الدولة المهدية في السودان. وقد اتبعتُ المنهج التاريخي والتزمتُ في إطار ذلك باستخدام الأسلوب الوصفي والتحليلي.



دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribuation